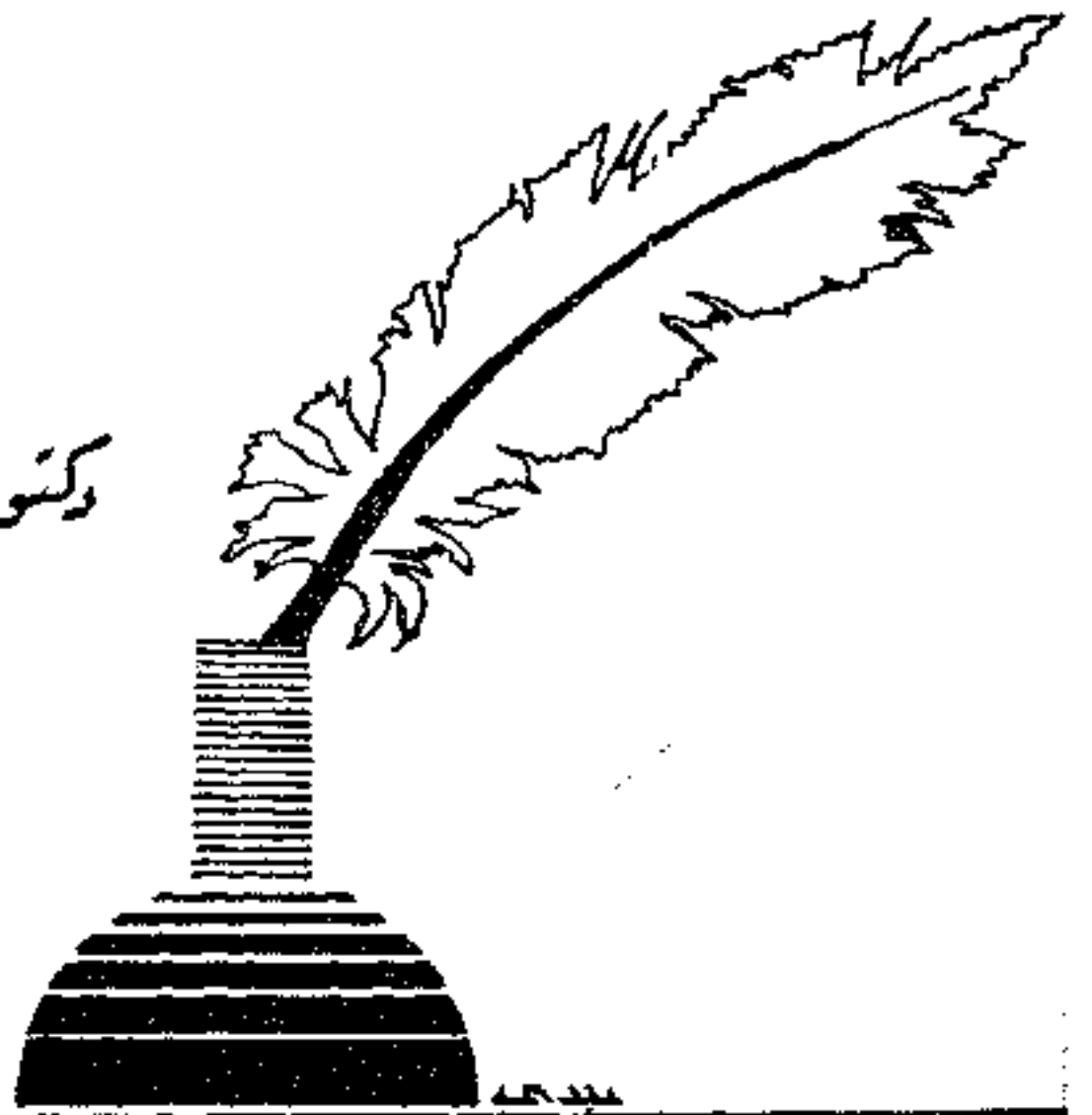


فانمض الفاطميين

دكتور محمد كامل حسين



دار الفكر العربي

في أدب مصر القاطنين

تأليف

دكتور محمد كامل حسين

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

وَأَمْرٌ بِالْفَاطِمِيَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

هذا الكتاب وفي أدب مصر الفاطمية ، حلقة جديدة من سلسلة «أدب مصر الإسلامية» ، ولكن من حقّه أن يكون بين يدي الجمهور منذ خمسة عشر عاماً ، ولكننا لم نشأ أن نخرجه للناس قبل أن نعطيهم صورة صحيحة لتلك النزعة الدينية التي تمايز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور مصر ، فقد خضعت مصر لهذا المذهب الديني واتخذها أمة هذا المذهب قاعدة ملكهم ، فأصبح هذا المذهب هو المحور الذي تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية ، بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية في عصر الفاطميين إلا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين . أدركنا هذه الحقيقة وقرأنا الكتب التي تحدثت عن الفاطميين وعقائدهم ، فرأينا هذه الكتب تعطينا صوراً متناقضة أشد التناقض عن عقائد الفاطميين بحيث لا يستطيع أن يطمئن إليها باحث ، ففي الوقت الذي نرى فيه هذه الكتب تذهب إلى أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس ديني إسلامي ، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالاً لم يعهد من قبل ، وأنهم أسسوا المساجد لإقامة الصلوات ، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة في الأعياد إلى غير ذلك من المظاهر التي تشعر بأن الفاطميين كانوا من أشد الناس حرصاً على الإسلام وتقاليد المسلمين ، في الوقت نفسه نرى هذه الكتب أيضاً تذهب إلى أن الفاطميين كانوا يقولون بالإباحة وتحليل ما حرّمه الله تعالى ، وبنذوا الصلاة والصوم والحج ، بل عملوا على طرح الأديان ، ودانوا بالتناسخ والحلول والتلاشي وادعوا معرفة الغيب . . . إلى غير ذلك . قرأنا ذلك كله وصجنا أشد العجب لهذا التناقض الذي وقع فيه القدماء والمحدثون ، فحرصنا على أن نرجع إلى كتب دعوة الفاطميين ، وراعنا أن القاهرة التي أنشأها الفاطميون وكانت

قاعدة ملكهم الواسع لا تحتفظ بكتاب واحد من كتب الدعوى ، فسينا إلى البحث في غير مصر ، وكان السعي شاقاً صبراً كلفنا من الجهد والمال الشيء الكثير ، وما حيلنا إذا كانت أكثر كتب الدعوة في حوزة طاهر سيف الدين الذي لقب نفسه بسلطان البهرة وزعم أنه الداعي المطلق لإمام مستور من نسل الأئمة الفاطميين ، وهو رجل شحيح بهذه الكتب على الباحثين بدعوى أنها كتب الدعوة السرية ، ولكن حجته هذه أو هي من بيت المنكوبات فإن الأئمة الفاطميين — الذين ورث دعوتهم — لم يستروا علومهم ، بل عملوا على نشرها وإذاعتها : شجروا العلم والعلماء ، وأنشأوا دار العلم وخزان الكتب ليطلع عليها من يشاء متى يشاء ، وكانوا يطلبون من العلماء تأليف الكتب التي تنشر في هذا الكتاب ، فطاهر سيف الدين الآن يعمل عكس ما عمله الأئمة ، ويأتي بأراء لم نهدما في عصر الفاطميين ، ولعله يريد أن يظل أتباعه في جهل مطبق حتى يستطيع أن يمدحهم بهذه الآراء الرجعية التي لا سند لها من عقائد الأئمة وفظلمهم ، ومن يدري لعله يريد أن يستغل ما عنده أتباعه من جهل بحقيقة الدعوة الفاطمية كي يستولي على أموالهم باسم الدين ، شأنه في ذلك شأن كل دجال مشعوذ ، ومع ذلك كله ففي طائفة البهرة عدد من المثقفين المستبشرين الذين لا يعبأون بطاهر سيف الدين ولا يقيمون وزناً لضلالاته ، زدونا بالكتب التي حرصنا على تقديمها للجمهور قبل أن تقدم إليهم هذا الكتاب حتى يدركوا حقيقة الدعوة الفاطمية من كتب الدعوة أنفسهم ، فقد نشرنا ستة كتب فاطمية وسيتمها كتب أخرى إن شاء الله .

والدعوة الفاطمية دعوة شيعية وقبل أن نتحدث عنها وعن أثرها في مصر نسأل : إلى أي حد عرفت مصر التشيع قبل دخول الفاطميين بها ؟
كان المسلمون في مصر بعد الفتح العربي يجمعون على منذهب واحد ، ويخضعون لأمام واحد ، فلم نعرف أنه كان بين العرب الوافدين من مخالفة في مسألة الإمامة ، أو تحدث عن تفضيل خليفة على آخر ، ولكن بدأ المسلمون في عهد عثمان بن عفان يتحدثون عن سياسته وتصرفاته ، فانهز بعض المسلمين في مصر هذه الفرصة ودعوا لخلعه ، ويروي الطبري قصة عجيبة عن ثورة المصريين ضد عثمان ، ولأن ذلك كان متأخراً عهداً عن بن سبأ ١١

يقول الطبري : « كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ،
فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم
البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ،
فأخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتصر فيهم ، فقال لهم فيما قال : لعجب من يزعم
أن عيسى يرجع ، فهو يكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي
فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل
ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف
نبي ، ولكل نبي وصي وكان على وصي النبي ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم
الأوصياء . . . الخ (١) ، وهكذا ساق الطبري هذه الرواية بين روايات عديدة
عن سبب قيام المصريين ضد عثمان ، ونحن نعجب لهذه الرواية إذ لم نجد في
كتب التاريخ التي وضعها المصريون عن بلدهم وعن تراجم رجال مصر مثل
كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وكتب الكندي وابن الداية وابن زولاق ،
أو في كتب المتأخرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرخين القنعاء ما يشير إلى وفود
شخصية عبد الله بن سبأ على مصر ، أو أن أحداً من المصريين قال بمثل هذه
المقالة التي زعم الطبري أن ابن سبأ عليها للمصريين ، فلو صححت رواية الطبري لرأينا
شيئاً من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذاك لهذه الدعوة السيئة ،
ومعارضتهم لها ، ولا سيما أن ابن عبد الحكم وغيره رووا بعض الأحاديث عن
صحابة مصر وترجموا لهم ولم يرد ذكر ابن سبأ ولا آرائه . ولم يذكروا شيئاً عن
إنكار هذه الآراء أو معارضتها ، قصة ابن سبأ في مصر ، وأنه بث آراء التشيع
بين المصريين هي أقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر .

حقيقة تاريخ بعض المصريين على عثمان ، وقام محمد بن أبي حذيفة بانتزاع
الإمارة في مصر ، وطرد عامل عثمان من الفسطاط سنة ٤٣٥ هـ وزج بعدد من
شيعة عثمان في السجون ، ولكن ليس معنى ذلك أن ابن سبأ هو الذي أثر على
الناس وألبهم على عثمان ، إنما كان ذلك بتدبير بعض أبناء الصحابة الذين كرموا
أن يكون أمير مصر هو عبد الله بن أبي سرح أخو عثمان في الرضاعة ، وكبر في

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨ (طبعة مصر) .

فحسبهم أن يعزل عمرو بن العاص عن مصر ، فلم تكن ثورة المصريين ضد عثمان تمت بسبب إلى تشييع المصريين إلى علي بن أبي طالب أو المطالبة بإمامته ، وعلى الرغم من أن المصريين هم الذين بايعوا علياً بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فإن ذلك لم يكن عن حب خالص له أو عن عقيدة بأنه أحق الناس بها ، فالتفاوضات التي كانت قبل مبايعته تدل على أنهم نظروا إلى علي بن أبي طالب نظرهم إلى غيره من الصحابة ، أضف إلى ذلك أن المصريين بعد أن بايعوا علياً طردوا إلى الفسطاط وهم يرجزون :

خذها إليك واحذرن أبا الحسن
إننا نمر الحرب لإمرار الرحمن
بالسيف لن نحمد نيران الفتن

ففي هذا الرجز تحذير للإمام الجديد علي بن أبي طالب ، فإن سار على نهج عثمان في سياسته فهي الحروب الدائمة والفتن المستمرة ، فهذا دليل على أن المصريين لم ينهبوا في علي بن أبي طالب ما رواه الطبري عن ابن سبأ ، وأن المصريين لم يقبلوا علياً أو يقولوا بوصايته ، ثم إننا نرى المسلمين في مصر اقساموا بعد مقتل عثمان إلى فريقين : فريق يطالب بدم المقتول ، وفريق يؤيد خلافة علي ، وكانت مصر من الولايات التي خضعت للأمراء الذين أرسلهم علي ، ولكن أنصار علي لم يكن لهم شأن كبير في الأحداث التي جرت ، ولم يقيموا وزناً للنزاع بين علي ومعاوية ، فقد سم الأشر النخعي على حدود مصر ، وقتل الوالي محمد بن أبي بكر الصديق ، وأدخلت جثته في إهاب حمار وأحرقته على مرأى من المصريين فلم يحرك شيعة ساكناً ، ولو كان التشييع في مصر قوياً لأسهم الشيعة في النزاع بين علي ومعاوية ولناصروا علياً ، ونحن نتساءل أيضاً ، أين كان شيعة مصر عندما قتل علي وبعد مقتل الحسين ؟ وأين كان شيعة مصر لإبان حركة المختار الثقفي ؟ هذه أسئلة لم يجب عنها المؤرخون ، فالمصادر التي بين أيدينا لم تذكر شيئاً عن قيام الشيعة بمصر في المساهمة في الحركات الشيعية التي كانت في الأقطار الأخرى ، مما يجعلنا نذهب إلى أن الشيعة في مصر كانوا من الضعف لدرجة أنهم لم يؤثروا في الحياة السياسية والعقلية ، ولذلك نحب لقول

المؤرخين الذين يزعمون أنه بعد أن تم الأمر للامويين أصبح الجند وأهل شوكة مصر عثمانية وكثير من أهلها علوية^(١). والمقصود بالعثمانية أهل الكف الذين قالوا : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . وإذا كان هذا موقف الشيعة في مصر من علي وابنه الحسين فكيف نرى عدداً من المصريين يخرج لناصرة عبد الله بن الزبير في ثورته سنة ٦٤ هـ ضد الأمويين ، بل نرى ابن الزبير يرسل والياً من قبله علي مصر هو عبد الرحمن بن جندب القهري وهو من الخوارج ، وقد قدم مصر ومعه عدد كبير من الخوارج فأظهروا بمصر التحم ودعوا إليه^(٢) ثم طادت الشوكة والقوة للعثمانية بعد فشل الزبيريين وعودة مصر لسلطان الأمويين ، وكان الأمويون يظهرون في مصر سب علي بن أبي طالب دون خشية ثورة الشيعة وذلك لضعف شأن الشيعة في مصر ، ومع ذلك فقد روى المقرئ عن يزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ أنه قال : نشأت بمصر وهي علوية قلبتها عثمانية^(٣) فإن صح هذا القول عن يزيد قائماً يدل على أن بعض المصريين كانوا يتحدثون عن فضائل علي ، وأن يزيد استطاع أن يصرف الناس عن ذلك ويجعلهم يميلون إلى رأي أهل الكف والمسائل الفقهية ، ولا نستطيع أن نقول : إن المصريين شغلوا بالآراء الشيعية التي شغلت شيعة العراق وفارس . فإننا نستطيع أن نمر بالصر الأموي في مصر دون أن نسمع شيئاً عن الشيعة بمصر ، ومن يدري لعله كان بمصر شيعة هوام مع أبناء علي وقلوبهم مع أهل البيت ولكن سيوفهم كانت مع بني أمية ، وأغفلت كتب التاريخ الحديث عنهم فأصبحنا لا ندرى شيئاً عن نشاط الشيعة في مصر في هذا العصر الأموي ولا عن العقائد التي دانوا بها إلا ما قيل عن قصة فراد مروان بن محمد إلى مصر من وجه المسودة ، فقد وجد الدعوة الجديدة سبقت إلى مصر ووجدت بين المصريين قبولا ، وقد ذكر الكندي أسماء زعماء هذه الحركة بمصر ، ففي الحرف الشرقي كان أول من لبس السواد شرحبيل بن مذبلقة الكلبي ، وفي الإسكندرية كان الأسود بن قافع ، وبالصعيد عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني ، وبأسوان يحيى ابن

(١) المقرئ : الخطط ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاء ص ٤١ .

(٣) المقرئ : الخطط ج ٤ ص ١٤٦ .

مسلم (١)، ونحن نعلم أن دعوة المسودة في أول أمرها كانت للرضا من أهل البيت، وتوهم الشيعة في جميع الأقطار الإسلامية أن الدعوة لهم فاستجابوا لها ونشطوا مع القائمين بها، فلمل هؤلاء الذين دعوا للمسودة في مصر كانوا من الشيعة وتوهموا ما وهمه غيرهم، فإن صح ذلك فتكون هذه أول حركة شيعية في مصر علينا بها. ومنها يكن من شيء فإن مروان استطاع أن يقضى على هذه الحركة وأن يقتل زعماءها، ولكن القدر لم يمهله كي يستمر في حكم مصر، فقد دخلت جيوش العباسيين مصر سنة ١٣٣ هـ وقبض على مروان بن محمد ومن معه من المواليين للأمويين وخصمت مصر للعباسيين، وكان العباسيون في مبدأ أمرهم يتحجبون إلى الشيعة، فحج من مصر سب على وآله، وظن العلويون أن الأيام أقبلت عليهم، وجاءت دولتهم التي طالما حلوا بها، ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى أن العباسيين قهمة حلت بهم، ذلك أن العباسيين نكلوا بأهل البيت ومن لاذ بهم أو من عرف بولايتهم، فلا غرابة إذا كنا نرى في العصر العباسي سلسلة حركات شيعية تظهر من وقت إلى آخر، وأمعن الشيعة في التقية وأكثروا من الدعوات السرية المختلفة وكانت مصر من الميادين التي ظهرت فيها بعض حركات الشيعة في العصر العباسي، ففي خلافة أبي جعفر المنصور قدم مصر سنة ١٤٤ هـ على بن محمد بن عبد الله ودعا لأبيه النفس الزكية، وانتشرت دعوته في البلاد على يد الداعي خالد بن سعيد بن ربيعة الصديقي، ولكن الوالي العباسي استطاع أن يقضى على هذه الحركة (٢). وفي عهد المتوكل العباسي أرسل إلى والي مصر بإخراج كل أهل البيت من مصر إلى العراق فأخرج الوالي اسحق بن يحيى سنة ٢٣٥ هـ بعض أهل البيت بعد أن فرق فيهم الأموال ليتحملوا بها فأصلى كل رجل ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً (٣)، فاضطر من كان بمصر من الشيعة إلى التقية خوفاً من بطش العباسيين. ولا سيما بعد أن أصبح أكثر الولاة في مصر من الأتراك الذين كانوا شديدي التعصب ضد الشيعة، ولعل أكثر الولاة الأتراك اضطهاداً للشيعة ومطاردة لهم هو الوالي يزيد بن عبد الله

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٤ .

(٢) القرظي : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٨

الذي ولي مصر سنة ٢٤٢ هـ وظل على مصر حتى سنة ٢٥٥ هـ وتذكر كتب التاريخ قصصاً عديدة مما آتاه هذا الوالي من اضطهاد الشيعة ، من ذلك أنه ضرب رجلاً من الجندي في شوقه وجب عليه فأقسم الجندي عليه بحق الحسن والحسين إلا إعفاء فزاده الوالي ثلاثين درة ، ورفع صاحب البريد أمر هذا الجندي إلى الخليفة في بغداد فأمر بضربه إمامة سوط ثم حمل بعد ذلك إلى بغداد (١) ، وفي أيامه دل على علوي هو محمد بن علي بن الحسن بن علي زين العابدين فطلب الوالي وأحرق الموضع الذي به العلوي بعد أن قبض عليه (٢) ، وفي أيامه أيضاً آتاه من بغداد بأن لا يقبل علوي ضيعة ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب بيئته (٣) وفي سنة ٢٥٠ هـ أخرج هذا الوالي ستة رجال من الطالبين إلى العراق ، وفي رجب من السنة التالية أخرج ثمانية منهم (٤) ، وكانت هذه السياسة التعسفية سبباً في أن يتضم أحد العلويين وهو عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الأرقط إلى ثورة جابر المدلجي سنة ٢٥٢ هـ وقوى الثائرون بانضمامهم وزاد عددهم فهزموا جيش الوالي الذي استعان بالخليفة العباسي فأمدته الجيش بقيادة مزاحم بن عاقان فأخذت الثورة واستأن ابن الأرقط العلوي فأخرج من مصر (٥) ، وفي سنة ٢٥٤ هـ ثار بضا الأكبر وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن طباطبا ولكنه هزم وقتل ، وفي سنة ٢٥٥ هـ في ولاية أحمد بن طولون خرج بضا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا وانتشرت دعوته في الإسكندرية وبرقة والصعيد ولكنه قتل ، وفي هذه السنة أيضاً خرج بمصر ابن الصوفي وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى من نسل عمر بن أبي طالب واستمر قائماً يحارب ابن طولون أربع سنوات إلى أن هزم فاضطر إلى أن يهرب إلى مكة سنة ٢٥٩ هـ . وكانت المصائب التي صبها الجند من السودان على الشيعة بمصر أضعاف مائات

(١) القرظي : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٢) الكندي : الولاة والفتنة ص ٢٠٤

(٣) القرظي : الخطط ج ٤ ص ١٥٤ (٤) الكندي الولاة ص ٢٠٥

(٥) ضمن المصدر ص ٢٠٨ .

الشيعة من اضطهاد الولاة ، فقد كثر عدد السودان في مصر واستفحل أمرهم ، فأصبحوا مصدر قن بين أهل السنة والشيعة ، ففي سنة ٢٥٠ هـ خرج شيعة مصر إلى قبر كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق وأقاموا هناك مآتم الحسين ، فتدخل الجند واضطربت الأمور بين الجند والشيعة ، وقتل جماعة من الفريقين فلم يكتف الجند من السودان بذلك بل ساروا في الطرقات يصيحون : معاوية خال علي !! حتى أنهم كانوا يصيحون بنقيب الأشراف الحسينيين أبي جعفر مسلم ويهتفون بذلك في وجهه (١) ، ولما ورد الخبر بقيام نبي الحسن بمكة ومحاربتهم الحاج ، خرج خلق من المصريين ولقوا كافوراً الأخشيدى بالميدان وصاحوا : معاوية خال علي !! وسألوه أن يبعث جيشاً لمحاربة نبي الحسن (٢) .

وهكذا كان حال الشيعة في مصر ، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم في الأقطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين و قعتهم ، وهذه الأمثلة التي أوردنا بعضها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشيع بدأ يدخل مصر ، بل أخذ يقوى ويشتد أثره ، وأصبح الشيعة يؤثرون في الحياة العامة بمصر ويقومون بثورات ضد الولاة . أضف إلى ذلك أن مصر في هذا العصر شابهت عدداً من العلماء الذين كانوا يفضلون علياً على الشيخين ، ويخلصون في حبه لأهل البيت ولعل الشافعي أصدق مثل لذلك ، ففي شعره ما يدل على عاطفة مخلصه قوية لأهل البيت فهو يقول :

يا آل بيت رسول الله حبيكم فرض من الله في القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له (٣)

فهذا قول إمام من أئمة أهل السنة ، وصاحب منزه فقهي من مذاهبيهم ، فقد ذهب إلى أن حب أهل البيت فرض أنزله الله تعالى في القرآن ، وأن الله تعالى لا يقبل صلاة من لا يصل على أهل البيت ، وهذه آراء شيعية لا يقول بها إلا متعصب في تشيعه ، ونحن نشك في أن تصدر مثل هذه الآراء من الشافعي ونحشى أن تكون موضوعة ونسبت إليه ، ولكن الشافعي بظهر مرة أخرى أنه يحب علياً ولا ينكر فضل الشيخين ، وهذا الرأي يخالف الرأي السابق فالشافعي يقول : إذا نحن فضلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوى الجهل

(١) القرظي : المخطوط ج ٤ ص ١٥٥ (٢) شرحه (٣) الجوهر النخيس ص ٤٦ .

وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما بحبيها حتى أوسد في الرمل
وهكذا كان الشافعي في أحاديثه وأماله وأشعاره يشيد بفضل علي ووجهه ،
وأخذ المصريون عن الشافعي فيما أخذوه هذا الحب لأهل البيت . واتخذ المصريون
جادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتا ، فقد قيل : إنه في سنة ٢٠٨ هـ توفيت
بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها إسحق بن جعفر الصادق
أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، ولكن أهل مصر سألوه أن يتركها في مصر ليتبركوا
بها (١) فدفنت في مصر وبني قبرها الوالي عبيد الله بن السري بن الحكم ، ولا يزال
قبرها إلى الآن مقصد المسلمين في مصر يتبركون بها . ووضع النسائي المحدث
المعروف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب رواه عنه المصريون ومنهم القاضي
الفقيه محمد بن أحمد بن الحداد (٢) وكان هذا القاضي ممن يفضلون عليا ولكنه لم
يستطع أن يصرح بذلك خوفا من السلطان ومن شغب العامة ، ويروي ابن زولاق
أن ابن الحداد كان في مجلس أبي القاسم بن الإخشيد مع جماعة ، فلما نهض ابن الحداد
أمسكه ابن الإخشيد وسأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فقال القاضي :
الاثنان حذاء واحد . فكرر عليه السؤال فقال ابن الحداد : إن كان عندك فعل
وإن كان بره (في الخارج) فأبو بكر (٣) وشيبه بهذا ما يرويه ابن زولاق أيضاً
عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم فقيه مصر ورئيس مذهب مالك في عصره
أن رجلاً سأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فاستعفاه ابن عبد الحكيم
فأخ عليه الرجل ، فقال له ابن عبد الحكيم : إن أخبرت أحداً عما أقول لك كنت
أحمد بن طولون الأمير فضربك بالسياط ، علي أفضل (٤) . وقبل أن يموت ابن
المزروع كان في حلقة يلقى دروسه الأدبية واللغوية على المصريين فتطرق الحديث
عن أبي بكر وعمر وعلي فاقسم الناس إلى طائفتين طائفة يزيد فضائل علي ،
وطائفة يزيد فضائل أبي بكر ، وكانت هذه الطائفة الأخيرة أكبر (٥) فهذا كله

(١) القرظي : الخطط ج ٣ ص ٣١٥ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر (نسخة خطية بدار الكتب المصرية) .

(٣) نفس المصدر . (٤) نفس المصدر .

(٥) ابن زولاق : أخبار سيوفه المصري ص ٣٩

يدل على أن المصريين أخذوا ينقسمون بين أبي بكر وعلي . وأن الحديث قد
كثُر في التفضيل بينهما ، ولكن الذين كانوا يفضلون عليا كانوا يتبرون خوفا
من شغب العامة ويخشون الولاة وجندهم من السودان .

على أن أمر الشيعة بمصر أخذ يقوى منذ استطاع دعاة صيد الله المهدي
مؤسس الدولة الفاطمية بسط دعوتهم في شمال أفريقيا وقويض أركان دولة
بنى الأغلِب ، وقد كان للمهدي دعاة وأنصار بمصر ، ويحدثنا القاضي النعمان في
كتابه افتتاح الدعوة ، أن المهدي نفسه دخل مصر مستتراً في زى التجار هرباً
من العباسيين ، فأثبت الكتب من بغداد إلى والى مصر بصفة المهدي والأمر في
طلبه ، وكان بعض أهل خاصة ذلك الوالى ولياً مؤمناً (بدعوة المهدي) فأسرع إلى
المهدي بالخبر ، ولطف في أمره إلى أن خرج المهدي من مصر ومعه القائم وبعض
عيده (١) . ويروى صاحب سيرة جعفر بن علي الحاجب . وسرنا (أى المهدي
ورجاله) من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي ، وكان مقياً يدعوها
وأكثر دعاة الإمام من قبله . وكان فيروز الذى رعاه ورباه وزوجه ابنته أم
أبي الحسين ولده ، فتقدم إليه المهدي قبل دخوله مصر بأن لا ينزله عنده
ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يشق به فأنزله عند
ابن عياش (٢) . ويقول في موضع آخر عن داعي المهدي بمصر : ولما صح عند
فيروز خروج المهدي إلى المغرب تغيرت نيته وعزم على النفاق ، وكان قد زوج
ابنته كما ذكرنا أولاً بأبي علي الداعي بمصر ، ومحمد أبو الحسين بن أبي علي الداعي
ولده ، وقد بلغ محمد أبو الحسين هذا مع الإمامة المهدي بالله والقائم بأمر الله
والمصور بالله والمعز لدين الله صلوات الله عليهم المحل الجليل العظيم وكان داعي
الدعاة (٣) . ولما تم الأمر للمهدي بالمغرب سنة ٢٩٦هـ راسله شيعته بمصر للنهوض
إليها ، وفعلاً حاول الفاطميون غزو مصر عدة مرات ، منها تلك الحملة التي كانت
بقيادة جيباسة بن يوسف الكتامي التي فحمت في دخول الإسكندرية ولكن

(١) النعمان بن محمد : افتتاح الدعوى (نسخة خطية بمكتبي) .

(٢) سيرة جعفر : نسخة خطية بمكتبي .

(٣) نفس المصدر .

تكاثر جيوش العباسيين فانهم حباة (١) وشعر والى مصر أن بين المصريين
من كاتب الفاطميين لغزو البلاد قتبهم الوالى وسجن منهم عددا كبيرا ، وذهب
آخرين بقطع أيديهم وأرجلهم (٢) ، وفي ذلك قال الشاعر المصرى ابن مهران :

وقد وافى حباة فى كتاب بكل مهند وبكل خطى
وقد حشدوا المصر ودون مصر له خرط القناد وأى خرط
وأقبل جاعلا حتى تخطى وجاز بهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من اقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه وناقسوننا وكل فى البلاد له موطنى
قل لحباة إن كنت عنا مضيت فإن قتلك ليس يبلى (٣)

كذلك نذكر الحلة التى كان يقودها القائم بأمر الله فى سنة ٣٠٧ هـ قد فتح
القائم بأمر الله الإسكندرية ثم سار إلى الفيوم وكاتب المصريين بالشر تارة
وبالشعر تارة أخرى ، فكان القائم مؤنس الخادم يصادر هذه المكاتبات
ويرسلها إلى الخليفة العباسى المعتز ، وظلت أحوال القائم بمصر مضطربة حتى
اضطر إلى العودة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ ، وقد حفظ عريب بن سعد القرطبي
صورة مقطوعة من الشعر قيل : إن القائم أرسلها إلى شيعته من المصريين يستنهض
همهم ، وذهب عريب إلى أن هذه المقطوعة أرسلت إلى بغداد ، وأن الخليفة أمر
محمد بن يحيى الصولي بالرد عليها ، وهما المقطوعة .

أيا أهل شرق الله زالت حلومكم أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟ وغزوكم فيمن ؟ أجيبروا بلا كعب
صلاتكم والمج والغزو ويلكم بشراب خر ما كفين على الرب
ألم ترني بنت الرقاعة بالسرى وقت بأمر الله حقا كما وجب
عبرت وفي الصبر النجاح وربما تعجل ذو رأى فأخطا ولم يصب
إلى أن أراد الله إعزاز دينه فتمت بأمر الله قومة عجب
وقاديت أهل الغرب دعوة واثق برب كريم من تولاه لم يعب

(١) الكندي : الولاة ص ٢٧١

(٢) القرظي : المخطوط ج ١ ص ٢٨١ (٣) الكندي : الولاة والفتنة ص ٢٧٢

لجاءوا سراعا نحو أصيد ماجد يبادونه بالطوع من جملة العرب
وسرت بخيل الله تلقاء أرضكم وقد لاح وجه الموت من خطل الحجب
وأردتها خيلا عتاقا بقودها رجال كأمثال الليوث لها جنب
شعارهم جدى ودعوتهم أبى وقولهم قولى على النأى والقرب
فكان محمد الله ما قد عرقتم وفوت بسهم الفلح والنصر والقلب
وذلك نأى ما بقيت وذابكم فدونكم حربا تضم كالبه (١)

وتبايعت غزوات الفاطميين لمصر فكانت ترد مهزومة منحورة ، فاضطر
شيعة المهلبى إلى اتخاذ التقيّة وإلى الدعوة السرية حتى ولى كافور نيابة عن ابن
سينه الحسن بن عبد الله بن طنج وكان ابن طنج ضعيفا قطع فيه الجند وكرهوه ،
واستغل ضعفه أحد قادة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر وحبب إليه دخول مذهب
ومكانة المعزدين الله (٢) ، ويذكر ابن زولاق أنه كان بمصر داعية آخر يسمى بأبى
عيسى عبد العزيز بن أحمد (٣) ، ويخيل إلى أن أبا جعفر بن نصر الداعى كان
معروفا أكثر من صاحبه وأنه كان من جلساء كافور وبنى طنج ، وعرف عنه
الدعوة الفاطمية في مصر ولا أدرى سبب سكوت الأمير عنه ، ويذكر ابن
زولاق أن هذا الداعى بنى دارا له بمصر فر عليه سيويه المصرى فقال : كافورا
الأسود غدا يؤخذ بأذنه ، إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب يؤخذ فيها البيعة
على كل تابع ومتبوع ، وذليل مرفوع ، تغير فيها الأحوال ونحمل إليها الأموال (٤)
معنى هذا كله أن الدعوة الفاطمية كانت أسبق إلى مصر من جيوش الفاطميين
وأن السلطة استطاعوا أن يبدروا بين بعض المصريين عقائد الفاطميين فاستجاب
لهم من استجاب وكانوا عوننا للجيش جوهر القائد في دخول مصر سنة ٣٥٨ هـ
إذ كان بمصر شيعة ، ولكتنا لا ندرى إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان
المصريون ، ويطلب على ظنى أن المصريين لم يستقروا مذهبا من مذاهب التشيع
كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا للتشيع من ناحية العبادة الصلابة
كما فعل غيرهم ، إنما كان موافقهم مع على بن أبى طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم

(١) عرب بن سعد : صفة تاريخ الطبرى ص ٤٢ .

(٢) ابن زولاق ، أخبار سيويه المصرى ص ٤٠ ، وأبو الحسن : النجوم ص ٧٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٣ . (٤) نفس المصدر ص ٤٠ .

بما عدوا كما يحدد القيمة في الأقطار الأخرى ، ولم يفسفوا عقيدتهم الدينية على
النحو الذي نراه عند غيرهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل علي ، وحرصوا على
حبهم وولائهم لأهل البيت ، يكرمون الأحياء ويتركون بالأموات ، حتى دخل
جوهر مصر ، ووجد المصريون أنفسهم أن لا طاقة لهم بمقاتله وصدده عن
ديارهم ، فأرسلوا إليه وفدا برئاسة أحد العلويين بمصر كان قيب الأشراف
الحسينيين بها ، وهو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسني ، وطلبوا من جوهر الأمان
والصلح ، فأجابهم ، وكتب لهم الأمان وفيه نص بتأمين المصريين على عقيدتهم
قد كان السواد الأعظم من المصريين حريصين أشد الحرص على أن لا يتحولوا
عن مذهبهم الديني الذي كانوا عليه وهو مذهب أهل الجماعة والسنة ، وأن
لا يتعرض الفاطميون لعقائدهم التي دأبوا بها ، فألحوا في أن يذكر جوهر ذلك
في كتاب أمانه لهم . فهل وفي الفاطميون في مصر بذلك ؟ الواقع أن الفاطميين
لم يحترموا الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين فقد عملوا على تشييع المصريين
على النحو الذي سنراه في هذا الكتاب ، فأصبحت مصر شيعة لما من الآراء
ما تميز به في هذا العصر عن جميع عصورها التاريخية ، وأثرت هذه العقائد
الفاطمية الجديدة على الحياة المصرية بل تمتد مصر إلى غيرها من البلدان
الأخرى ولا سيما التي خضعت لنفوذ الفاطميين ، فأثرت في الحياة العقلية
الإسلامية تأثيراً كان له خطره في جميع البلدان الإسلامية .

وهذا الكتاب هو محاولة الكشف عن الحياة العقلية والأدبية بمصر في
عصر الفاطميين ، وهو عصر غامض لنا أشد الغموض على الرغم مما كتب حوله ،
وكان عصر الفاطميين عصرًا زاهرًا في الأدب والعلم ولكن ما بقى لنا من آثار
هذه الفنون والعلوم شيء قليل جداً متفرق في كتب مختلفة ، وقد حاولنا ما بقى
لنا أن نعطي صورة لما كانت عليه الحياة العقلية والأدبية ، ونرجو أن نكون
قد وفقنا في هذه المحاولة .

محمد كامل حسين

جزيرة الروضة في ١٥ أبريل سنة ١٩٥٠

٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

الكتاب الأول
في الحياة العقلية

الباب الأول

في الدعوة الفاطمية

الفصل الأول

عقائد الفاطميين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر يتقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعي ، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة . ومنها كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ؛ والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام ، ووصاية علي بن أبي طالب (١) ، وإمامة ابنه الحسن فالحسين ، فزين العابدين ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثني عشرية . وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الإسماعيلية وهي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فأمة (دور السر) وهم عبد الله بن محمد ، فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد (٢)

(١) قال الفاطميون : إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الإمامة وأقل من مرتبة النبوة فعلى ابن أبي طالب في مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة ولذلك لا يصوته إماماً من أئمتهم ، بل قالوا إنه : وصي النبي ، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن علياً وصي وهو أول إمام من أئمتهم .

(٢) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين ، فهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميسون القداح الذي ينسب إليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين ، ولعل السر الذي لم يعرف كنهه إلى الآن هو في هؤلاء الأئمة المستورين ، فالحديث عنهم أقرب إلى الخرافات منه إلى الواقع فالإمام المستور عند الإسماعيلية لا يعرف إلا لأقرب الناس إليه ، وإسماعيل السرّ

ثم آتت دور الظهور وأولهم هيد الله للمهدي مؤسس الدولة الفاطمية . وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استطعنا أن نطمئن إلى أن الفاطميين نظروا إلى أئمتهم على أنهم من البشر ، يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موت و حياة ، فهم في ذلك يخالفون الغلاة من الشيعة الذين ألهوا عليا والأئمة من ذريته ، وقالوا : إنهم أحياء يرزقون . ويخالفون الشيعة الاثني عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكري وأنه سيظل حيا حتى يعود ليلا الدنيا عدلا كما ملتب جورا . وقال الفاطميون : إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء . ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابني علي بن أبي طالب ، فألاب ينص علي ابنه في حياته . وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الفاطميين ، وقد أولوا قول الله تعالى و جعلها كلمة باقية في عقبه ، بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب .

والإمام حجة الله على عباده وهاديهم إلى الطريق القويم . فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام . وجعلوا ولاية الإمام أحد أركان الدين ودعاؤه ، بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ولا يستقيم الدين إلا بها . قال المؤيد في الدين حجة الله الشيرازي في مجالسه : « قلوا أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسنته التي جاءها رسوله كلها ، ثم لم يقترن بعمله اعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآتي بها لم يقن عنه ما عمل قبلا ، ولم يتبع غير أهل النار شيلا . إذ ولاية الرسول كالمركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض ، فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، وإذا كانت هذه نعمة الرسول في حياته كانت نعمة من يوليه أمر دينه مثلها ، ومثل ذلك نعمة من يليه ومن يلي من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد ، وورثها ولد عن والد ، إذ الولاية هي الأصل الذي يدور عليه موضوع

== يقبهم بقبه ويسمى باسمهم بكنيتهم . ومن هنا التمس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يقطروا برأى فيه إلى الآن ، وكل حديث عن هؤلاء المتورين يحتاج إلى أدلة لإثباته . ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة ، ولذلك تمسنا إغفال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أنه نستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها .

(١) المجالس المؤيدية - ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبي الخاصة) .

الفرأضه^(١) وبهذا الرأي يقول الشيعة الإمامية جميعا ، وهو ما يتأيدون به عن جمهور أهل السنة ، وأيد الشيعة الإمامية ومنهم الإسماعيلية هذا الرأي بقصة تروى أن النبي بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند (غدير خم) في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، هناك أنزل عليه قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فإيبتك رسالته والله يهتكم من الناس) فذهب الشيعة إلى أن النبي الكريم صدق بأمر ربه ، وأمر بالصلاة حتى إذا انتهى منها أخذ يدعى بن أبي طالب فقال : « ألسم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » قالوا : بلى . قال : ألسم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث داروا اعتبر الشيعة قول الرسول عليه السلام بليتنا لأمر الله تعالى ، ونصا صريحا بوجوب اتباع علي وزولايته ، ومن بعده من ذريته النصوص طيهم ، وقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده الكبير من حديث طبران ، ابن طازب هذه القصة وأتبعها بقوله : فقيه (أبي لقي عليا) عمر بن الخطاب ، قال : منيتا لك يا بن أبي طالب أصبحت تمولى كل مؤمن ومؤمنة^(٢) .

فالشيعة الإمامية على اتفاق مع الإسماعيلية في وجوب ولاية الوصي علي ابن أبي طالب ، ويروون عن النبي أحاديث كثيرة في شأن علي مثل قوله : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لاني بعدي » و « أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي » و « النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض » و « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » و « أهل بيتي كسفينة نوح من دكبها نجا ومن تركها غرق » و « إلى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي »^(٣) واشترك الفاطميون في رواية هذه الأحاديث وغيرها .

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبي الخاصة) .

(٢) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ٢٥٢ .

٣٢٠ . والجزء الرابع ص ٢٨١ ، ٢٦٨ ، ٣٧٠ والجزء الخامس ص ٣٤٧ ، ٣٥٠ .

٣٥٨ ، ٣٦١ فن منهم للواضع نجد هنا الحديث عن النبي عليه السلام . ولى صفى الترمذي

(الكتاب السادس والأربعون الباب التاسع عشر) قول النبي لعل بن أبي طالب : (أنت ولى كل مؤمن بعدي) .

(٣) راجع تلك كله في كتاب بحار الأنوار ولى المجالس المؤيدية في مواضع مفرقة .

واتخذ الفاطميون دليلاً آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبقوا دور محمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لكل نبي وصياً بكل إليه أمر المؤمنين ، وأن الله تعالى هو الذي يوحى إلى نبيه بإعلان من اختاره الله وصياً لثبته ، وخليفة له ، فكان وصي آدم هابيل ووصي نوح ابنه سام ، ووصي إبراهيم ابنه إسماعيل ، وكان وصي موسى أخاه هرون ، ووصي عيسى بن مريم حواريه شمعون الصفا (سمعان بن يونا المعروف بالصفا) (١) ، فوجب أن يكون محمد وصي ، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء السابقين ، وأن الله تعالى اختار علي بن أبي طالب لمرتبة الوصاية ، ويخيل إلى أن للفاطميين أخذوا هذا الرأي بما جاء في إنجيل يوحنا في مواضع متعددة أن سمعان ابن يونا هو الذي سماه المسيح بطرس أو صفا ، وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه أي جماعة المؤمنين ، فصبح الشيعة هذه العقيدة بالصيغة الإسلامية ، اتخذوا لها أدلة من القرآن والأحاديث ، على أن الإسماعيلية الذين جعلوا علياً وصياً للنبي جعلوا علياً من ناحية أخرى يشارك النبي في كل صفاته وخصائصه وفضائله إلا في مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبي وحده ، فكل الآيات القرآنية التي جاءت في النبي كقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وإنما أنت منذر ولكل قوم هاد » ، إلى غير ذلك من الآيات هي في عهد وفي علي أيضاً ، بل جعلوها في كل الأئمة المنصوص عليهم من نسل علي ، ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا في تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يشير فيها إلى علي والأئمة من ذريته ، مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقوله : « هو أولى الأمر منكم » ، وقوله : « ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وغير ذلك . فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى علي ابن أبي طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من البشر . فحمد وعل هندم صنوان متشابهان في كل الصفات إلا في مرتبة النبوة التي أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستيذان) فقد اختص بها محمد عليه السلام ، على حين اختص علي بمرتبة الوصاية والإمامة التي أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستقرار) (٢) ، ولذلك

(١) انقراوات والقراوات لجعفر بن منصور البين (ص ١٢ ب) نسخة خطية بمكتبة الخزانة

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع في كتاب « ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة »

يروون أن النبي قال : لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد نتقل من الأصلح
الظاهر إلى الأرحام الزكية ، كلما ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى اتينا
إلى الجد الأفضل والآب الأكل عبدالمطلب فاقسم ذلك النور نصفين في عهد الله
وأبي طالب . قال الله تعالى : كن يا هذا محمدا ويا هذا كني عليا (١) ، ولهذا العقيدة
التي تجعل من علي شريكا وشيها للنبي في كل شيء قال الإسماعيلية بعصمة الأنبياء
والأوصياء والآئمة ، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء ولم يؤولوا
قصص الأنبياء هذا التأويل الذي نراه في كتبهم (٢) إلا لإثبات عصمة أئمتهم ،
ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه العصمة ، إنما هو رأي جميع فرق الشيعة ،
وكان موضوع عصمة الأنبياء من موضوعات الجدل بين علماء الكلام .

ولعل المشاركة الكبرى التي جعلوها بين محمد وعلي هي عقيدتهم في التأويل
الباطن ، وهو العلم الذي خصوا أنفسهم به ، وسموا من أجله بالباطنية ، قد
جعلوا محمدا هو صاحب تنزيل القرآن ، وجعلوا عليا صاحب تأويله ، أي أن
القرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين
وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها عليا وأبناءه من
بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الآئمة هم الذين يدلون الناس
على هذه الأسرار ، أخذ الإسماعيلية بعض آيات القرآن الكريم دليلا على عقيدتهم
في وجوب التأويل كقوله تعالى ، وكنك يحميتك ربك ويعلمك من تأويل
الاحاديث ، وقوله : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض وتعلمه من تأويل
الاحاديث ، وقوله : سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبورا ، إلى غير ذلك
من الآيات القرآنية التي ذهبوا في تفسيرها إلى أن الله تعالى : جعل لدينه تأويلا
خاصا يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلق الإسماعيلية عليهم
لقب أهل الظاهر أو العامة .

واستلوا قول الله تعالى وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات

(١) المجالس المؤيدة في مواضع متفرقة .

(٢) راجع كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية

بلندن وكتاب أسرار النطق وكتاب سرائر النطق لجفر بن منصور البين والمجالس المؤيدة .

وتلها نسخ خطية بمكتبة الخاصة .

من أم الكتاب وأخر مقشحات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيقبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، على أن الأنبياء والأوصياء والأئمة هم الراسخون في العلم وهم الذين يعلمون تأويله ، وذهب علماؤهم إلى أن قوله تعالى (والراسخون في العلم) نسق على الله ؛ وقوله (يقولون آمنا به) أخرجه مخرج الحال ؛ معنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به ، إذ لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه لكان مستحيلا منهم أن يقولوا آمنا به لأن الإيمان معناه التصديق والتصديق بالشيء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به ولا يجوز تصديق المرء بما لم يعلمه . ثم أنه ليس يخلو من أن يكون النبي علم بتأويل ما أتى به أو لم يعلم ، فإن كان علم به بطل الوقف بعد لفظ ، الله ، في الآية السابقة ، ووجب دخول النبي في شرط من علمه ؛ وهو أول الراسخين في العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم ، وإن كان النبي لم يعلم فإرسال الله تعالى إياه بشيء إذا سئل عنه لا يعطه خارج عن الحكمة والرسالة (١) . فالتبني كان يعلم تأويل القرآن ، ومن يقوم مقام النبي في كل عصر يعلم هذا التأويل أيضاً ، وضرربوا مثلاً بقصة موسى مع الرجل الصالح التي وردت في القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرف غيرها نبي فاطق من الأنبياء وهو موسى ، قصة موسى هذه دليل قديم على أن العامة من المسلمين أضعف وأقصر من النحوض بأعباء تأويل القرآن الذي اختص به الراسخون والأئمة . وفي ذلك يقول الموقد في الدين :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| وإن أجزاء ظاهر الكلام | في ذلك أسنانه للنصام |
| ففي اختلافات القرآن كثره | من كل قول مع كل زمرة |
| ياقوم سر الملكوت هذا | بجمل أصنامكم جفاذا |
| سره صاحب موسى الخضر | قال معي لن تمتطيع صبرا |
| وقال موسى سوف ألق صابرا | فلم يكن إذ ذاك إلا قهرا |
| تدبروا القصة ماذا يجما | من قصها إن لم تكونوا نوما |
| لعلكم أن تحبوا سمرا | إن أسام النفوس الغفرا |

(١) المجلس المؤبدية في ج ٢ ص ٥١ .

من كان ذا عقل وذا عينين يبلغ حقا بجمع البحرين^(١) ولهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضا من القرآن الكريم كقوله تعالى: «ستريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» وفي قوله: «وفي الأرض آيات للوقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون» فذهبوا إلى أن مثالة الدين تؤخذ من خلقه السموات والأرض وتركيب الأفلاك وجميع ما يتأمل مما خلقه الله تعالى، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حمله القرآن الكريم، فأيات القرآن إذن في حاجة إلى من يخرج كنوز هذه المعاني^(٢)، وبناء على هذه الطريقة التي اتخذوها لأنفسهم للتأويل وهذه القاعدة التي بها يستدلون بما في هذه الطبيعة والمخلوقات على الدين جعلوا المخلوقات قسمين: قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي، وجعلوا الظاهريين على الباطن، وسموا الباطن ممثولا والظاهر مثالا. ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم «نظرية المثل والمثول»^(٣)، وقد أخذت هذا الاسم مما كتبه دعاة الفاطميين، فالمؤيد في الدين يقول في مجالسه «خلق الله أمثالا ومثولات فحسب الإنسان مثل، وتقسه مثول، والدنيا مثل والآخرة مثول، وأن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل، وأن قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي مثول تلك الأمثال»^(٤) وقول صاحب المجالس المستنصرية: «مشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال جملا وتفصيلا، ولم يستح من صغر المثل إذا بين به مثولا، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلا»^(٥)، ويقول المؤيد في الدين:

أقصد حتى مثوله دون المثل ذا لبر النحل وهذا كالمسل^(٦)

١١١١ القصيدة الأولى) من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة.

(٢) المجالس ج ٢ ص ٥٢

(٣) راجع نظرية المثل والمثول وأثرها في شعر مصر الفاطمية - بحث فرى في مؤثر

ستنصريين الحادى والصيرين في باريس يوم ٢٩ يولية سنة ١٩٤٨

(٤) المجالس المؤيدية: المجلس الثامن من المائة الثانية

(٥) المجالس مستنصرية ص ٩٨ - ٩٩ (طبع دار الفكر العربي)

(٦) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة

وإذن فالقاعدة في التأويل عند الإسماعيلية هي تطبيق نظرية المثل والمشول .
تظاهر القرآن مثل وباطنه مشولات . والتظاهر هو هذه المعاني التي يعرفها العامة
وينطق بها علماء أهل السنة . والباطن هو هذه المعاني التي يستخلصها الوصي والائمة
من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين . وعلى الرغم من أن الإسماعيلية أتوا
بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والمشول فإن هذه النظرية
وإن كانت قد صبغت بالصبغة الإسلامية فإنها هي نظرية المثل الأفلاطونية
التي أدخلوها في عقيدتهم بعد أن غيروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم
الإسلامية . ويحيل إلى أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذي نراه عند
الإسماعيلية لم يعرف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التي ظهرت في
عصر المأمون العباسي وبعده . وبعد أن ترجمت الكتب الفلسفية اليونانية ،
فالمعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية وعلى الأخص فيلون وتلاميذه حاولوا
تأويل التوراة تأويلا باطنيا — إن صح هذا التعبير — وأن القديس أوغسطين هو
أول من حاول تأويل الإنجيل تأويلا باطنيا كذلك . وجاء الإسماعيلية وأخذوا
ذكرة التأويل مما نقل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة . ولكنهم صبغوا تأويلهم
بالصبغة الإسلامية كما دأبوا دائما في كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية .
ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخلوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة
الأجنبية ، فقد ظهرت في تأويلاتهم آثار هذه العلوم والفلسفة كما ظهر تأثيرهم بالعقائد
والآديان القديمة التي ضمرت العالم قبل الإسلام وبعده . ويحيل إلى كذلك أنهم لم
يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إمعانا منهم في زيادة شرف علي بن أبي طالب
والائمة ، وخصهم بميزات تبعدهم بعض البعد عن سائر البشر ، فكان الولاية هي المحور
الذي تدور عليه جميع العقائد الفاطمية . فتأويلاتهم وفلسفتهم في الإبداع والخلق
وكل عقيدة في النفس والعقل كلها تقهى إلى نتيجة واحدة هي الوصي والائمة ، ففي
التأويل الباطن أن وجه الله ، و يد الله ، و جنب الله ، وهم الائمة ، والشمس
محمد والقمر علي والائمة ، والأهله هم الائمة ، بل ذهب بعض فلاسفة
الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة (اللوجوس) فقالوا : إن الكلمة هي
كن ، من قوله تعالى : وإما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ،
وكلمة ، كن ، حرفا كاف ونون : ولكنها في التأويل الباطن مثلان للحدود

الروحانية المقررة إلى الله ، فالكاف رمز للعقل الأول أو (القلم) وهو أقرب
الحدود إلى الله وهو الذي ورد فيه الحديث النبوي الذي رواه البخاري :
« أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أقبل فأقبل ، فقال له : أدبر فأدبر ، فقال :
بعتني ورجلاني ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أئيب وبك أعاقب . الخ ،
والعقل الأول الذي ذكر في ظاهر القرآن بالقلم ولأنه أقرب الحدود إلى الله
تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سمي بالسابق . أما التون فهي رمز
لنفس الكلية ، وهي التي رمز إليها في القرآن باللوح وسميت بالتالي ، وبناء على
نظرية المثل والمثول يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهري يماثل العالم
الروحاني الباطن . فالإمام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالي ، وكل خصائص
العقل الأول (السابق) جعلت للإمام ، فثلاثي الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن
كل الصفات والأسماء ، وقالوا : إن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الأول (السابق)
وأن الله سبحانه يتعالى على أن يتصف بصفة وأنه ليس أيسا وليس لبسا ، إنما كل
ما جاء في القرآن الكريم من صفات الله فهي صفات العقل الأول (السابق) وإذن
فهذه الصفات يوصف بها أيضا مثل العقل الأول في العالم الجسماني وهو الإمام ،
وعلى ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين
الله الفاطمي .

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار
فقد فهم القنداء من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هاني أنه يؤله إمامه ،
وحكوا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية بدليل هذا البيت وأمثاله ، ولو كان
القنداء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأنيها ولا غلوا
في العقيدة ، وستحدث عن ذلك كله في باب الشعر .

وإذن فالإمام الباطن عندهم لسبب واحد هو إغدلق صفات التجويد والتفخيم
لأنهم . على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضرورته ، قالوا أيضا بالظاهر معه
فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، فإن الظاهر والباطن
كالروح والجسد إذا اجتمعا أقدمت الفوائد وعرفت المقاصد ، (١) ومن عبد الله

تعالى بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر فهو بمن يعبد على حرف^(١) والظاهر
عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان
وحج البيت والجهاد في سبيل الله، فيجب على المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية
الظاهرة كما ورد في كتاب الله وما سنه رسول الله، وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن
بعلم الباطن الذي هو العبادة العملية التي خص بها الوصي والآئمة، فالفاطميون إذ
لم يعملوا على طرح الآديان وإبطال العبادة كما وهم الكتاب والمؤرخون الذين
تحدثوا عن الفاطميين، بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد في الدين .

فإتسأ لأهل علم وعمل لله دنا بهما عز وجل^(٢)

وشاركوا غيرهم من المسلمين في هذه العبادة الظاهرة، ودعوا إليها دعواتهم إلى
عبادتهم الباطنة . وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام
لقاضي النعمان بن محمد وكتاب المجالس المستنصرية، للداعي ثقة الإمام علم الإسلام
وجدنا أن الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنة وفقه مالك على وجه
خاص، مع أن الإسماعيلية لا يأخذون في أحكامهم الشرعية بالرأى ولا بالقياس
إنما يأخذون بالأحكام التي يشرعها الإمام، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل
السنة إلا في بعض مسائل فرعية، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم، فقد كانت هذه
المسألة من أهم المسائل التي أثارها سنخ المسلمين عن الفاطميين، ذلك أن الفاطميين
لا يبدأون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة، فقد
وجد الفاطميون أن الهلال إذا غم في بلد من البلاد بسبب سحب أو غيره فقد يظهر في
بلد آخر قريب، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر، وكثيراً
ما يحدث اضطراب في بدء الصيام في البلد الواحد، فيقع ما يسمى يوم الشك، وهو
ما نشاهد كل عام إلى اليوم . ومن ثم لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا
قريباً قريباً بحسبون بمقتضاء سير القمر ويقدرون منازلها حتى يعرفوا أن هلال
رمضان قد أهل حقا . فعملوا الشهور العربية شهراً تاماً والتالي له ناقصاً دائماً
وبذلك أصبح شعبان ناقصاً دائماً ورمضان تاماً دائماً، ومن هذا التعويم الدقيق

(١) المجالس المستنصرية أيضاً ص ٢٩ .

(٢) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة .

عرفوا متى يبدأ رمضان ومتى ينتهي دون الرجوع إلى رؤية الهلال رؤيه نظره بل جعلوا قول النبي الكريم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار ، وهذا التقويم الفاطمي جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة يوم أو يومين ويبدؤون عيد الفطر قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ، ومن هنا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهم حقيقة دعوتهم ورموزهم بالرجوع عن الجماعة وعن الإسلام .

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة بل بين الشيعة عامة وبين السنيين مسألة ميراث البنت ، فالشيعة يورثون البنت كل ما تركه الأب إذا لم يترك ولدا ذكرا . ومن الخلافات أيضا مسألة مسح الرجلين في الوضوء ، فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح ، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين ، ومن أم الخلافات التي بين الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثاني عشر حي يرزق منذ اختفى في السرداب ، وأنه سيظهر ليحيا الدنيا عدلا كما ملئت جورا ، على حين يذهب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشر يجري عليه بجرى على البشر من حياة وموت ، فمن السخف أن يقال : إن إماما يعيش طول هذه المدة ، ومن الخلاف أيضا قول الاثني عشرية بتحليل زواج المتعة على حين يحرمه الإسماعيلية .

ولم يذهب الفاطميون بالقول بالرأي كالمعتزلة ولا بالقياس كأهل السنة بل رفضوا الأخذ بالرأي والقياس ، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المحصوم وإلى علوم أهل البيت التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر ، فلم الباطن الذي خص به الأئمة دعاهم إلى القول بأن إيجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إيجازه من ناحية اللفظ ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه ، ولكن إيجازه يظهر بما يحتويه من معانٍ وفي ذلك يقول المؤيد :

إن كان إيجاز القرآن لفظا ولم ينل معناها منهظا
صادق معقود معلولا من أجل أن أذكرتم تأويلها
وفكرة عصمة الإمام دعوتهم كما دعت الشيعة عامة إلى القول بعصمة الأنبياء .
أما ما ورد في القرآن الكريم عن معاصي الأنبياء فقد ذهبوا في تأويلها

إلى أوجه لم يعرفها المفسرون ، ولا أدرى من أين أتوا بها راع ما كتبناه عن
تأويل الأنبياء في كتاب « ديوان المؤيد في الدين » .
وهكذا ترى الفاطميين لا يكادون يختلفون في عبادتهم العملية الظاهرة عن
غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمة الله تعالى ، ويتجنبون المآثم والمعاصي ،
ويحفلون ما أحله الله تعالى للمسلمين ، ولكن التأويل الباطني للإسماعيلية هو الذي
جعلهم يوسعون الهوة بينهم وبين غيرهم من المسلمين ، فقد أرادوا بتأويلهم
الباطني إسباغ الفضائل على الأئمة ليجعلوا يناسبون العقل الأول ، وصفات الله
وأسماء الحسنی المذكورة في القرآن الكريم جعلوها للعقل الأول ، وتبعاً لذلك
جعلوها للأئمة ، أما الله سبحانه وتعالى فقد نزّهه عن كل صفة ووجوده
التوحيد كله .

فوحده الله ولا شبه قد اقتضت هنا بذاك الشبه (١)
فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم
إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها
ويناسبها ، فتصبح نفس الإمام عقلاً من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ولا
تتلاشى ، لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم .
ولا يقولون بالتلاشي بل ناقض أصحاب هذه العقائد وسفهاوا آراءهم ، كما كفروا
الغلاة الذين ألخوا علياً والأئمة من أبنائه ، قال المؤيد في الدين داعي الدعوة :
فكيف شرع الأنبياء ندفع وما لنا إلا النبي مرجع
بنوره في الدرجات نرتقى وبالكرام الكاتبين نلتقى
يارب فالعن جاحدي الشرائع وارمهم بأجمع الفجائع
والعن إلهي من يرى الإباحة بلعنة فاحشة محتاجة
والعن إلهي غالباً وقاليا ولا تدر في الأرض منهم باقياً
يارب إنا منهم براء هم واليهود عندنا سواء
فأخزم وأخز من رمانا برية ولقه الهوانا (١)
ويقول في الرد على القائلين بالتلاشي والتناسخ .

(١) من القصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعوة

أيا المدعى الثلاثي حقا ذا الذي تدعى عليك وكيل
أرى هذه الصانع طرأ عجا ، ما لصانع محصول
حركات الأجرام قل لي لماذا ؟ ولماذا طلوعها والأقول ؟
ألمها في مجالها الفعل أم لا ؟ فغير إذا يجوز تحول
إن تهل ذلك فعلها باختيار أنكرت منك ما ادعت العقول
إن فيما دنا من الماء والنار على ما علا لنا التميل
ولئن قلت : ذلك غير اختيار قلت : كل مدبر محمول
فإذا كان هكذا ثبت الحامل الفاعل اللطيف الجليل
فإذا كان فاعل متعن الفعل وما دونه له مفعول
فالتلاشي لفعله مستحيل جعل عما به عليه تميل
والذي قال إنه النسخ والفسخ وماذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطا ت ومن حيث بدؤها مستول
فلئن كان ثبت الأصل منها فكذا نحوه يكون القبول
ولئن كان نافيا قيل مهلا فلهذا المشاهدات أصول
قشاب يكون بالأكل والشرب فذاك العذاب والتنكيل (١)

ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإباحة المطلقة والقول بالتناسخ والحلول ، إلى غير ذلك من الاتهامات التي أظهر البحث الحديث أن الفاطميين براء منها ، على أنى لا أوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة الفاطمية على أنها مباحنة للإسلام وتوحيد الله بقدر ما أوم بعض الغلاة من المعتاة الذين غيروا المذهب الفاطمي وخرجوا به عن منهجه الصحيح ، حتى اضطرا الآءة إلى إعلان عصيان هؤلاء المعتاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالتهم فذكر من هؤلاء المعتاة على بن الفضل الذي كان من أسبق المعتاة في أواخر دور السرا الأول في إظهار الدعوة في اليمن ولكنه ضل طريق رشده ، قبرا منه الإمام وطلب من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه

(١) القصيدة الخامسة من ديوان المؤيد داعي المعتاة .

ويعبر أتباعه^(١) ويذكر أحد بن الكيال الذي كان داعياً للإسماعيلية فغير المنصب ودعا لنفسه^(٢) والقرامطة الذين استباحوا الحرمات وفادوا بالإباحة فاضطر عبيد الله المهدي قبل ظهوره بالمغرب إلى عزلم من الدعوة لخارجه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا متاعهم ، فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة فصر إلى أن رحل إلى شمال أفريقيا حيث أقام دولته^(٣) واستمر الصدام بين القرامطة والفاطميين ردحا طويلا من الزمان ، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذكر في كتب التاريخ ؛ وكذلك قول عن فرقة الدرزية التي ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله ، فأشال هؤلاء المعتاة كانوا أسلحة ماضية ضد المنصب ، حتى قال القاضي النعمان : ذكر المعز لدين الله رجلا أصابه بلاء عظيم في نفسه ووصف ما صارت حاله إليه ، وكان هذا الرجل قد ألحد في أولياء الله وغلا في دينه ، وقد كان قلدا شديداً منه وناله بسبب ذلك من سنخ الأئمة ما نعوذ بالله منه . فقال المعز لدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه : ما ألحد أحد قينا ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاء يكون نكالا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ثم ذكر من تجاوز هذا الرجل وتعديه وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين ما يطول ذكره . قال : وقرر عند المنصور بالله أنه يقول : عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال ونامن أولياتنا في الدين من تزول السموات والأرض ولا يحول ولا يزول . فأعظم ذلك المنصور بالله من قوله وأحضر جماعة من الأولياء فذكر ذلك لهم عنه ولعنه . ثم قال المعز لدين الله : أعظم آيات موسى قلق البحر ، فهذا الشقي ادعى فوق ذلك لنفسه ، وهو ينسب إلينا ، ويدعى علينا ومذهبنا وقولنا . نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله ، وما ينسبه إلى نفسه ، أن ينسب إلينا وإلى من يتصل بنا . ثم قال : سمعت القائم بأمر الله يقول : إنما أهدى للنساء إلى النار الذين اتسبوا إلينا بما ينحطونا إياه أنا نعلم الضيب وما تخفى

(١) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبة الخاصة) وكتاب كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك البجلي ص ٢١ وما بعدها .
(٢) راجع الشهرستاني .
(٣) راجع افتتاح الدعوة واستنار الإمام وسيرة جعفر الحجاب .

الصدور ، وأشياء ذلك مما افتروه علينا و نسبوه إلينا أن يجعلوه عنة لتناقضهم . .
 الخ (١). وقال حميد الدين أحمد بن عبدة الكرماني : إن أعظم الفرق ضللا فرقة
 الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها ، فانسخت عن جملة أهل الدين والديانة ، (٢)
 ويقول المؤيد في الدين « استعينوا بالله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة ،
 وهم من طلائع الكفر والإلحاد شرطليعة ، يستوطنون مركب الإباحة ، ويميلون
 ميل الراحة ، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين ، فإذا عرف
 سقطت الصلاة ، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة ، وأن الصوم
 هو السكوت عن إفشاء سرهم إلى غير أهله ، فإذا هم مكثوا لم تبق بهم حاجة
 إلى الصوم واحتمال كده ، وأن النهي عن شرب الخمر هو عن موالاة بعض
 الأضداد ، فإذا هم كفوا كل شربها حلالا سهل القياد ، ولا يزالون كذلك حتى
 يخلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا من مهاوى الردى في تحليل المحرمات
 شر و رد ، وهؤلاء أضرب بالدين وبالؤمنين من شهر سيفه وشرع رعبه إلى أئمتهم
 بالبغضاء ، ولم يزل من مضي من أمير المؤمنين علي والأئمة من ذريته إلى إمام
 الزمان براء إلى الله تعالى من هذه سبيله سرا وجها ينشرون في صحف الخزي على
 من دار دينهم . الخ ، (٣) هؤلاء الدعاة الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة
 الإسماعيلية كانوا سبياً في أن ينهب المؤرخون القدماء . ومن تبهم من المحدثين إلى
 فساد عقيدة الفاطميين ، ومن تعمق في دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت في كتب
 دعواتهم وعلماهم — وهي الكتب التي لا يقربها إلا من بلغ درجة رفيعة في الدعوة —
 يجد الفاطميين براء من كثير مما نسب إليهم ، ولولا هذا التأويل الباطني الذي
 جعلوه قوام عقيدتهم لتساووا مع غيرهم من المسلمين في كل شيء . ولما وجد خصومهم
 مطمئناً في عقيدتهم .

والذي ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات
 القديمة التي عرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج

(١) المجالس والسيرات ورقة ٨٦ م نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

(٢) كتاب تنبيه الهادي والمستهدى نسخة خطية بمكتبي .

(٣) المجالس المؤيدية .

المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة للآراء الإسلامية ويصغروها بالصيغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ويردها إلى أصولها القديمة ، فثلا قال قدماء المصريين بأن روح المتوك تنتقل إلى العالم العلوي وتصبح من الآلهة ، فقال الفاطميون : إن روح الإمام تصبح ملكاً من الملائكة وعقلاً من العقول الروحانية المدبرة لعالم الكون والفساد ، وذهب بعض فلاسفة اليونان إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى شيئاً إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشعل ، فقال الفاطميون : إن العقل البشري في تبصره لا يستطيع الوصول إلى معرفة شيء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الأئمة ، ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضاً : إن النفس كانت صفحة بيضاء فإذا حلت في جسم قتش عليها ما اكتسبه الإنسان إن خيراً غير وإن شراً فشر ، فقال الفاطميون بهذه المقالة . وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة ، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلي وخلق العالم بوساطة الكلمة ، مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جعلت الكلمة هي العقل الكلي على حين قال الإسماعيلية بأن الكلمة هي السابق والتالي أي القلم واللوح وأنها هي كلمة كن من قوله تعالى وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة الفروضات ومراتبها بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحانية والجسمانية ، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل ، وعن الزرادشتية القديمة مذهب التخميس ، وعن الفيثاغوريين القدماء منهم في التوحيد وجعل الأعداد أصولاً لعقائدهم ، بل كان نظام دعوتهم هو النظم الفيثاغورية عينها ، وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيراً من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى على الرغم من صبغ هذه الآراء والعقائد بالصيغة الإسلامية ، حتى ليتوهم الباحث في كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أي علم أو رأي دخيل .

وخلاصة القول في العقائد الفاطمية أن الولاية هي محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيد أكثر من أي شيء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب ،

ويقومون بفرائض الدين، ويحرمون ما حرمة الله ولا يقولون بالتمطيل أو الإباحة ، ولم يعتقوا التناسخ أو الحلول أو التلاشي ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبي دوره ، ويأتي النبي الذي بعده ينسخ شرح النبي قبله ، فلما جاء دور محمد وهو خاتم الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث في أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله في دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لوصي محمد والائمة بعده وأولوا ذلك كله تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، ونراه واضحاً في أشعار شعرائهم ورسائل كتابهم على النحو الذي نراه في باب الشعر من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتب الفاطميون لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً لا أكاد أجده مثيلاً في تاريخ النول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية قدرها ومكاتها ، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين تقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ، ولكن هؤلاء التقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين ، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لأرائهم في الأقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة لها حكومتها . أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، بل لا تزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين من ورث دعوتهم . وهم المعروفون بالهيرة والمعروفون بالإسماعيلية الأغاخانية .

وكما أنهم في تأويلهم الديني يطبقون نظرية المثال والمثول التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، كذلك نراهم قد طبقوا هذه النظرية أيضاً على نظم الدعوة أي أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة أي من نظام دورة الفلك وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات ، فالسنة اثنا عشر شهراً أو الشهر ثلاثون يوماً واليوم أربع وعشرون ساعة منها اثنا عشرة بالنهار واثنا عشرة بالليل ، فكذلك قسمت مراتب الدعوة . فالسنة التي تجمع الشهور والأيام مثل على النبي في عصره أو الإمام النبي يجمع جميع مراتب الدعوة هو الاثنا عشر شهراً مثل على رؤساء الدعوة في الجزائر^(١) ويسمون حجج الجزائر ، ولكل من هؤلاء الحجج ثلاثون داعياً أو

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثني عشر جزءاً ، سمو كل جزء بجزيرة أي إقليم . وحاولت أن أعرف هذه الجزائر دون قائمة ، وينسب الأستاذ إيفانوف (هامش ١ ص ٢٠ من كتاب Rise of Fatimite) إلى أن هذه الجزائر هي : العرب . الترك : البربر . الزنج . الحبشة . خزر . الصين . فارس . الروم . الهند . الهند . العقابلية . ولكن وجدت أن حميد الدين =

قياً ، ولكل داع من هؤلاء الدعوة أربعة وعشرون داعياً مأذوناً أو مكاسراً .
ولكل مرتبة من هذه المراتب عمل خاص به ، فالإمام يختار من شيعته أقوام
لساناً وأصدقهم جناناً وألحنهم بالحجة وأغزرم علماً ، فيجعله في مرتبة داعي الدعوة
أو باب الأبواب ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة ، لأنها تلي مرتبة الإمام
مباشرة من الناحية المذهبية فهو المالك لجماعة الحجج والدعاة ، وإليه الإشراف
على الدعوة في جميع الأقطار . وقد وصف أحد علماء المنصب هذه المرتبة بقوله
« وحد الباب هو من الحدود الصفوة واللباب ، فهو أفضل الحدود ، وهو حد
العصمة ، ولا ينتهي إلى ذلك إلى الأحاد والأفراد (١) » ، وقال آخر : « هو باب
صاحب الزمان الذي يؤتى منه إليه ، وحجته على الخلق ، وحامل علمه ، وصاحب
دعوته » (٢) فنسبة الحجية إلى الإمام كنسبة الوصي إلى الناطق ، والحجية هو صاحب
التأويل في عصر الإمام فهو الذي يعقد مجالس الحكمة ، ويتلو على المستجيبين علوم
أهل البيت أي علم الباطن .

ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التي قسموا إليها العالم حجة ، هو كبير دعاة
الإقليم والمشرف على الدعوة فيه ، وهو الذي ينوب عن باب الأبواب في عقد
مجالس الحكمة وتلاوة المجالس ، وهذا الحجية على صلة وثيقة باب الأبواب الذي
اختاره الإمام ، ولكي ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا في نفوس أتباعه أقل
ما كتبه أحدهم وهو المزيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته وهو يحدث الوزير
بشيراز : « معلوم ما بيني وبين الديلم من الأحوال الممهدة ، والأسباب المؤكدة ،
وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه ييا كرنى شاكيا إلى ، وموردا جملة أمره
وتفصيله على » (٣) فكانة حجة الجزيرة في جزيرته لا تقل عن مكانة الوالي أو
القاضي ؛ ولكل حجة جزيرة ثلاثون داعياً قياً يقومون بهداية الناس وبث

== الكرمانى كان يلقب بحجة المراقين . ولم أجد المراقين بين الجزائر التي ذكرها الأستاذ
إيفانوف . وكلمة جزيرة مأخوذة من الأصل (جزر) بمعنى قسم .
(١) رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة في نصف رجب (مخطوط رقم ٣٥٧٤٠ بمدرسة
الغنائم الشرقية بلنذ).

(٢) هاشم جامع الحقائق ج ٢ ص ١٥٣ (مخطوط بمكتبة الخامة)

(٣) النيرة المؤيدية من مطبوعات دار الكتاب المصري .

الدعوة في نفوس المستجيبين ، وهم النبي يفتاحون الذين دخلوا في الدعوة
بالعلم بعد أن يأخذوا عليهم العهد والميثاق ، وهم الذين يجمعون النجوى
منهم ويكون أمرهم لحجة الجزيرة ، ولكل قيب من هؤلاء النقباء أربعة
وعشرون داعياً مآذوناً مكاسراً ، وهو الداعي الذي يشكك المسلمين في
عقائدهم المنهية ويوقع الوهم في نفوس المتدينين أنهم على ضلال ، ولا يزال
بهم حتى يطلبوا إليه أن يذهبهم على الصواب المبين ، ولكنه يجاورهم
ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال أحاطهم على الداعي أو
النقيب الذي يبدأ في مفاصلهم بأسرار الدين شيئاً فشيئاً بعد أن يأخذ عليهم
العهود والمواثيق ، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب في زمرة الدعوة ، ومن
ذلك يتبين أن الداعي المآذون هو الذي يكاسر الناس بأن يطرهم بأسئة
لا يستطيعون الإجابة عنها ، ولذلك يشترط في من يتولى هذه المرتبة أن يكون
على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها ، وموضع الضعف في كل منذهب
من المذاهب ، وأن يكون متمكناً من أصول منذهب ، وأن يكون لسنا مجادلاً ،
وقد حدد الفاطميون الصفات التي يجب أن تتوافر في الداعي ، فنلخصها في سعة
العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة ، وأن يكون حسن
السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه ، وهذه المرتبة هي أقل مراتب الدعوة
فما بالك بالشروط التي يجب أن تتوافر في مراتب الحدود التي هي أعلى إشفاقاً
من مرتبة المكاسر

ويحدثنا الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى في كتابه راحة العقل عن الحدود
الجسمانية التي عليهم أمر الدعوة ورتبهم بالترتيب الآتي :

- ١ - الناطق وله رتبة التنزيل
- ٢ - الأساس وله رتبة التأويل
- ٣ - الإمام وله رتبة الأمر
- ٤ - الباب وله رتبة فصل الخطاب
- ٥ - الحجة وله رتبة الحكم فيما كان حقاً أو باطلاً
- ٦ - داعي البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد

- ٧ - الداعي المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية
 - ٨ - الداعي المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة
 - ٩ - المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق
 - ١٠ - المأذون المحدود الذي هو المكاسر وله رتبة جنب الأقس
- المستجيبة (١).

هكذا ذهب الكرماني في ترتيب الحدود الجسائية ولكننا نقابل عن الطريقة التي رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والأساس ولا سيما وقد ذكر الفاطميون في كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته، ثم نقابل مرة أخرى عن مرتبة الإمام في عهد الناطق إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب وأن الإمامة كانت له، فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق؟

وضع هذا النظام للدعاة بحيث لا يخلو بلد من دعواتهم . وفي ذلك قال المعز لدين الله الفاطمي ، إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ، ولا يظنون أننا لا نعني إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لكننا قد ضيعنا من بعد عنا ، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والمجربة والسعي إلينا من قرب ومن بعد ، ولكننا لراقة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا ، (٢) .

وعلى الرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي وكان الأئمة ودعاتهم يتخفون السرية على أنفسهم خوفاً من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحدثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور السر الأول ، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين ابن حوشب بن زاذان الملقب بمنصور اليمن وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور السر - الحسين بن أحمد بن عبد الله - للدعوة باليمن ، وهو الذي أوفد تلميذه أبا عبد الله الشيعي داعية إلى المغرب (٣) ومنهم الداعي فيروز وكان داعي

(١) المصنف الخامس من السور الرابع من كتاب راحة القل (مطبوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند) .

(٢) المجالس والمسائر لقاضي النعمان ورقة ١٠٥ B مخطوط .

(٣) افتتاح الدعوة لقاضي النعمان نسخة خطية .

المناعة في زمن المهدي قبل ظهوره بالمغرب ، وكان من أجل الناس عند الإمام
ومن أعظمهم منزلة والمناعة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الأبواب
إلى الأئمة (١) ، ومنهم أبو جعفر الجزري وكان له أيضاً محل جليل عند المهدي
لأنه كان من كبار المناعة . ووكاله المهدي بالحريم عندما فر من سلية (٢) ، وتوفي
هذا الداعي بقيادة بعد أن قبحها المهدي . وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي
إلى المغرب رجلاً يعرف بأبي علي الداعي ، وكان رأس المناعة بمصر وأبو علي
هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اثنين في كتابه ، الفترات والتقرانات
ملقياً بالشيخ الأجل المفيد وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته (٣) وأنجب
ابنه محمداً أبا الحسين بن أبي علي الداعي الذي بلغ مع الأئمة المهدي بالله والقائم
بأمر الله والمنصور بالله والمغز لدين الله المحل الجليل العظيم وكان داعي
المناعة (٤) ، وجاء في كتاب استتار الإمام أن عدداً من المناعة اجتمعوا للبحث
عن الإمام المستور ، وهم أبو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن بن الترمذي وجياد
الشمسي وأحمد بن الموصل وأبو محمد الكوفي (٥) وهؤلاء جميعاً لانعرف عنهم
شيئاً . أما في دور الظهور - الذي يبدأ بظهور المهدي بالمغرب إلى اقراض
الدولة الفاطمية - فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من المناعة كما وصلت إلينا
بعض كتبهم (٦) .

قلنا : إن من أهم أعمال داعي المناعة ، عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة
علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين ، فاتفقت مراكز لإلقاء هذه المجالس
التأويلية ، ولعل أهم هذه المراكز في مصر هي :

(١) المساجد (٢) القصر (٣) دار العلم .

١ - المساجد : كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا

(١) سيرة جعفر الخليلي نشرت بمجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني من المجلد الرابع ، عدد
ديسمبر سنة ١٩٣٦ . (٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٥) استتار الإمام ، نشر بمجلة كلية الآداب بالجزء الثاني من المجلد الرابع عدد ديسمبر
سنة ١٩٣٦ ص ٩٣ .

(٦) راجع مقدمة كتاب المجالس المنقضية .

الحديث ، « قد كان الناس يتحلقون في المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقونه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذي نراه إلى الآن في بعض المساجد في مصر ، فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانا لإقامة الشعائر الدينية لحسب بل كانت دور علم أيضا . وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا في اتخاذ المساجد مجالا لنشر دعوتهم الدينية وبت عقائدهم المنهية ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء المساجد وجعلها متناسبا مع عظم ملكهم أولا وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيا ، لذلك نرى القائد جوهر الصقلي عندما وضع أساس مدينة القاهرة لم ينس أن يبني مسجده العتيق الجامع الأزهر أنشأه بأمر مولاه الإمام المعز لدين الله ، وشرع في بنائه في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (١) وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، ثم جدد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله الذي وقف عليه رباعا بمصر ، ثم جدد المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي أنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربي ، وهكذا كان هذا المسجد في العصر الفاطمي محل رعاية الأئمة وعنايتهم ، فلم يقصروا في تجديده وزيادة فيه ، حتى قيل : إنه كان يصدر في عرابه منطقة فضة قلم صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى قناديل الفضة وتورين من الفضة ، ووقفوا لمؤذنيه وخدمه ووسائل نظافته وإتارته وفرشه ما هو المذكور في كتب التاريخ ، والذي يهمنا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء لتحليق في هذا المسجد السيدات اتخذوا منه جامعة عليية ، فقد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ ، ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكانا لها بين أماكن أخرى ، ففيه عقد أول اجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير . وفي ذلك يروي المقرئ عن المسيحي أنه في يوم الغدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٥٣٦٢ اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء الفقهاء والمفسدون فكان جمعا عظيما أقاموا إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة ، وكان هذا أول ما عمل بمصر (٢) ، وبالجامع الأزهر كان داعي اللطاة يعقد مجلسا للنساء يلقى عليهن شيئا من علوم أهل البيت (٣) وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٤٩ (طبع مطبعة النيل)

(٢) المقرئ الخطط ج ٢ ص ٢٢٢ . (٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

وابتداً في قراءة كتاب جده ، اختلاف أصول المذاهب،^(١) ويذهب المقرئ إلى أن أول ما عرف من إقامة قدس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله زار، وعمل ذلك بالجامع الأزهر^(٢)، ويقول القلقشندي: إن الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق، وبنى لهم داراً بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه، وأبو يعقوب قاضي الخندق رئيس الحلقة والملقى عليهم إلى وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين قراء،^(٣) وجاء في خاتمة النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات . تمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرته من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين، وهي الرسالة التي كتبها علي بن حسين بن أحمد الأصبهاني المؤذن بالجامع الأزهر عن الداعي أحمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها قدس الله روحه، كتبت من نسخته وقرئت عليه وعلى جمهور المؤمنين^(٤) ويحدثنا الكرمانى في مقدمة هذه الرسالة أنه وفد إلى مصر - ويخيل إلى أنه جاء مصر إبان ثورة الدرزي - فاضطر إلى تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس فقلبا عنه مؤذن الجامع الأزهر . فهذا كله يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفاطميين اتخذوا من المسجد الجامع الأزهر مركزاً من مراكز دعوتهم ومهداً تلقى فيه علوم أهل البيت .

وهنا تفت لتسأل، هل كان هذا المسجد مهداً لتعليم الدعوة الفاطمية فحسب فلا نجد أراً لحققات الشافعية والمالكية والحنفية؟ يخيل إلى أن الفاطميين كانوا يتسامحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يلقي دروسه وتعاليمه في الجامع الأزهر، فقد قيل إنه في سنة ٥٣٨٢ رتب رجل جعفرى الجلوس في الجامع للفتوى على مذهب أهل البيت فشنب عليه الفقهاء من أهل الجامع، فبلغ القاضي ذلك فقبض على بعضهم^(٥) فمن هذا النص نستطيع أن نقين أنه كان بالجامع

(١) رقع الإصر ص ٧٣ - (٢) خطط القرئى ص ٤٠ من ١٩٢، ص ٢٠٠ من ٢٢٢ .

(٣) صح الأعتى ص ٣٠٠ من ٣٦٦ .

(٤) رسالة مباسم البشارات : نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

(٥) السكتى ص ٥٦٤ .

فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم، وخصيتهم، فلما جاء هذا النقيض لفتيا على المذهب الفاطمي شغبوا عليه فاضطر القاضي إلى أن يقبض على بعضهم لالشيء. سوى أنهم لم يتساحوا مع هذا الفقيه مثل ما سمعت الدولة معهم. ويروى أيضا أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب قهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ثم بدا له قتلها بعد ذلك (١) أضف إلى ذلك أن مصر شاهدت في العصر الفاطمي عددا من فقهاء الشافعية والمالكية، كذلك وفد على مصر عبدالسلام بن محمد ابن بندار أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة وأقام بها أربعين سنة (٢) يلقي تعاليمه التي تخالف تعاليم الفاطميين، وتستحدث عن ذلك كله في الفصل الخاص بفقهاء أهل السنة، وإذن نستطيع أن نقول: إن الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب الأخرى بإلقاء تعاليمهم بجانب ما كان يلقي من تعاليم الفاطمية. وقد تكون هذه سياسة وضعت لأن تقام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين حتى يستطيع جمهرة المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية وأن يقتنوا بحجج الدعاة وأدلتهم وتبرهم فصاحتهم فدخلوا في الدعوة.

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح وجامع راشد وجامع المقس وجامع القراق وجامع الأفر وكثير من المساجد التي لا يزال بعضها ماثلا أمام أعيننا الآن، وقد نقل الفاطميون إليها المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمي فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقي الدعوة الفاطمية.

٢ - القصر: يحدثنا القاضي النعمان بن محمد بأنه ولما فتح المعز لدين الله (ص)

للؤمنين باب رحمة وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كتابا من علم الباطن وأمرني أن أقرأه عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقائه، فكثر ازدحام الناس وغص بهم المكان، وخرج احتفالهم عن حد السماع وعلتوا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه (٣).

وفي موضع آخر قال القاضي النعمان: وسمعت على أقد عليه (أي سمع المعز) يقول

(١) النجوم الزاهرة - ٤ ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق - ٥ ص ١٥٦.

(٣) المجلس والمسابقات ورقة ٦٨ ب.

لبعض الأولياء : ما تظنون اليوم في شيء تتفخرون به ، ما تقرأون شيئاً . ما تسمعون شيئاً ؟ فسكتوا . وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضاً في الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذي بطله المزلدين الله (صلح) وجعله في مجلس من مجالس قصره ، وأباح لهم حتى أجروا استماعه وقراءته وانتساخه والتعلم منه والتفقه فيه ، وقال بعض من حرض على ذلك : ويحكم أما تخافون إن قصرتم في هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم أن يختبركم فيه ، وقد أباح لكم دهرأ طويلاً فيختبركم فيه أو في بعض أبوابه فلا يجد كخضم شيئاً منه ولا انتفتم به ، فيقال لكم : إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذي تعبدكم الله بالقيام به ، فكيف ينبغي لنا أن نعطيكم من باطنه ؟ (١) .

ولعل هذه القاعة التي أشار إليها الثعمان ، والتي ألقى فيها هذا العلم الباطن ، هي المكان نفسه الذي خصمه الفاطميون للدعوة وعرف باسم المحول . . فكان المحول في العصر الفاطمي أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث ، وكان يوم المحول الخاصة وشيوخ النحلة وختم القصر والطارثون على مصر وعامة الناس (٢) ، وهكذا جعل الفاطميون جزءاً من قصرهم للدعوة لمذهبهم ، ومكاناً يلقى فيه العلماء والنداء علوم أهل البيت ، وهي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة التأويلية . ولم يكتب الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول في قصرهم بل تراهم يهتمون اهتماماً خاصاً بكتابة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين ، فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ويقول المقرئ قلا عن ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر : « ومن جملة ما باعوه خزائن الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا . ويقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك . ويقال : إنها كانت تشمل على ألف وستائة ألف كتاب (٣) . ويقول المقرئ : وما يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل

(١) المجالس والمساربات ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ .

فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد^(١) . ويروى عن المسيحي أن عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر لا يتوصل إليها أحد وبعضها في خزائن القصر البرانية . وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل فن من فنون العلوم الإسلامية ، فن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة وكتب حديث وتاريخ ونجامة ، وروحانيات وكيمياء غير المصاحف الكثيرة ، ويقال : إن العزيز بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل ابن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وحمل إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز خازنه فأخرج له من الخزائنة ما ينيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط بن جرير . إلخ^(٢) وهكذا كانت خزانة كتب القصر . ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللوحة القصيرة مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن وحرصهم على أن تجمع خزائنتهم الطرائف والنفائس في كل علم ، وذلك تشجيعاً منهم للعلم والعلماء . ولا غرو في ذلك ، فإن مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل وإلى الاستزادة من جميع العلوم والآداب . حتى يتسنى لعاتهم أن يكاسروا خصومهم بأدلة عليية ، وأن يتخذوا من سعة أفقهم ومداركهم وثقافتهم مجالاً يجولون فيه حتى يوزوا غيرهم . فلا نعجب إن رأينا داعياً من دعواتهم مثل هبة الله بن موسى الشيرازي المعروف بلقويد في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره ، واستطاع بما حصله من علم أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يدحض رأي الزنادقة المارقين أمثال بن الراوندي والثغوري ، وأن يناظر بعض الشاكين أمثال أبي العلاء المعري ، وأن يجادل خصومه هؤلاء بأدلة عليية منطقية وحجج قوية ، فلولا ما أوتيته من علم لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعاً فيهاجمهم ويدحض حججهم ثراً وشعراً ويترك لنا هذه الذخيرة في مجالسه وديوانه ، ونستطيع أن نقول كذلك عن الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى وعن

(١) خطه الحريري

(٢) المصدر نفسه - ج ٢ ص ٢٥٣

الداعي أبي حاتم الرازي وعن السجستاني وغيرهم من فحول دعاة المذهب الذين
تم على أيديهم فلسفة المذهب وتبلورت عقائده .

لكن هذه الكنوز العلية من تقانس الكتب التي حافظ عليها الفاطميون في
قصرهم أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم ، وكان ابتداء هذه المحنة التي نكبت
بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي
وقد شاهد المسيحي المؤرخ المصري شيئاً من هذه المحنة وصفها بقوله : « وكنت
بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة
وعشرين رجلاً موقرة كتباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي
فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق
في الدين بإيجاب وجبت لها عما يستحقانه وغلبانهما من ديوان الجبليين ، وأن
حصه الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جاري مماليكه وغلبانه بخمسة آلاف
دينار ، وذكر لي من له خبرة بالكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار .
ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من
السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار نعه من الوزير أبي الفرج
وابن أبي كدينة وغيرهما ، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى
ما صار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحرق بالإسكندرية ثم انتقل بعد مقتله
إلى المغرب ، وسوى ما ظفرت به لواتة محمولا مع ما صار إليه بالابتياح
والغصب في بحر النيل والإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها
من الكتب الجليلة المقدار المعنومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط
وتجليد وعرابة التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجبهم .
وأحرق ورقها ، وأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعر الله أنصاره .
وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف منذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى
سائر الأقطار وبقى منها ما لم يحرق ، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية
في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب (١) هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصري
الكبير وذكره في كتبه . وعنه أخذ من جاء بعده عن هذه الذخيرة العلية

(١) خط المصنف ج ٢ ص ٢٥٤

ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والختم بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية وأصبح الوزراء وأنحباب الحول والضول في البلاد، ومع ذلك كله بقي في مكتبات القصر عدة آلاف من الكتب، ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثرية الأفضل بن بدر الجمالي خمسمائة ألف مجلد من الكتب (١) لا أشك أن أكثرها كان في خزائن القصر وأبادها صلاح الدين الأيوبي كما أباد دولة الفاطميين وقد ذكرنا ما أخذه القاضي الفاضل من خزائن القصر لمدرسته الفاضلية، ويذكر المقرئ أن ابن صورة دلال الكتب باع منها جملة في مدة أعوام (٢) وكذا ضاعت كنوز الفاطميين العلية بيد التعصب الممقوت. كان في هذه الخزائن كتب الدعوة وما ألفه الأئمة وكانت هذه الكتب مما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصيبه الفساد، ويحدثنا منصور الجوزي الكاتب أن المنصور بالله أرسل إلى جورد الصقلي رسالة نسختها به بعثت إليك كتبي وكتب الأئمة آياتي الطاهرين، وقد ميزتها فأفررها عندك مصولة من كل شر، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه، وما من الذخائر شيء هو أنفس عندي منها فأمر محمداً كاتبك بنسخ لك منها ثلاث كتب ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به (٣) فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتب الأئمة وهي كتب الدعوة ومحافظة عليها. فلا شك أن مثل هذه الكتب العزيزة لديهم كانت تحفظ داخل القصر فلا يقربها إلا الأئمة والدعاة فقط، أما المكتبات التي صبر عنها المسيحيون بالبرانية، فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بانقصر لسباع مجالس الحكمة التأويلية.

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها، فحرص الفاطميون على اقتناء الكتب على اختلاف فنون العلم والآداب، وشفقهم بالمحافظة عليها، سهل للدعاة الاطلاع وإيمان النظر فيها، والمجادلة فيها بينهم، والمناظرة في هذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لغايتهم، وسلاحاً من أسلحة

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٥٧ . (٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٣) سيرة الأستاذ جورد، نسخة مخطوطة بمكتبي الخاصة .

دعوتهم . حقاً لم يذكر لنا القديما أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التي كانت بالقصر في خدمة الدعوة ، فلم يعقد فيها الدعاة مجالس الحكمة ، ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد في القصر عبثاً ، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليباهوا بها غيرهم ومنافسيهم لحسب ، بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليه طبيعة عملهم ، ولا سيما هذه الكتب التي كانت في داخل القصر والتي لا يقربها إلا الخاصة ، وهي الكتب التي قلنا إنها كتب الأئمة أي كتب الدعوة ، فكيف يتأتى للداعي أن يقوم بما فرض عليه من الدعوة إلا بمعرفة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة ، ولا سيما أن الداعي كان عرضة دائماً للجدالات والمناظرات مع علماء المذاهب الأخرى المخالفين لمذهبه ، وقد ذكرنا شيئاً من صفات الداعي العلمية ، وما يجب أن يكون عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمذهبه ، وإذن قلنا أن قول : إن هذه المكتبات التي كانت في القصر استخدمت في الدعوة من طريق غير مباشر ، وهكذا استخدم القصر في العصر الفاطمي في نشر الدعوة الفاطمية بمحوه ومكتباته ، وفي المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات - مجالس الحكمة التأويلية - وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان للأولياء مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدعوة وخدم القصر مجلس ، ولعوام الناس مجلس ، ولطارئين مجلس وللنساء مجلس (١) ، وهكذا ، وستحدث عن ذلك في فصل مجالس الحكمة التأويلية .

دار العلم : ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءاً من قصره ، ولعلها هي الخزان التي أشار إليها المسيحي باسم الخزان البرانية ، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزان القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم بمن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلا من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من قديمه وغيره ، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم وفنونهم

(١) خط المرقزي ج ٢ ص ٢٢٦ .

العملية ، فنتهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق^(١) ، فدار العلم إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة عليية للتعليم ، وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علمائها . من ذلك ما يرويه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة الغنوي النحوي قدم مصر وصحب المحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحق علي بن سليمان المصري لنحوي ، وكانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذكرات^(٢) ويروي القرظي عن المسيحي أنه في سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، للتناظر بين يديه ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يجتمع الحاكم على الجميع ويصلهم^(٣) .

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل مكشوف يقال له أبو الفداء جعفر ، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخطع عليه ، ولقبه بعالم العلماء ، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة^(٤) ، ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم ولشيخ مالكي آخر أن يقيموا دار العلم ويلقوا دروساً في المنهج المالكي^(٥) . فهذا كله إن دل على شيء فإنه يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها وبها مكنتها ، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل ، فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تمتاز بها المدينة الحديثة في أيامنا هذه .

جعل الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي

(١) خطب القرظي ج ٧ ص ٢٣٤ .

(٢) بنية الوعاة للسيوطي ص ٢١٣ .

(٣) خطب القرظي ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٤) وقع الإصر (ص ١٩ ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٥) النجوم الزاهرة = ٤ ص ٢٢٢ .

القضاة (١)، وظلت تؤدي أغراضها العلمية ، ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب ، إلى أن كانت أيام وزارة الأفضل بن بدر الجمالي ، وعلم الوزير أن جماعة من المتردين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب . وأن بعضهم ادعى الألوهية ، فاضطر الوزير إلى أن يُلقي هذه الدار سنة ٥١٦ هـ بعد أن عمرت أزيد من قرن ، وكان إغلاق هذه الدار العلمية وقع وقع الساعة على الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله وعلى بعض العلماء الذين كانوا في خدمته ولكن الخليفة كان مسلوب الإرادة مع وزيره ، فصر على مضعف ، حتى قتل الأفضل وتولى الوزارة المأمون البطيحي ففاته الأمر في إعادة دار العلم على ما كانت عليه ، وما زال الخليفة بوزيره حتى قبل أن يعيد افتتاحها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر ، وأن يتولاها رجل دين ، وأن ينظر فيها الداعي ابن عبد الحقيق ، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . فوافق الخليفة الأمر على ذلك كله ، واستخدم في هذه الدار الجديدة أبا محمد حسن بن آدم (٢) ، ولكن هذه الدار الجديدة لم تدم طويلا إذ قضى عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية .

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية ، فكان الداعي يجلس فيها ويجمع إليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتطرفة بمنهجم (٣) ، كما كانت هذه الدار المكان الذي يجمع فيه داعي الدعوة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة (٤) . ومن يدرى لعل في دار العلم كانت تحضر مجالس المحكاة التأويلية التي كان يلقيها داعي الدعوة نائبا عن إمامه .

ومهما يكن من شيء فالقصر والمسجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة في العصر الفاطمي . ولما كانت هذه المراكز في القاهرة كان في كل بلد من البلدان مركز للدعوة هو المسجد أو منزل الداعي في هذا البلد . يحدثنا المؤيد في الدين ولكن داعيا في أول الأمر بشيراز : دخلنا كان يوم عيد الفطر من سنة تسع

(١) الولاية والقضاة للكاتب بن ٦٠٠

(٢) القرظي ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) صح الأعمى ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٤) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٦٦ .

وعشرين وأربعمائة كنت يوم قبله مستعداً له في تحصيل فرش وآلة وسجادات يصل عليها المصلون ولا يستغنى عنها المتعبدون . فرفع الخبر بأنني أستجمع الجموع للصلاة والخطبة في غد وأضرب في ساحة دارى المضارب والفايزات ، ولما كان في غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم ، فلما أتممت عكفت عليهم بأوعظ والإندار ... الخ (١) فالداعي هنا كان يتخذ منزله مركزاً للدعوة ولكنه كان في بلد يخضع لحكم العباسيين ، أما في مصر فقد كانت الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بإعانتها وسلاحها ، فكان الدعوة يتخذون المنازل والمساجد للدعوة دون خشية ، وفي المساجد كانوا يلقون مجالسهم التأويلية .

الفصل الثالث

مجالس الحكمة التأويلية

من أجل أعمال داعي الدعوة ونوابه في الجزائر عقد مجالس الحكمة التأويلية ،
أو بعبارة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم يبتهم فيها الداعي
هتائه مذهبيهم والتأويل الباطن للدين ، وهي العلوم التي عرفت بعلوم أهل
البيت ، والتي هي السر الذي يجب أن يظل مدفونا في صدور الأولياء لا يبحون
به لأحد ، فكل المجالس التي عقدها الدعوة هي مجالس تعليمية ، ولكن لهذه
المجالس درجات ، ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل ،
قلامة مجلس ، والنساء مجلس ، وللخاصة مجلس ، وهكذا . ولم تقسم هذه المجالس
على حسب الطبقات الاجتماعية لجمهور المؤمنين ، إنما قسمت على حسب مرتبة
الحاضرين في مدارج الدعوة ، فلا يلقى داعي الدعوة على دعائه ما يليق به على
المتدئين في دخول الدعوة ، ولا يلقى على العامة من أهل البلد ما يليق به على الغريباء ،
فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص ، وعلوم خاصة ، بحيث ينتهي إلى
أسرار الدعوة التي يجب ألا يقربها إلا كل ذي قدم راسخة في الدعوة ، ومن بلغ
فيها مرتبة رفيعة كأن يكون داعيا مثلاً .

وداعي الدعوة - ويعرف باب الأبواب ، وباب حطة ، وبالحنطة - هو
الذي يعد هذه المحاضرات ويرفعها إلى الإمام فيوقعها هذا بعلامته ويعيدها إلى
كبير دعائه فيلقيا على المستجيبين في المحول أو غيره ، فإذا انتهى من قراءتها
مسح على رؤوس الناس بعلامة الإمام تبركاً بها وتكتب هذه المجالس عادة
على أنها صادرة من الإمام فتظهر للجمهور وكأن الإمام هو الذي كتبها
وأن داعي الدعوة هو قارئ لما كتب الإمام ، ولذلك يحتفى اسم الداعي
ولا يظهر في كتب المجالس ، مع أن المعروف أن حجة الإمام هو صاحب
التأويل في عصره .

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله والصلاة على نبيه والآلعة من نسله .

ويردنها الداعي بشيء من الوعظ والإرشاد، ثم يبدأ في تأويل آية من آيات القرآن أو حديث نبوي أو أثر عن الأئمة أو يؤول شيئاً من فرائض الدين العملية، ويختتم مجلسه بالدعاء والصلاة والحمد. وتلقى هذه المجالس مرتين في الأسبوع: يوم الاثنين ويوم الخميس، ويختل إلى أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة، وفيها يقول المؤيد:

يا صباح الخميس أهلاً وسهلاً زادك الواحد الميمون فضلاً
أنت عيد للؤمنين عتيد جمع الدين منهم فيك شلاً
نحن نجنى ثمار جنة عدن كلما أقبل الخميس وودى
من رياض أنهارها جاريات وبها الحور في المقاصر تجلى
تتروى الأرواح منها بماء هو أشقى من الزلال وأحلى
رتبة نحن بها صاحب العصر أمين الإله عز وجل (١)

وبين يدي الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها بعض الدعاة، مثل كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد، وكتاب المجالس المؤيدية ويحتوي على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل، وكتاب المجالس المستنصرية للداعي الموسوم بعلم الإسلام ثقة الإمام (٢)، وهذه المجالس تختلف باختلاف الداعي، فمجالس القاضي النعمان في تأويل فقه الفاطميين، والمؤيد يميل في تأويله إلى فلسفة المذهب، أما ما جاء في المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائي، ويختل إلى أن المجالس المستنصرية كانت تلقى على المبتدئين في الدعوة، وقد رأيت أن أقدم صورة من هذه المجالس المختلفة.

المجلس العاشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان
بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الذي جعل عن تقدير المتوهمين، ولطف
عن لطيف بحث المتوسمين، وصلى الله على محمد النبي وعلى الأئمة من ذريته
الطاهرين، ثم إن الذي يتلوما هم ذكره ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه

(١) ديوان المؤيد داعي الدعوة.

(٢) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار الفكر العربي بالقاهرة.

السلام أنه قال : أول الصفوف أفضلها ، وهو صف الملائكة ، وأفضل المقسم
ميا من الإمام . تأويله ما تقدم القول به من أن أمثال الصفوف في الصلاة أمثال
درجات المستجيبين إلى دعوة الخن على مقادير فضلهم وسبقهم ، وأن أمثال
الملائكة من الناس أمثال المملوكين أمور العباد ، وهم أولياء الله من رسله وأئمة
دينه ومن ملكوه شيئا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوه لهم ، والملك
والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتقة أسماؤها من الرسالة ، والأرك والملائكة
في لغة العرب الرسالة ، وقد قال الله جل من قائل : « الله يصطنى من الملائكة
رسلا ومن الناس ، فالصف الأول من صفوف ظاهري الصلاة لا ينبغي أن يتف
فيه إلا أفضل أهل المسجد من علمهم ، كما قال رسول الله (ص) : ليكني منكم
أولو النبي والعلم . وينبغي أن يكون على يمين الإمام في الصف من خلفه أفضلهم ،
ومن يصلح أن يكون إماما إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة ، لأن
انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين ، فيكون من قدمه
هناك ، فيأخذ بيده ويقدمه مكانه ، وعلى هذا تجرى مراتب أهل الدعوة في
حدودها : أن يكون الذين يلون القائم بها في الدرجة العالية من درجات المؤمنين
الذين هم أهلها ، وأن يكون أقربهم منه عن يمينه ، وهي أفضل درجاتهم ، من
يصلح لمقامه من بعده ، ويتلو ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال : سدوا
فرج الصفوف ، ومن استطاع أن يتم الصف الأول أو الذي يليه فليعمل ،
فإن ذلك أحب إلى نبيكم ، وأتموا الصفوف فإن الله وملائكته يصلون على
الذين يتحرون الصفوف . وعن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال :
« أتموا الصفوف ولا يضرك أن تتأخر إذا وجدت تضيقا في الصف الأول قسم
الصف الذي خلفك ، وإن رأيت خلا أمامك فلا يضرك أن تمشي منحرفا حتى
تسده . يعني وهو في الصلاة . وعن رسول الله (ص) أنه قال : صلوا صفوفكم ،
وحاذوا بين منابركم ، ولا تخالفوا بينها فتختلفوا ويتخللكم الشيطان كما يتخلل
أولاد الخذف . فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج وتامها واعتدال
وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر ؛ ومثله في الباطن
اعتدال أهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حدث لهم ،

لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خلافاً في حد من الحدود التي فوّقه أو دونه فينبغي له أن يسعى ويبحث فيما يبلغه إلى تلك الدرجة ويوجب له صد ذلك الخلل وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحال فيها ، وأوجبت لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين في ذلك على ما أمروا به من التساوي فيه ، لا يتقدم أحد منهم أحداً في ذلك ، كما وجب في ظاهر الصلاة أن يحاذي أهل كل صف منها بين من أكبرهم ، ولا يتجاوز أحد منهم أحداً ، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا وتخللهم الشيطان ، وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تعدى أحدهم حده ، وخرج منه إلى حد غيره ، أوجب ذلك اختلافهم ، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله الذين أمثالهم أمثال الشياطين ، وقوله : « كما يتخلل أولاد الخذف » . فالخذف ضرب من الغنم الصغار السود ، وأحدتها حذفة ، تتخلل الغنم وتمشي بينها ، فشبّه رسول الله (صلح) تخللها ومشيا بتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين لما يريده من تقاطعهم وتدابيرهم وأمرؤا بلزومها . ويتلو ذلك ما جاء عن علي (ص) أنه قال . قال لي رسول الله (ص) يا علي لا تقوم في العيكل . قلت : وما العيكل يا رسول الله ؟ قال : تصلي خلف الصفوف وحدك ، فهذا مما يكره في ظاهر الصلاة ، أن يقف المصلي خلف الصفوف وحده ، وهو يجد فيها مكاناً يقوم فيه ، فإن لم يجد ذلك قام إلى أن يأتي من يقوم إلى جانبه أو يصلي كذلك وحده إن لم يأت أحد ولم يجد في الصفوف موضعاً يقوم فيه ، وتأويل ذلك في الباطن ؛ نهى رسول الله (ص) علياً عليه السلام عن أن يفعله في الظاهر لأنه ليس هو وحده و الباطن ، وحده في الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة ، فذكره له أن يقوم في الظاهر في مكان لا يشبه مكانه في الباطن ، وكذلك لا ينبغي له أن يخلف بنفسه وأن يتواضع عن الدرجة التي جعلها له رسول الله (ص) . ويتلو ذلك قول محمد بن علي عليه السلام : « لكن الذين يلون الإمام أولى الأحلام والنهي فإن تعابا تقنوه ، وقد جاء في مثل ذلك ما تقدم القول به من أن ذلك كذلك يجب في ظاهر الصلاة أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس ، علماءهم وأهل الفضل منهم ، فإن تعابا وتوقف في القراءة

لقنوه وإن سها في الصلاة سبحوا له ليتذكر ما سها فيه ، فيرجع إلى الواجب منه ، وإن ذلك في الباطن كذلك لا يلي صاحب دعوة الحق في الرتبة والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة فإن سها عن شيء عندهم من علم ذكره إياه على ما تقدم القول به ، ويتلو ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : « إذا صلى النساء مع الرجال فن في آخر الصفوف لا يتقدم رجلا ولا يحاذينه إلا أن يكون بينهما وبين الرجال ستره ، فهذا هو الواجب في ظاهر الصلاة . وتأويله ما قد تقدم القول به من أن الرجال أمثال المفيدين والنساء أمثال المستفيدين ، وأن درجة المفيدين فوق درجة المستفيدين ، ولا ينبغي للمستفيد أن يتجاوز حدا إلى حد المفيد ولا أن يدانيه ، بل ينبغي له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له ، وأما قوله : « إلا أن تكون بينهما وبين الرجال ستره ، تأويله أن يكون المفيد مستترا لحال التقية ، فيعامل المستفيد منه في السر ويفيده ويتقدم إليه ألا يدل عليه شيء من إجلاله ولا التواضع له فيطرح ذلك المستفيد في ظاهر أمره تقية على مفيدة وعلى نفسه . فافهموا بيان التأويل بأذوى النهي - والعقول ، جعلكم الله ممن يفهم ويعلم ويعمل بما علم ، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليما ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . »

صورة من المجالس المؤيدية :

المجلس التاسع مئة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي علا عن كل معلوم ، وسما عن كل موسوم ، وكبر عن كل موهوم ومفهوم ، وصلى الله على ربيب رحمة المصوم ، وبحر حكمته المسجور ، محمد المبشر به في التوراة والإنجيل والزيور ، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج ، ومستودع سر ليلة المعراج ، علي بن أبي طالب البرزخ بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه ، والمستحفظين لدينه وحقه ، والمتمين كلة عدله وصدقته . معتم المؤمنين ، آمنكم الله من الفزع الأكبر ، وحشركم مع من تحبون في يوم

المحشر، القليل الطيب خير من الكثير الخبيث، فكونوا طيباً، وكونوا في جانب الخير ولا تيمموا الشر جناباً، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله (صلح) فيما شرح، والاقداء به في وصل ما وصل وقطع ما قطع، فصلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، واقضوا ما أمر الله به أن يقطع بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء، يرض عنكم، وبدلوا حرصكم على الدنيا قوداً، وتوركم عن الآخرة حرصاً، وهو ضوا عن تقصم في طلب الباقي ازدياداً، وعن ازديادكم في طلب الفاني قصاً، من قبل أن ينشيم غواشي النعم، ويظوف عليكم طوائف العدم، فلا دنيا أدركتم، ولا بقى تمسكتم، وأنصتوا لما يلقى إليكم من الحكمة فإنها تنقش صور نفوسكم المستجبة في الأجسام، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الأجنة في الأرحام. واعلموا أنها نعمة الله سبحانه على خالصة عباده، وأتم بها مشمولون، وعلى حالي حفظكم لها وإضاعتم لإحالة مشمولون. قال الله أصدق القائلين: ثم لتسألن يومئذ عن النعيم. زعم الزاعمون أنه الماء البارد في اليوم الصائف، وحى الماء البارد للبهائم كما للإنسان مباح، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح، وهو علم الحقيقة الذي يؤثر في النفوس اللطيفة لصالح المعاد أكثر مما يؤثر الماء البارد لصالح الأجسام. وفسر بعض مفسرى الشيعة أن النعيم المشمول عنه هو ولاية علي بن أبي طالب (ص) وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصحة التوحيد، ومعرفة الحدود للوقوف على معالم الإيمان، وعلم التأويل الذي تفك به أقفال القرآن، وكذبوا إن اعتمدوا في معرفة الله سبحانه على عقولهم، وادعوا وقوع القناء فيها عن الرسول والوصي، على ما عليه رأى كثير من الشيعة بزعمهم من الاستظهار بالولاء والاقداء في معرفة التوحيد بذوي القياس والآراء والجمود بالتأويل الذي ينفذ من ظلمات الاختلاف ويفضي إلى نور الائتلاف، وإنما الاقتدار إلى الرسول والوصي عليهما السلام بلوغ مأم بزعمهم بالفوه من معرفة الله جل جلاله، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصحح من دونها فأى حاجة تبقى بعدما إيهما للناس، وأية فضيلة تخلص لهما، وسوى هذا فإن كانت المعزة التي

هي الفئة المبرزة بدعاوى معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول نزولا على رأى بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند من أشركوا إليهم من الشيعة يقتدون بهم في توحيد ربهم والقول في العدل على قضايا مذبحهم ، فلم لا يكونون مأمونين على الإمامة التي هي دونهما فيرجعوا إلى ربهم فيها ، ولا يناقضهم في قض مبانها ، عهد من يكون مأمونا على انتظار ، ولا يكون مأمونا على دينار ، فقد اختلف عليهم القول بولاية علي (ص) بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل من نظام الإمامة في ولده ، فصاروا في معالم توحيدهم وعدلهم على أصدادهم عيالا ، ولو قاموا إلى جهة المتصمين بحبل الله الممدود باتصالها لوردوا عيوننا وظلالا ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقد كان قرى عليكم من قول الله سبحانه : فأما الذين آمنوا فليطوبون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، . ما شفع بالإبادة عن معنى الحق ، ولم سمى حقا ؟ وإن ذلك جهة كونه أصلا يحتمل الوضع عليه وانتهى الشرح إلى القول بأن الأشكال الجسائية للكثيفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة ، ومثال ذلك : أن السموات والأرض وما بينهما محمولة على قوة إلهية لطيفة يعبر عنها بأمر الله كما قال الله سبحانه : ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، وكذلك أجسام البشر على تحملها محمولة على الأرواح اللطيفة التي هي من أمر الله سبحانه . ويألوئك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، . الآية . . . قد ثبت العلم أن النفسانيات حاملة والجسائيات محمولة عليها ، وأن النفوس المحمولة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم ثابت إلى عالم النفس الذي هو الحق والأصل الحامل . وثبت أيضا من اتلاف الجسم والنفس الإنسانية عن غير قصد منها ولا إرادة ، وتفرقتها عن غير قصد ولا إرادة على كون تألف النفس الكلية بالجسم الكلية وعالم الجسم من السماء والأرض وما بينهما أيضا عن غير قصد منهما ولا إرادة ، بل بأمر المبدع سبحانه ، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها وأنجمها وسفلها وعلوها أمكنته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين النفس والأجسام التي يصير به عامر الأجسام خرابا . وأنتم تسمعون ما تفرؤوه

الآن عليكم من قوله تعالى : « يضل به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، وما
نوح به في معناه وقال قوم : إن الضلال والهدى من الله سبحانه ، وهم جمهور
العامة ، واستشهدوا عليه بهذه الآية وما هو في معناها من مثل قوله : « ولو شئنا
لأنتناكل نفس هداها ، وقوله تعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله
يهدي من يشاء ، وقوله حكاية عن نوح عليه السلام : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت
أن أنصح لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ،
وظايرها كثيرة في القرآن ، وقال أهل الرأي : إنه إن كانت الصورة هذه قد
بطل ثواب المحسنين وعقاب المسيئين ، وإن لهذه الآيات تأويلاً يرجع إليه
ويحمل الأمر عليه ، وهو مثل قرأهم في معنى الآية : يضل به كثيراً ويهدى به
كثيراً . أي يضل به عن الثواب الضالين ، ويهدى به إلى الثواب المهتدين بفعلهم
وكسب أيديهم . واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه : « وقل الحق من ربكم فمن
شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما يجري مجراه وهو كثير في كتاب الله
تعالى . وقد مثل الصادق عليه السلام عن ذلك قتيلاً : يا بن رسول الله الناس
يجورون على المعاصي ؟ فقال : الله أعلم أن يجبر خلقه على المعاصي ، ثم يعاقبهم
عليها . قيل : ففروض إياهم ؟ قال : هو أعز من أن يكون لأحد في ملكه
سلطان . قيل : فكيف ذلك ؟ قال عليه السلام : أمر بين أمرين لا جبر ولا
تفويض ، قوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، يوجب أن كثير
الضالين قليل وقليل المتهدين كثير ، وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة
لا بجسمه الكثيف ، فالنفس الصالحة منسرحة في فضاء عالم النفس منفسحة ،
وصاحبها قليل من حيث الجسم المحدود المحصور ، كثير من حيث النفس
غير المحصورة ، قال الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة ، والنفس الطالحة ضيقة
حرجة كأقصر البهائم لا خطر لها في العالم العلوي ، فأربابها وإن كثروا عدداً
تقد قروا بحصولها كما قال الله سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع
الناس فيمكث في الأرض ، وكما قال سبحانه : قل لا يستوي الخبيث والطيب
ولو أعجبك كثرة الخبيث ، وقال رسول الله (صلح) لعلي عليه السلام : لأن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت الشمس عليه . وقوله : « يضل

به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، معنى الفسوق الخروج من الطاعة وعقد البيعة ، وأما الفاسقين ، فن الفسوق فسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام الذى هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فنقض بيعة الله ، وفيه قال الله سبحانه : وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، ثم نزل عن مكانه فى آخر الأدوار الذى هو دور محمد (صلح) فنقض بيعة الغدير ، وسار الآخر على منهاج الأول ، قإبليس إمام الفاسقين أولاً ، وهو إمام الفاسقين آخرًا ، جعلكم الله براء من الفاسقين ، وألحقكم بالصالحين ، لتكونوا لهم فى منازلهم مراقبين ، والحمد لله الذى له فى إظهار دينه أمر يبلغه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وصلى الله على رسوله الأمين ، محمد المبعوث بالبرهان المبين ، وعلى وصيه السنى الأقدار ، على بن أبى طالب معدن الفخار ، وعلى الأئمة من ذريته هداة الحق ، وأولياء الحق .

هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التى كان يلقيها كبار النعاة على جمهور المستجيبين ، كل بحسب درجته وحمده فى مراتب الدعوة ، فكل مجالس التأويل كما ذكرنا هى تطبيق النظرية التى أطلقت عليها نظرية المثل والمشول ، وكل العقيدة الفاطمية إنما تدور حول الإمام وولايته ومحاولة إثبات أن الله سبحانه أشار إلى الأئمة فى كتابه الكريم ورمز إليهم فيه ، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة الأئمة وولايتهم وتصديق ما جاءوا به ، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم التأويل الباطن وأمرهم بشره لمستحقه من المؤمنين .

الفصل الرابع

أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١ - بنو النعمان^(١)

لا أكاد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدعوة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لها من الأسرتين أسرة عبد الحكم^(٢) قبل العصر الطولوني وأثناءه وأسرة النعمان في العصر الفاطمي، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر، وكان بين بنى عبد الحكم من اتجه إلى التاريخ وتدوينه، كذلك كان بين بنى النعمان من دون التاريخ، وكان بنو عبد الحكم مقرين إلى الولاة في مصر، كذلك كان بنو النعمان في مكة لا تقربها مسكاة أخرى لدى أئمة الفاطميين، فالأسرتان - بنو عبد الحكم وبنو النعمان - من أشد الأسرات أثرا في الحياة المصرية، ولا سيما من الناحية العقلية.

أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمي ومن أكثرهم تأليفا للكتب، وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبصها من جاء بعده من علماء هذا المذهب، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقومها ندى طائفة البهرة الإسماعيلية، هذا الرجل هو القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التميمي المغربي، ويعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان تمييزاً له عن سمية أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف. اختلف الناس في تاريخ مولده فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى

(١) راجع ما كتبناه عن بنى النعمان في مقدمة كتاب الحق في آداب اتباع الأئمة.

(طبع دار الفكر العربي)

(٢) راجع ما كتبناه عن بنى عبد الحكم في كتاب أدب مصر الإسلامية - مصر الولاة

أنه ولد سنة ٢٥٩هـ^(١) وتبعه الأستاذ ماسينيون في ذلك الرأي . ولكن الأستاذ آصف فيظي خالفهما وذهب إلى أنه ولد في العشر الأخير من القرن الثالث^(٢) وليس لدينا ما يرجح أحد الرأيين ، بل نصح بأنه لم يصلنا شيء عن نشأته الأولى ولا عن آباءه وأسرته إلا ما رواه ابن خلكان : أن والده أبا عبد الله محمد قد عمر طويلاً ، وأنه كان يحكى أخباراً كثيرة تفيضة حفظها في كبره ، وتوفي في رجب سنة ٣٥١هـ وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان ودفن بأحد أبواب القيروان^(٣) لحياة الأسرة غامضة أشد الغموض ، ولم يحفظ التاريخ شيئاً عنها ، ولا أدري من أين استقى الأستاذ جوثيل ما رواه من أن والد النعمان كان من رجال الأدب ، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك .

وليس لدينا شيء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦هـ وقبل اتصاله بصعيد الله المهدي الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ، إلا أنه كان مالكي المذهب وتحول إلى المذهب الفاطمي^(٤) ، ولكن مؤرخي الشيعة الاثني عشرية قالوا إن النعمان كان مالكي المذهب ثم تحول إلى الشيعة الاثني عشرية ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية^(٥) وينهب أبو المحاسن إن أنه كان حنفي المذهب قبل أن يعتنق المذهب الفاطمي^(٦) . ولكن إذا أمعنا لنظر في هذه الخلاقات وجدنا أن الأرجح هو ما رواه ابن خلكان ، فالمذهب المالكي هو المذهب الذي كان يسود شمال إفريقيا والأندلس ، على أن المذهب الحنفي كان قليل الانتشار بين المسلمين في إفريقيا وفي مصر أيضاً ، وأن خاصة تلاميذ مالك كانوا مصريين ، وعن مصر انتقل هذا المذهب المالكي إلى شمال إفريقيا والأندلس وساد هذه البلاد حتى قل أن نجد فيها مذهباً آخر من مذاهب أهل السنة ، فن المرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده ، أما ما يدعيه الأستاذ آصف فيظي أن النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره وأنه اتخذ التقية والستر خوفاً على نفسه

(١) I.A.O.S. 1907 pvol. XXVII p.227

(٢) I.R.S. 1 1 P.34

(٣) وفیات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦

(٤) المصدر نفسه

(٥) السندوك ج ٣ ص ٣١٣

(٦) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

وعلى مذهبه فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده ، وكذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدى سنة ٣١٣ هـ أى بعد أن أظهر المهدي نفسه في المغرب وهزم الأغالبة واحتل ديارهم . دخل النعمان في خدمة المهدي واتصل به ، ولا ندرى نوع الخدمة التي كان يؤديها ولا الصلة التي اتصلها به ، ولكن بعد وفاة المهدي اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئا . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولي قضاءها بل ولاء المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الناظمي مقربا منه ، وظل قاضي قضاء هذه المدن ومن تحته قضاتها ، إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به حتى إنه كان يجالسه ويسايره وقل أن يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عنب ولايته . ولكن المعز طلب إليه أن يكون في عهده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله ، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره ، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسائرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز . ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ اصطحب معه نبي النعمان ، وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجيش ، وكان من الطبيعي أن يقله النعمان قضاء مصر ، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبي طاهر الذهلي محمد بن أحمد الذي كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وطلب إلى أبي طاهر أن يحكم بفقهاء الفاطميين ، فكان لا بد للناظمي من أن يسترشد في أحكامه بالقاضي النعمان ، وما زال كذلك حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣ هـ .

ويقول ابن حجر : إن النعمان كان يسكن مصر أي الفسطاط ويندومنها إلى الظهرة في كل يوم^(١) ويروي ابن خلكان عن المسيحي أن النعمان كان من أهل العلم والنفقة والدين والنهل مالا مزهد عليه^(٢) ، وقل ابن خلكان عن ابن زولاق

(١) رفع الإصر ص ١٣٦ ب نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

أن النعمان بن محمد القاضي كان في غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه .
وفاً لما بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفصح والمعرفة بأيام
الناس مع عقل وإنصاف (١) . وكل من تحدث عن النعمان من المؤرخين يذكر
فضله وعلمه وسعة ثقافته ، فلا غرابة إذن أن نرى هذه الكتب الكثيرة التي
ألّفها النعمان والتي أصدت عمدة كل باحث في المذهب الفاطمي بل أصبحت
الأصل الذي يستقى منه علماء المذهب ، فلا أكاد أعرف عالماً من علماء الدعوة
الفاطمية لم ينهج نهج النعمان في فقهه أو اختلف معه في رأي في المسائل الفقهية ،
وخذ يكون ذلك لأن النعمان قال في كتابه المجالس والمسائرات : إن الإمام المعز
لدين الله طلب إليه أن يلتقي على الناس شيئاً من علم أهل البيت ، فألّف النعمان
كتبه ، وكان يعرضها على المعز فصلاً فصلاً وباباً باباً حتى أتمها ، فهو يقول مثلاً .
أمرني المعز لدين الله (صلح) بجمع شيء ملخص لي وجمعه ووقع لي معانيه
وليس لي جملة فابتدأت منه شيئاً ثم رفعت إليه ، واعتذرت من الإبطاء فيه
لما أردته من إحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته (ص) فطالعت
في مقداره ، فوقع لي : يا نعمان لا تبال كيف كان القدر مع إشباع في إيجاز ،
فلكم أوجزت في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ، والذي خشيت
من أن يستعجل في تأليفه فواقه لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما
تمت هذه من النية ومحض الولاية لما كنت تستطيع أن تأتي على باب منه في أيام
كثير ، ولكن النية يصحها التوفيق (٢) .

وفي كتابه هذا كثير من النصوص التي تدل على أنه كان يعرض كتبه
على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس ، كما أنه كان يقرأ بمجالس المحكمة التأويلية
ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعي (٣) وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن
النعمان كان من الدعاة ، وإن كان مؤرخو المذهب المحدثون مثل الداعي إدريس
يحدثنا في كتابه عيون الأخبار أن النعمان كان في مكة ربيعة جداً قريبة من الأئمة ،

(١) ابن خلكان .

(٢) المجالس والمسائرات ورقة ٥٠ ب .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

وأنه كان دعاة من دعاة الدعوة ، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولي مرتبة داعي
الدعاة ، ويحيل إلى أن النعمان كان داعية في سياسة التقرب إلى الأئمة ، وأنه
استمع بعينه وثقافته أن يجذب إليه قلوبهم ، تقربوه إليهم وعرف أسرارهم
ونياتهم فوضع هذه الكتب الكثيرة وادعى أن الأئمة هم الذين لفتوه إياها ،
بل لعل لا أغالي إذا قلت : إن النعمان هو أول من دون قبه المذهب الفاطمي ،
فلا أكاد أعرف قريبا من فقهاء المذهب قبله كتب في هذا الفن ، وبين يدي
الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب
الإسماعيلية ، وأمامي فهرست ابن النديم ، وبمجموعة خطية قديمة لمؤلف مجهول
جمع فيه أسماء الكتب التي ألفت منذ أوائل الدعوة الإسماعيلية ، فلم أعر
في هذه الكتب كلها على كتاب واحد في الفقه الإسماعيلي قبل القاضي النعمان
ابن محمد . فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات ،
ولا سيما أن النعمان ذكر في كتبه أنه اقتبس هذه العلوم من الإمام ! حتى قال
المعز عن النعمان : من يؤدي جزءا من مائة مما أداه النعمان أضمن له الجنة بجوار
ربه (١) ويحدثنا المؤيد في الدين في سيرته أن الوزير اليازوري قال له : إن النعمان
بني هذا الأمر وإن أحق الناس بمكانة أبنائه (٢) فالنعمان إذن قد أدى للدعوة
الفاطمية هذا الفضل الذي عرفوه له ، إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون على
الفقه الذي وضعه لهم النعمان ، وربما على التأويل الذي ذكره في كتبه .

لننظر الآن إلى هذه الكتب التي وضعها النعمان لأهل الدعوة ، فيقول ابن
خلكان : إن النعمان ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن
تأليف وأملح سجع ، وعمل في المناقب والمثالب كتابا حسنا ، وله ردود على
المخالفين ، له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج ، وكتاب
اختلاف الفقهاء يتصرف فيه لأهل البيت ، وله القصيدة الفخرية التي لقبها بالمتنجة (٣)

(١) كتاب عمون الأخبار ج ٦ ص ٤١ .

(٢) السيرة المؤيدية .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

ومررد الأستاذ إيفانوف. مؤلفات القاضي النعمان فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتاباً بعضها لا يزال يحتفظ به أتباع المذهب وهم طائفة البهرة ، ومنها كتب حثرت على بعض أجزائها ومنها ما فقد ولم يعرف إلا أسماؤه ، ولا تعرف مكتبات أوربية إلا ستة كتب من كتب النعمان هي :

(١) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين ، وأحضرت دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(٢) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي مكتبة جامعة القاهرة صورة فتوغرافية منه .

(٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٥) جزء من كتاب المجالس والمسائرات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وفي مكتبة جامعة القاهرة .

(٦) كتاب المهمة في اتباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن . وعندي نسخة خطية منه .

ويحتفظ أصحاب الدعوة الآن في مكتباتهم الخاصة بالكتب الآتية :

(١) افتتاح الدعوة ، وعندي نسخة خطية منه كما تحتفظ مكتبة جامعة القاهرة

بصورة منه (٢) كتاب الإيضاح (٣) كتاب ينبوع (٤) مختصر الآثار

(٥) كتاب الطهارة (٦) القصيدة المختارة (٧) القصيدة المنتخبة (٨) منهج

الفرائض (٩) الرسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة (١٠) اختلاف أصول

المذاهب (١١) كتاب التوحيد والإقامة (١٢) مناقب بني هاشم (١٣) تأويل

الرؤيا (١٤) مفاتيح النعمة .

أما كتبه التي لم يعرف عليها وعرفت أسماؤها فهي :

(١) مختصر الإيضاح (٢) كتاب الأخبار (٣) كتاب الاقتصار (١٤) كتاب

الاتفاق والافتراق (٥) كتاب المختصر (٦) كتاب يوم وليلة (٧) كتاب

كيفية الصلاة (٨) الرسالة المصرية في الرد على الشافعي (٩) كتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي (١٠) دافع الموجز في الرد على المعتزلي (١١) نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل (١٢) حدود المعرفة في تفسير القرآن والتنبه على التأويل (١٣) كتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق (١٤) كتاب في الإمامة في أربعة أجزاء (١٥) كتاب التعاقب والانتقاد (١٦) كتاب النقاة (١٧) كتاب الحل والسياب (١٨) كتاب الشروط (١٩) أرجوزة ذات المن وهو في سيرة الإمام المعز (٢٠) أرجوزة ذات المحن وهي في تاريخ ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد (٢١) كتاب معالم المهدي (٢٢) كتاب منامات الأئمة (٢٣) كتاب التفریح والتعريف .

هذه هي الكتب التي تركها النعمان بن محمد ، ولعل أهم كتاب خالده هو كتاب دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، وهو الكتاب الذي أمر الظاهر بأن يحفظه الناس ، وجعل لمن يحفظه مالا جزيلًا ، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين ، فدعائم الإسلام عندهم الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها فهو يتحدث عن ذلك كله بشيء من الإطناب ، ويروي عن كل فريضة ما ورد عنها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وما جاء عن الأئمة ، ومن قرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك لا يكاد يجد اختلافًا إلا في بعض أمور لا تمس الدين في شيء ، اللهم ما ورد في القسم الخاص بالولاية .

والفصل الخاص الذي في أول الكتاب يتحدث فيه عن الإيمان وجعل الولاية شرطًا أساسيًا للتؤمن ، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين ومسته والمعاملات وغيرها فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية . وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المنعب - منذ عرف هذا الكتاب - إذا عرفنا أن عالمين من أكبر علمائهم ذكراه في كتبهما واعتمدا عليه ونوها به ، أما العالم الأول فهو أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى المتوفى ٤١٢ هـ قد ذكر في مقدمة كتابه «راحة العقل» الكتب التي يجب أن تقرأ قبل قراءة «راحة العقل» ، ومن هذه الكتب كتاب «دعائم الإسلام» ، وأما العالم الثاني فهو

المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي المتوفى ٤٧٠ هـ فقد ذكر في السيرة المؤيدية ، أنه كان يعقد مجلسا خاصا كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبي كاليجار البرهسي فصول كتاب دعائم الإسلام ، ويعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية على الرغم من أنه في علم الظاهر ، ويعد من كتبهم السرية التي لا يقربها إلا علماء المنصب قط .

وقد أتبعه القاضي النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام واسمه الكامل : كتاب تربية المؤمنين بالتوقيف على حدود باطن علم الدين في تأويل دعائم الإسلام ، وهو في ذكر التأويل الباطني للأحكام والفرائض التي وردت في كتاب دعائم الإسلام ، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية ، وعليه اعتمد الدعاة بعد النعمان (١) ، وقد توفي النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب .

ومها يكن من شيء . فالقاضي النعمان يعد من أكبر علماء الدعوة وقضايا الاعظم ، وتوفي هذا الرجل بمصر سنة ٣٦٣ هـ . كان هذا الفقيه رأس هذه الأسرة ومؤسسها ، وجاء بعده أبناؤه وحفدته وعرفوا جميعا بالعلم والفقه ، وتولوا الدعوة والقضاء بعده .

٢ - ولد ابنه الأكبر أبو الحسين علي بن النعمان بالقيروان في رجب سنة ٣٢٨ هـ (٢) وقدم مصر مع باقي أفراد الأسرة في صحبة المعز لدين الله ولما مات النعمان اشترك علي بن النعمان في قضاء مصر مع أبي طاهر النحلي فظلا يقضيان حتى توفي المعز وولي العزيز وعرض لأبي طاهر القاضي مرض الفالج ، فقوض العزيز الحكم إلى علي بن النعمان وذلك في صفر سنة ٣٦٦ هـ ، وظل منفردا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام العزيز حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضي بين الناس ، فقام من وقته ومضى إلى داره وأقام عيلا أربعة عشر يوما ، وتوفي يوم الاثنين لست خلون من رجب سنة ٣٧٤ هـ وصلى عليه العزيز ، وهو أول من لقب بقاضي القضاة في مصر ، وكان طالما قضاها مثل أبيه ، وكان شاعرا أورد له الثعالبي شيئا من شعره ، مثل قوله :

ولي صديق ما سنى عدم مذ وقعت عينه على عدمي

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك في مقنة كتاب المجالس المنتصرة :

(٢) رفع الإصر ورقة ٨٥

أغنى وأقنى فما يسكنفنى قهليل كف له ولا قدم
قام بأمرى لمسا قدمت به ونمت حسن حاجتى ولم ينم (١)
ومن شعره ، وقيل يل من شعر أخيه محمد بن النعمان (٢)

رب خود عرفت فى عرفات صلبتى بحسبها حسناى
حرمت حين أحرمت نوم عيني واستباححت دى بذى اللطحات
وأفاضت مع الحجيج ففاضت من جفونى سوايق العبرات
لم أنل من منى منى النفس حتى خفت بالحيف أن تكون وفاتى (٣)
ومن شعره أيضا :

صديق لى له أدب صدافة مثله نسب
رعى لى فوق ما رعى وأوجب فوق ما يجب
فلو قصدت خلاقة لهرج عندهما الذهب (٤)

فن هذه الأبيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعرا رقيق الشعر عذب
الديباجة متلاعبا باللفظ ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملا حتى
نستطيع أن نكون رأيا دقيقا فى شاعريته .

ولا أدرى أيضا من أين استقى الأستاذ آصف فيظلى أن أبا الحسن على بن
النعمان كان فى مرتبة داعى الدعاء ، فليس لدى من النصوص ما يؤيد ذلك ، بل
الذى ذكره المؤرخون أن أول من أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين
هو ولده الحسين بن على بن النعمان على نحو ما سنذكره بعد .

٣ - ولما توفى على بن النعمان أرسل الإمام العزيز بالله إلى أبى عبد الله محمد
ابن النعمان يقول : إن القضاء لك من بعد أخيك ولا نخرجه عن هذا البيت (٥)
وهكذا ولى مرتبة قاضى القضاء بعد أخيه ، وكان فى حياة أخيه ينوب عنه فى
القضاء ، فإنه لما سافر العزيز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨ وسار على فى صحبه

(١) بنية الدهر ج ١ ص ٣٠٥

(٢) بنية الدهر ج ١ ص ٣٠٦

(٣) دعوى النصر لباخرزى ص ٨٨

(٤) بنية الدهر ص ٣٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

استخلف أخاه محمداً في القضاء . ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥ هـ (١) وقدم القاهرة مع أفراد الأسرة ، وما زال بها حتى ولي القضاء وكان جيد المعرفة بالأحكام ، متقناً في علوم كثيرة ، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس (٢) . وقد مدحه الشاعر عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى بقوله :

تعادلت القضاء على أما أبو عبد الإله فلا عديل
وحيد في فضائه غريب خبير في مفاخره جليل
أنت بهجة ومضى اعتزاما كما يتألق السيف الصقيل
ويقضى والسداد له حليف ويعطى والقيام له زميل
لو اخترت قضاياهم لقالوا يؤيده عليها جبرئيل
إذا رقى المناير فهو قس وإن حضر المشاهد فالخليل

فلا قرأ محمد بن أثيران هذه القصيدة كتب إلى الشاعر :

قرأنا من قريضك ما يروق بدائع حاكها طبع رقيق
كان سطورها روض أنيق توضع بينها مسك قيق
إذا ما أنشدت أرجعت وطابت منازلها بها حتى الطريق
وإنا نأقون إليك فاعلم وأنت إلى زيارتنا تنوق
غواصلتنا بها في كل يوم فأت بكل مكرمة حقيق (٣)
وما يروى له أيضاً قوله :

أيا مشبه البدر بدر السماء لسبح وخمس مضت واثنتين
ويا كامل الحسن في نعتك شغلت فؤادى وأسهرت عيني
فهل لي من مطمح أرتجيه وإلا انصرفت بخني حنين
ويشمت في شامت في هواك ويفضح لي ظلت صفر اليدين
فإما مقت وإما قلت فأت القدير على الحاليتين (٤)

وفي سنة ٣٧٥ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ابنة القائد جرهر

(١) رفع الإصر ص ١٢٩ (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٨ (٤) المصدر نفسه

الصقلي في مجلس العزيز ، ثم قرر ابنه هذا في نيابته عنه في الأحكام بالقاهرة ومصر
وعلت منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز بالله حتى إنه كان يصعد معه
على المنبر (١) وكان مهيأ محترماً ، حتى إن أحداً لم يكن يخاطبه إلا بسيدنا (٢)
ويروى ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصري : « ولم نشاهد بمصر لقاض
من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق
ووافق ذلك استحقاتاً لما فيه من العلم والضيافة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة (٣)
فكانت هذه المكاة التي حظى بها هذا القاضي سبباً في أن يتقم عليه الوزير
يعقوب بن كلس ، ويحيل إلى أن الوزير كان يخشى اتساع نفوذ بني النعمان فيحاول
ما استطاع أن يكسر شوكتهم وينقص من قدرهم ، فكان يعد إلى أن ينتقض أحكام
القاضي ، ويروى ابن حجر العسقلاني عن المسيحي أن الوزير ابن كلس كان كثير
المعارضة لبني النعمان في أحكامهم ، (٤) وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من
اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضره لهم ، وبعد أن توفي العزيز بالله سنة
٣٨٥ وولى الحاكم بأمر الله ، أقر القاضي محمد بن النعمان على ما بيده من القضاء ،
وزادت موارثه عنده رتبة ، ولكن محمدًا تزاحمت عليه الملل ، فتوفي ليلة الثلاثاء
رابع صفر سنة ٣٩٩ وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه ، وحزن الحاكم لوفاته
فلم يول أحداً مرتبة القضاء إلا بعد شهر ، فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن
علي بن النعمان .

٤ - ولد أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان بالمهدية سنة ٣٥٣ هـ وقدم
مع أسرته إلى القاهرة المعزية ، ومهر في علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء
المذهب الفاطمي ، وكان يتوب أحياناً عن عمه محمد بن النعمان في القضاء حتى ولىه
بعد وفاة عمه . وفي صفر سنة ٣٩١ بينا كان القاضي جالساً في الجامع بمصر يقرأ
عليه الفقه أقيمت صلاة العصر فقام يؤدي الفريضة ، وبينما هو في الركوع إذ
هجم عليه رجل مغربي وضربه بمنجل في رأسه ووجهه ، فحمل القاضي جريحاً إلى
داره ، وظل حتى اندمل جرحه ، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلاً

(٢) الكندي ص ٥٩٤

(١) ابن خلكان ج ٢

(٤) دفع الإصر ص ١٢٩

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٩٨

بالسلاح ، وكان إذا صلى وقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة ثم يصلح حرسه ، ولا نكاد نسمع أن قاضيا من قضاة المسلمين في التاريخ الإسلامي كله كان يصلح والشرطة تحرسه غير الحسين بن علي بن النعمان . وزاد الحاكم في إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق همه وصلاته وإقطاعاته ، وفوض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة ، وولاية الدعوة وقراءة مجالس الحكمة والتأويلية بالقصر وكتابتها وهو أول قاض أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين (١) ويظهر أنه في ذلك الوقت دب ديب الشقاق بين أبناء هذه الأسرة فهذا القاضي طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ببعض ودائع كانت في الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء ، وتشدد القاضي في مطالبة ابن عمه بهذه الودائع حتى ألزمه أن يبيع كل ما خلقه أبوه سدا لهذه المطالبة ، ولست في مركز يسمح لي أن أقول : أكان تشدد القاضي عن روع ودين أم عن حسد وغيره وشقاق بين بني الأعمام . ومهما يكن من شيء فقد صرف هذا القاضي عن رتبة القضاء والدعوة في رمضان سنة ٣٩٤ هـ ، وأمر الحاكم بحبسهم ثم ضربت سنة ٣٩٥ هـ ومكثا لقي حتفه بيد الحاكم ، بعد أن كان مكرما لديه مقربا إليه .

٥ - وولى القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان المولود في أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥ هـ وهو الذي كان ينوب عن أبيه في القضاء ، وكان عالما من علماء الدعوة الفاطمية ينسب إليه كتاب البلاغ الأكبر والناموس الأعظم في أصول الدين ، وهو الكتاب الذي رد عليه القاضي أبو بكر الباقلائي (٢) وقيل : إن هذا الكتاب من تصنيف عمه علي بن النعمان ، ومهما يكن من شيء فالقاضي عبد العزيز بن محمد هو أول من ولى النظر على دارالعلم (٣) ، وكان يجلس في الجامع ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان ، واختلاف أصول المذاهب ، وعلى الرغم من أنه خص بمجالسة الحاكم ومسايرته فإنه لم ينج من نزوات الحاكم وفتناته ، فعزله عن القضاء سنة ٣٩٨ هـ ثم اعتقله في السنة التالية ثم عفا

(١) الكنى ص ٩٦ وما بعدها

(٢) الكنى ص ٦٠٣ .

(٣) المصدر نفسه .

عنه وأعاد إليه النظر في المظالم وخلع عليه ، وفي سنة ٤٠١ هـ اضطر هذا القاضي إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جوهر الصقلي ، فصادر الحاكم بيوتهما وحمل كل ما كان فيها ، ثم كتب الحاكم لها بالأمان وخلع عليهما ، ولكنه أمر بعد ذلك بهتلها في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ .

وبعد هذه المأساة ضعف أمر بني النعمان وماءت حالهم ، ولم تبق لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ ، حتى إن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولي القضاء سنة ٤١٨ هـ ولكنه لم يمكث في هذه المرتبة سوى عام وشهرين ، وأعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧ هـ وأضيفت إليه الدعوة ويقول عنه المؤيد في الدين : « وتوجهت إلى الموسم بالقضاء والدعوة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا ، فرأيت رجلاً يصول بلسان نسيه في الصناعة التي رسم بها دون لسان سيده ، فارغاً مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون بلوح من حركاته وسكناته ، (١) وعزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١ هـ ويحدثنا المؤيد أن نساء بني النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر وألحفن عليها بالسؤال لإعادته ، فعينه الوزير اليازوري ٤٤٢ هـ نائباً له في الدعوة ، فقبل القاسم أن يكون تابعاً لداعي السعاة بعد أن كان أصلاً في هذه الخدمة ، واستمر القاسم بن عبد العزيز نائباً لليازوري في مرتبة الدعوة حتى أقعده المرض ، فأناجى ابنه محمد بن القاسم في الدعوة بدله ، واستمر محمد نائباً عن والده في نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠ هـ . ثم لم تعد نسمع شيئاً عن هذه الأسرة التي ظلت زهاء قرن في مكانة رفيعة عالية وفي اتصال بالأئمة الفاطميين ، كما كان لهذه الأسرة أثرها في بعث العقائد الفاطمية في نفوس الناس بما ألقوه من كتب وما ألقوه من مجالس الدعوة وبما كانوا يحكمون به في القضايا على حسب فقه المذهب الفاطمي الذي وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة .

٢ - يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوي في الحياة العقلية

(١) السيرة المؤيدية .

بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، ولد ببغداد في أسرة يهودية ، ونشأ بها حيث درس شيئاً من الكتابة والحساب واتخذ التجارة متكسباً له ، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشق الطرق والوسائل ، ثم رحل مع أبيه إلى الشام في بعض مسائل تجارية فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلاً للتجار بها ، ثم فر منها إلى مصر : قيل : إن سبب ذلك أنه اجتمع قبله مال عجز عن أدائه فهرب (١) وقيل بل أرسله أبوه إلى مصر للتجارة بها (٢) ومهما يكن من شيء فقد وفد يعقوب على مصر إبان ولاية كافور الإخشيدى ، فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتصل بكافور ، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كنفه يقر به إليه ويثق به حتى اشتدت صلة يعقوب بكافور ، فعرض عليه كافور الإسلام ، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام ، وذلك يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٦ ولزم التعبد ودراسة القرآن ، ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم يدرس له أصول الدين الإسلامي ، وكانه في ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك ، فعمل على إتمام النقص الذي كان يشعر به ، وهو يهوديته السابقة ، فأراد ألا يرمى بضعف إسلامه إذا بلغ ما تافت إليه نفسه ، فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية ، وكان بالوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن خزابة وزير كافور عرف ما كان يرمى إليه يعقوب ، فخشي من صلة كافور بهذا اليهودي الناجر ، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلس اشتد مقت ابن خزابة له ، فنصب له الحياتل لإخراجه من البلاد ، فلما توفي كافور سنة ٣٥٧ قبض ابن الفرات على جميع الكتاب وأصحاب الدواوين وطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب ، واتصل يعقوب بالمعز لدين الله ، فقربه المعز إليه وصحبه معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون . وقيل : إن ابن كلس هو الذي أطلع المعز على أسرار مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصت على جيوش الفاطميين من قبل . وبعد أن استتب الأمر في مصر للمعز وقلل عاصمة ملكه إلى مدينة القاهرة ، ولي يعقوب بن كلس الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة وذلك في سنة ٣٦٣ هـ

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٢٢

(١) القرظي ج ٣ ص ٧

ومن مثل ابن كلس يصلح الأمر المال ١١ فاستمر في عمله حتى سنة ٣٦٥ فقد زادت صلته بالمرز واكتسب حبه ووقته ، فولاه المرز النظر في جميع أموره في قصره ، وبعد قليل توفي المرز لدين الله ففوض المرز باقاه ليعقوب النظر في سائر أموره وجعله وزيراً له ، وذلك في المحرم ٣٦٧ ، وفي رمضان ٣٦٨ خلع المرز عليه ، ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلس أول وزير في مصر الفاطمية ، ويروي ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس ، أنه لما خلع علي الوزير يعقوب بن كلس وكان مكيماً من العزيز وكنت حاضراً مجلسه ، قلت أيها الوزير : روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثني الصادق رسول الله ﷺ أن الشقي من شقى في بطن أمه ، والسعيد من سعد في بطن أمه ، وهذا علو سماوي ، فقال الوزير : ليس الأمر كذلك وإنما أفعال وتوفيراتي وكفائتي ونياتي ونيق وحرصي الذي كان يهجي ويناب ، قد مات قوم من كان وبق قوم . وكان هذا القول بمحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذي خرج من العزيز في ذكر تشريفه ، قال ابن زولاق : فأمسكت ، وقلت : وفق الله الوزير ، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً . وقت وخرجت وهو ينظر إلي ؛ وحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسيني قال : عاتب الوزير علي ما تكلم به وقلت : إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه ، وما أراد إلا الخير ، فقال الوزير : خني عنك ، إنما هذا مثل قول المتني في كافر :

وقه سر في علاك وإنما كلام العدا ضرب من الهديان

وأجمع الناس على أن ذلك هجو في كافر لأنه أعلم أنه تقدم بغير سب ، وابن زولاق هجائي على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فما أمكنني السكوت ، وكان في نفسي شيء لجمعت كلامه سبياً (١) فركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن يعتقد أن تهمة ابن زولاق هجاء له ، وشعوره يهوديته الأولى وأنه أصبح وزيراً مقرباً إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتعمق في دراسة

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٥

الدين الإسلامى حتى أصبح علماً من أعلام علماء الدعوة الفاطمية . ومع ذلك
قبحن لا ندرى السبب الذى من أجله اعتقل الوزير فى القصر سنة ٣٧٣ هـ عدة
أشهر ، فالتورخون لم يذكروا لنا شيئاً عن ذلك ، ثم فرى العزيز يطلقه سنة
٣٧٤ هـ ويأمر بحمله على عدة خيول ، وقرى سجل برده إلى تدير أمور الدولة
مرة أخرى ، ووجه العزيز خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة .
فانست دأرتة وعظمت مكاتته حتى كتب اسمه على الطرز وفى الكتب (١) .

بجانب هذه المكاة الرفيعة التى بلغها الوزير يعقوب بن كئس ، وهذا السلطان
القوى الواسع الذى أحرزه ، كان هذا الوزير محباً للعلم والطلب مشجعاً لمن طلب
العلم ، يمدق المنح والعطايا للكتاب والشعراء ، ويروى ابن خلكان : « كان
يعقوب يجمع عنده العلماء ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون
يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ويعارضون ويشكلون المصاحف
وينقلونها ، وكان ينصب كل يوم خواناً لخاصته من أهل العلم والكتاب
وخراص أتباعه (٢) فكان من خاصة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف
بالزلازلى مصنف كتاب الأسجاع (٣) والتميمي المقدسي الطبيب الذى صنف
للوزير كتاباً ضخماً فى عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء
والتحرز من ضرر الأوباء» (٤) وأخذ الوزير علم العروض عن شيخه البديهي
وبفنه وهدايته قال الشعر (٥) وبلغ نحو نفسه فى علم الفقه الفاطمي درجة أهله
لأن يؤلف الكتب ويقعد مجالس التأويل ، فقد رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة
جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاء والفقهاء
والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والمدول وغيرهم من وجوه الدولة (٦) ،
كما نصب مجلساً فى داره يحضره فى كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمين وأهل
المجالس للناظرة بين يديه (٧) فرعايته للعلم والعلماء ساعدته على أن يؤلف هذه

(١) القرزى ج ٢ ص ٨٠ . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .
(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ . (٤) أخبار المسكاه لطنطى ص ٧٤ .
(٥) الإشارة للى من نال الوزارة ص ٢٢ . (٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٤ .
(٧) القرزى ج ٢ ص ٣٣٤ .

الكاتب التي قرأها على الناس و التي منها كما ذكر يا قوت (١)

(١) كتاب في القراءات (٢) كتاب في علم الأبدان وصلاحها (٣) كتاب في الفقه بما سمع من المعز والعزير (٤) كتاب في الأديان وهو في الفقه (٥) مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية (٦) كتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه بعض الكتب التي ألفها هذا الوزير . ويقول إيفانوف : إنها فقدت جميعها ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذي طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه ، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه (٧) ويحدثنا المقرئ أن الناس كانوا يفتون بكتابه في الفقه ، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأن المعز بالله أجرى لجماعة قهلاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاقا كل شهر تكفيهم (٨) ، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول من جعل من الجامع الأزهر جامعة عليية ، ورتب لعلائها الأرزاق . معنى هذا كله أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء ، فأتسمت بفضله الثقافة ، وازداد الإقبال على العلم . وكذلك لقي الشعر على يديه التشجيع الذي لقيه العلم ، فقد كان الوزير بعد أن ينتهي من مجالسه العلية يأذن للشعراء في إنشاده مدائحهم فيه (٩) وكان يصدق عليهم الهبات والعطايا ، ولعل أكثر الشعراء مدحا له هو الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرقيم وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع ، فن قول ابن أبي الجوع ، وقد مرض الوزير من علة أصابت يده :

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| يد الوزير هي الدنيا فإن المت | رايت في كل شيء ذلك الأما |
| تأمل الملك وانظر فرط عنته | من أجله ، واسأل القرطاس والقلبا |
| وشاهد البيض في الأغماد هائمة | إلى العدا وكثيرا ماروين دعا |
| وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت | كأنما أشعرت من أجله حقا |
| هل ينفض الجهد إلا أن يؤيده | ساق يقدم في إنهاضه قدما |
| لولا المعز وآراء الوزير معا | تحيفتا خطوب تشعب الأما |

(١) معجم الأديباء ج ١٠ ص ١١٨ ط دار الأملون .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ١٦٩ (٣) خطط المقرئ ج ٣ ص ٩

(٤) المصدر السابق (٥) المصدر السابق

قل لهذا وهذا أتت شرف
كلا كالم يزل في الصالحات بدا
ولا أصابكأ أحداث دهركا
ولا انمحت عنك يا مولاي غانية
ومن قول أبي الرقعمق :

إن يعقوب قد أقاد وأتقى
سل سيفاً من البصيرة والرا
بأذلا للعزير دون حماء
ما رأينا قط إلا رأينا
ورأينا قرما ككيرا هماما
وأعاد الندى وأغنى الضعيفا
ي فأغناه أن يسل السيوقا
مهجة حرة ورأيا حصيفا
خلقنا طامرا وفضلا شريفا
منعنا مفضلا رحيا وموقا (١)

ووجد بين شعراء مصر في ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس .
ويحدثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا يعقوب بن كلس .
وهجا كاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني بقوله :

قل لابي نصر صاحب القصر
انقض عن الملك للوزير قفز
واعط أو امنع ولا تخف أحدا
زليس يترى ماذا يراد به
والمسأني لنقض ذا الأمر
منه بحسن التثناء والذكر
فصاحب القصر ليس في القصر
وهو إذا ما درى فما يدري

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزيز وأثنى عليه الشعر ، فقال له : هذا شيء
اشركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفوة عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا
وعرض بالفضل القائد :

تصر فالتصر دين حق عليه . زمامنا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وصل ما سوام فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل
فشكاه يعقوب إلى العزيز فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه . فعفا عنه ، ثم

دخل الوزير على العزيز فقال له : لم يبق للعفو عن هذا معنى وفيه غض
من السياسة وتقض لمهبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج
تديعك وسبك بقوله :

زبارجي نديم وكلس وزير
نعم على قدر الكفاي يصلح الساجور

فغضب العزيز على هذا الشاعر وأمر بالقبض عليه ، ثم بدا للعزيز إطلاقه
فأرسل يستدعيه ، وكان للوزير عين في القصر فأخبره بذلك ، فأمر بقتل
الشاعر ، فقتل (١)

ومكثا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أنصار ومحبون . وقد حرز
الناس حين ابتدأت علة في الحادي والعشرين من شوال سنة ٣٨٠ هـ ونزل
إليه العزيز بالله يعبده وقال : « وددت أنك تباع فأبتاعك بمالي أو تصدى
فأفديك بولدي » (٢) . وتوفي يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خلون من
ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشيعه إلى
مقره الأخير ، وخرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه
وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه وأقام ثلاثا لا يأكل على مائدته ولا
يحضرها من عاداته الحضور ، وأقام الناس عند قبر الوزير شهراً ، وغدا الشعراء
إلى قبره فقرأه مائة شاعر أجزوا كلهم . فهذا كاه يدل على أنه كان للوزير
مكانة في نفس إمامه وفي نفوس معاصريه جميعاً ، وذلك لما عرف عنه
من إنصافه وكرمه وعلمه ، وما أظهره من شدة تمسكه بأهداب الدين الإسلامي
على منهب القوم .

٣ - التوبيد في الدين داعي الدعوة (٣)

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ (٢) المقرئ ج ٣ ص ٩

(٣) راجع « ديوان التوبيد داعي الدعوة » وكتاب « السيرة المؤيدية » - طبع شركة
الكتاب المصري .

عن هذا العالم الذي بلغت علوم الدعوة البروة على يديه ، ذلك هو المؤيد في الدين داعي الدعوة الذي عرف في تاريخ الأدب العربي بمناظرته مع أبي العلاء المعري في تحريم أكل اللحم ، والذي أراد الأستاذ مرجوليوت المستشرق الإنجليزي أن يعرف شيئاً عن حياته فخافه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ، فعلى الرغم من أن المؤيد لم يكن مصري المولد والنشأة فقد وفد على مصر ، وأقام بها زهاء ثلاثين عاماً ، واستمع له جمهرة من المصريين ، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر في الحياة العقلية المصرية بمبادئه التي كان ينادي بها ، وفي مصر أخذ عنه ملك بن مالك قاضي الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالاستاذية في علوم الدعوة ، وفي مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه ، وألقى بحالسه التي بلغت الثمانمائة مجلس ، فلا غرابة أن نتحدث عنه في كتابنا هذا ، وهو كتاب خاص بمصر .

اسمه هبة الله بن أبي عمران موسى بن دارد الشيرازي ، ولد بشيراز في العشر الأخير من القرن الرابع من الهجرة في أسرة اتخفت العقيدة الفاطمية منها لها ، وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمي ، فنشأ ابنه هبة الله ليأخذ مكاتبه في الدعوة في هذا الإقليم ، وأخذ منذ نشأته بالإمام بكل شيء يخص الدعوة وأسرارها ، وكان الحاكم بأمر الله بأن يولي ابنه هبة الله أمر فارس من بعده ، وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه ، وما لبث أن أصبح يملك نفوس أتباعه فاتقادوا له الاقياد كله ، فكانوا يفشون إليه أسرارهم الخاصة حتى مع أهل بيتهم ، ويضحون في سبيله بأرواحهم ، وكثر أتباعه حتى شئى السلطان أبو كاليجار البويهى سطوته ونفوذه ، ولم أن ينفيه مراراً من شيراز ، ولكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد ، وبلغت كراهية السلطان أبي كاليجار للمؤيد أنه كان يكره سماع اسمه في مجالسه ، ولكن المؤيد في الدين احتال حتى استطاع أن يتصل بأبي كاليجار ، وأن يجعل السلطان يستمع إليه وأن يعقد مجالس المناظرة بين المؤيد وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ؛ فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظره

فاضطر السلطان أمام قوة بيانه ودافع حجته إلى أن يخضع للمؤيد . بل لأن يدخل في دعوته وأن يعقد مجلسا خاصا يلتقي فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل البيت والفقهاء الفاطميين من كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان . كان ذلك كله سببا في غضب جمهور أهل السنة في فارس ولا سيما القضاة والعلماء ، فأخذوا يوغرون صدور المقرئين من أبي كاليبجار وندمائه على المؤيد ، واتهموا بفرصة واتهموا بالإيقاع به ، ذلك أن المؤيد زار أتباعه في مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت جدرانته فأمر شيعة بتجديده وقش على محرابه بالنهب أسماء الأئمة الفاطميين وطلب من قبائه الأذان فيه ، يحيى على خير العمل ، أذان الشيعة ، وخطب يوم الجمعة باسم المستنصر الفاطمي ، فحمر بالدعوة الفاطمية دون خشية وأعلن عصيانه في بلد يدين للعباسيين ، مما جعل قاضي الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد ينعي الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد في الدين كما تار أهل السنة على أبي كاليبجار وجاء الوزير العباسي ابن المنلة مرفداً من قبل العباسيين للقبض على المؤيد ، وكان أبو كاليبجار إذ ذاك يرثي إلى ملك بغداد ، فكان بين عاملين إما ضياع هذه الفرصة من يده في سبيل رعاية ذمة المؤيد ، وإما أن يضحى بالمؤيد في سبيل أطباعه . وأدرك المؤيد تردد أبي كاليبجار في هذا الأمر ، ولا سيما بعد أن قطع السلطان مجامسه الليلية مع المؤيد ، ورغبته عن لقائه ، فلم يجد المؤيد بداً من الزواج عن وطنه . فسار مخفياً متجنباً الطرق العامة ، سالكاً البراري والقفار حتى وصل إلى مصر سنة ٣٧٤ هـ . جاء مصر يمدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاء وسلطان وتوفير ، لأنه خدم دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله ، وظام بأمرها حتى قيام ، ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد إمامه المستنصر . بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال القسري واليازودي وغيرهما . يصرح المؤيد بذلك في سيرته بقوله . « بلغت بشق النفس الباب الطاهر ، مترجحا بين أمل ويأس ، ومتحبا لمتقى ما يلتقي من طرفي إيمانش وإبناس ، فخأما الأمل فن جهة خدمة ما خدم مثلها غيري ، حداني حاديا ، وفاداني

بالأهل والمرحب مناديا . وأما اليأس فنحيث علمت أن المقصود شمس توارت
بالحجاب ، ووجه نهار تفرقع بالسحاب ، وأن المسافة لعلمها تقذفني من الإضاعة
في يم . وتوويني من حيث أرادت غنما إلى غرم . . . أدخلوني من باب
القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة ، عمرها الله تعالى - فاستلمت على جرى العادة في
مثله الأبواب . ولحمت الأرباب تحت قدمي إذ ترشفت ذاك الزراب ، وأجلسوني
غنيمة لأفين من غشية الهيبة التي ملأت جوانحي ، لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك اللقاء
قلبي وجوارحي ، ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحى - رحمه الله -
فرايت شيخاً عليه من الوقار مسحة ، ومن الإنسانية سمة ، فأدنى وقرب .
وأكرم ورحب . وخرجت فأخذوني إلى دويرة كانت فرشت لي ، هي من
الكرامة في الدرجة الوسطى من الحان ، لا بالإكثار ولا بالإقلال (١) . . .
ومكثنا استقر بمصر واتصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها . ولكن
الوشايات لم تقطع عنه ، والدسائس تحاك حبالها حوله ، فكان يقربه الوزراء
حيناً ويبعدونه حيناً آخر ، فعاش في مصر بين الرضا والغضب ، وكثيراً
ما فكر في الرحيل عن مصر ، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل ، وكان
يأمل أن يولى مرتبة داعي الدعوة ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الإمساك
بها ، وأخيراً عينه الوزير اليازورى رئيساً لديوان الإنشاء ، وزادنى معاشه .
فحسنت حاله ، فظل في هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرل بك التركمانى لامتلاك بغداد .
وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه ، إذ أدرك أن التركمانية خطر على
الدولة الفاطمية وأنه إذا تم أمر بغداد لطغرل بك فإنه لا يثنى عن عمارية أملاك
الفاطميين في بلاد الشام وأعلى الجزيرة ، فأسرع المؤيد في درء هذا الخطر عن
أملاك إمامه ، فكانت رجال طغرل بك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية ، كما
راسل البساسيرى وغيره من رجال العباسيين الذين يعتقدون على التركمانية
ويخشون تملكهم للبلاد ، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوموا
طغرل بك ، أما البساسيرى ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين على حين
لم يستجب رجال طغرل بك ، فأيقن المؤيد أن الحرب لاشك ناشبة بين الفاطميين

(١) السيرة المؤيدية - طبع شركة المطابع المصرية .

حوالتركانية ، فشط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر ل حرب طغرليك ، ووجدت دعوته قبولاً منهم وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال ، وأنفقت الدولة على هذه الحملة أموالاً ذكرها المؤرخون في كتبهم ، وهي الأموال التي أدت إلى ضعف مصر اقتصادياً وجرتها إلى ما عرف بالشدة العظمى ، وطلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري ، فاعتذر المؤيد ، ولكن المستنصر الفاطمي أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب فلم يسع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه . وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمعن في الإباء ، وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة ، حياة الرجل العسكري وحياة السياسي الدامية ، فقد خرج من مصر وليس معه جندي واحد وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربي ، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشاء . ويغريهم جميعاً بالأموال والألقاب من قبل الفاطميين ، فإذا كانت إنجلترا تعرف لأحد أبنائها وهو لورنس ، بخدماته في تأليب العرب على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى ، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطورته ، فكيف ينسى المصريون المؤيد في الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين ، بل ماأداه من نشر الدعوة الفاطمية في بلاد لم تذكر الدعوة فيها من قبل ، وفي إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة وسلطانها . لقد وصف لنا المؤيد في سيرته حركاته ومكاتباته مع أمراء العرب . وكيف استسلم جميعاً للنهوض معه في حرب التركية ومساعدته في طردم من العراق ، حتى تكاثر الانتصار حوله ، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر ، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن ينتصر على طغرليك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن حيوس في قصيدة منها :

عجبت لمدعي الآفاق ماكما وغايته يخذاد الرصود

وبهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر ، ولكن جموعه كانت تضم نفوساً متباغضة متشاحنة فرعان مآذب بينها التفور

وحل الشقاق وتفرق عنه أكثر الأسماء حسداً منهم لمن قريهم المؤيد إليه
ووصف المؤيد حالهم بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهاوش . . . وكان
يحاول تهديتهم وإصلاح ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغرليك بحالهم فأسرع إليهم
وهزمهم ، وكان المؤيد إذ ذاك في الرحبة ، فاصطنع الصبر والثبات وأخذ يبحث
من تفرقوا عنه إلى الرجوع إليه ويهدم ويمنيهم . . . ولكنها كانت صيحة
في واد ، ونخس أن يدركه العدو وهو حي ، فأثر أن ينسحب إلى حلب واتخذها
مقراً لقيادته ، وكانت حلب في يد المرداسيين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ،
فأزال المؤيد بهم حتى سلوا بدم إلى الوالي الذي أرسله المستنصر الفاطمي ،
وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بإبراهيم بن ينال وأغراه أن يخالف طغرليك
ورعده بالتقريب والمخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة ناجحة إذ انفصل إبراهيم
ابن ينال عن جيوش طغرليك وخرج هذا لمحاربتة فتهم المؤيد هذه الفرصة ،
وأمر البساسيري بالسير إلى بغداد فتم له ذلك سنة ٤٥٠ هـ ودعى على منابرها
باسم المستنصر الفاطمي لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر امتعوا لنصائح المؤيد
لتغير وجه التاريخ الإسلامي ، ولكنها هذه الحركة سبياً في بحر الخلافة
العباسية منذ دخلت جيوش البساسيري بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن المؤيد عاد
إلى مصر دون أن يحفل به أحد ، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم ينفخ فيها
بوق واحد ولم يفرح فيها طبل واحد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير
في مصر إذ ذاك هو الوزير المغربي الذي لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده
وأبائه . وهكذا أصاح وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التي مياها لهم
المؤيد بدهائه وسياسه .

عاد المؤيد إلى مصر فولى مرتبة داعي الدعوة ، وبذلك أصبح في المرتبة التي شق
بالتطلع إليها ردحا طويلا من الزمان ، ولكنه لم يمك في تلك المرتبة طويلا
إذ نخس الوزراء مكاته وتفوزده وسلطانه فنتى مرة من مصر ثم أجد إليها
وولى مرتبة الدعوة . ثم عزل عنها وولى ديوان الإنشاء مرة ثانية . وهكذا
عاش حتى توفي سنة ٤٧٠ هـ بالقاهرة ودفن في دار العلم بجوار القصر ، وصلى عليه
الإمام المستنصر نفسه .

كان المؤيد في الدين من أكبر علماء عصره ، وتدلنا كتبه التي وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملماً إماماً تاماً بجميع العلوم التي عرفت في العالم الإسلامي إذاك ، قوى الحججة في مناظراته وجداله مع مخالفيه ، وقد صدق أبو العلاء المعري حين وصفه بقوله : «سيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، مازالت حجته باهرة ودولته عالية . . . ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفخمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه»^(١) ويكفي أن تنظر إلى مناظرات المؤيد مع المعري لتدرك كيف كان شيخ المعرة يهرب من هذه المناظرة ، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحجته مع فصاحة بيانه فاعترف له بالتفوق في الجدل ، وأنه ورث علم الأولين .

وضع المؤيد في الدين عدة كتب أهمها :

١ - المجالس المؤيدية وهو أكبر كتاب وصل إلينا في الدعوة الفاطمية إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التي كان يلقيها المؤيد ، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد . ويعد هذا الكتاب من أقوى الكتب عند طائفة البهرة ولا يقربه إلا من لمع مرتبة خاصة من مراتب دعوتهم . وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدي الداعي اليمنى هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب حسب موضوعاته ، وسمى الكتاب «جامع الحقائق» وإذا نظرنا في كتب الدعوة لدعاة اليمن ، نرى أن جميع الدعاة كانوا يقتطفون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم ، فهو موسوعة في علوم الدعوة الفاطمية وفي هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد وردة على المخالفين .

٢ - ديوان المؤيد في الدين : كان المؤيد شعراً كما كان أديباً وعالماً وقد وصل إلينا ديوانه فإذا به مجموعة من قصائده التي أنشدها في مدح الأئمة . وفي هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد ووصف أحواله وإشارات

(١) انظر الرسالة الثانية من الرسائل التي دارب بين المؤيد والدين وأبي العلاء المعري
ومجم الأدباء، ج ٣ ص ٢٠٢ طبعة دار المأمون .

إلى جهوده ، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها ، وطبع هذا الديوان بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

٣ - السيرة المؤيدية ، ولعل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخي يفصل لنا لحياة السياسية والاجتماعية في فارس والعراق ومصر في المدة من سنة 3٢٩ حتى سنة ٤٥٠ كما يعد سجلا للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب ، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التي عرفت في التاريخ باسم ثورة البساسيري ، وكذلك لم أجد كتابا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة كما تحدث عنها المؤيد ، ولا غرو في ذلك إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومديرها والمشرّف عليها . وقد طبع هذا الكتاب بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

والمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير ، وكتاب الابتداء والاقتمام وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والجواب ، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان وهو في تأويل قصص الأنبياء .

ويعتبر المؤيد أستاذ الدعوة في اليمن والهند ، فمنه أخذ القاضي ملك بن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن يلقي على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد . كما يعد أستاذ ناصر خسرو الشاعر الفارسي المعروف ، فقد ذكره ناصر في أشعاره ووصف مجالسه ، وهكذا كان للمؤيد أثر في الحياة السياسية والعقلية والأدبية .

الباب الثاني

في الحياة العلمية

بعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لسكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم .

وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للشتغلين بالعلم حتى يتيا لهم التفرغ لما أعلوا أنفسهم له ، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء أسبق مما عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفهم حقهم ، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولاً ، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن الكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطلعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون ، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع إمامه المعز يقول : **«إنا لنسرى بمن نراه من أولياتنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسر بذلك في الولد»** (١) ففي ظل هؤلاء الأئمة ، وعلى ضوء ما ذكره الإمام المعز ، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف .

ويذكر المؤرخون حثداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير ، فيحدثنا ابن أبي أصيبعة أنه لما وصل المهذب بن النقاش — وكان فاضلاً في صناعة الطب — إلى الشام

(١) المجالس والمساربات (ورقة ١٤٦) .

من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفائته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصد من لاسيا من أرباب العلم والفضل ، فتوجه إلى مصر واتصل بالقاضي الأجل السيد أبي المنصور عبد الله بن الشيخ السيد أبي الحسن علي فوهب له الأموال وأقام في مصر مكرماً^(١) . ونزود ما ذكره المؤرخون عن القاضي عبد الوهاب بن علي أحد فقهاء المالكية المجتهدين في المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد : « لم أرفق المالكية أفقه منه ، إذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد ، وأكرمه المصريون على الرغم من تمذهبه بمذهب يخالف مأم عليه ، حتى تمون وحسنت حاله جداً . ولكن أدركه المرض ، وكان يقول وهو في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متاً ، وتوفى بمصر سنة ٤٢٢ هـ وسنذكر غير هذين العالمين في الفصول التالية .

فالقاهرة المعزية أصبحت مطمح أنظار العلماء ومحط رحال الطلاب . وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تتزعزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية ، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى ، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينتمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها . وأقرب مثل تقدمه فنلك هو الإمام الغزالي ، فقد هاجم الفاطميين في كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه ، ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته ووضع كتابه مشكاة الأنوار متأثراً ببعض العقائد الفاطمية ، ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول .

ويحيل إلى أن السبب الذي من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء ، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر في العالم الإسلامي ، واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العتيدة ، ففيدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم . فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن ، وعلم الباطن يقوم على

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢) .

استخدام العقل ومطابقة المحسوس للعقول ، فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذى هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية . وقد أثرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلماؤها على نحو ما رأينا في الباب السابق من هذا الكتاب . فكان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية . إما لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم وإما للرد عليها وتهجين هذه الآراء القديمة ، فمثل ذلك الفاطميون في الوقت الذى كان فيه أهل السنة في البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد ، فالفكر اليونانى وجد ترحيباً من الفاطميين وتوسعوا في دراسته ، وقد لاحظ المستشرق أولبرى ذلك فقال : « إن الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكانتها في جو مشبع بالفكر الهليني ، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية^(١) . وسنرى في الفصل التالى مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية واصطناعهم لكل من عرف بالاشتغال بفروع من فروع الفلسفة ، فقد قيل : إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر^(٢) ، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجلب ، وكتب الوزير الفلاحى إلى والى حلب وأعمالها بجمل أبي العلاء المعرى إلى مصر لينبئ له دار علم يكون متقدماً فيها ، وسمح بخراج معرة النيمان له في حياته وبعده وإن والى حلب سار إلى معرة النيمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ السجل عليه فاستمعه ، وكتب إلى الوزير الفلاحى يستغفبه من ذلك فأعفاه . وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتقدوا بذهبهم ، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية ، فأبو الفتح منصور بن مقرن كان طيباً للعزيز والحاكم بأمر الله ومن المقربين إليهما ، وبعد وفاته استطب الحاكم إسماعيل بن إبراهيم ابن نسطاس وهما من أهل النعمة ، ولكن الفاطميين أخذوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخلع والألقاب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم .

(١) O'Leary : Hist. of the Fatimid Khalifate] P. 140 (London 1923)

(٢) أخبار الحركة العقلية من ١٠٥

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويمجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف التف عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة وأخذوا عنهم علوم الدعوة ، فنستطيع إذن أن ندرك في سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر في مصر حسب بل أثرت في جميع البلاد الإسلامية ، وتبع ذلك أن الآراء اليونانية وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية وهي التي صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية قد انتشرت في العالم الإسلامي على أيدي دعاة الفاطميين . وإذا درسنا الحياة العقائدية في العالم الإسلامي في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه الآراء التي بثها دعاة الفاطميين ، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة ، فابن حوقل كان متشعباً لهم حتى قيل : إنه من دعواتهم ، والفارابي مثلاً في حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ، ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد^(١) ، وابن سينا قيل : إنه إسماعيلي المذهب وإن أباه كان أحد دعواتهم فنشأ متأثراً بعقائدهم ، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم ازدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يرأس الخليفة الفاطمي ، وظهرت في رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم . وابن الهيثم كان متصلاً بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كتفه ، وأبو العلاء المعري حكيم المعرة كان متأثراً تأثراً تاماً بهذه الآراء التي كانت تحيط به ، فقد امتد ظل الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم ، فقرأ في أشعار أبي العلاء وكتابه كثيراً من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر ، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى فينبسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصاييح وكتاب الهادي والمستهدى وكتاب الأقوال

(١) راجع ما ذكرناه في كتاب راحة العقل في المقارنة بين رأى الإسماعيليين ورأى الفارابي

الذمبية وغيرها التي تدل على أن الكرمانى فيلوف ناضج التفكير ، وأنه متأثر بما أخذ من فلسفة اليونان وغيرها (١) ، وتذكر المؤيد في الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها . وهكذا نستطيع أن نتبع كثيراً من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وكان لهم فضل قريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين ، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة .

ولم ينس الفاطميون العلوم العربية الخالصة ، بل وجهوا إليها اهتماماً ملحوظاً وعناية خاصة ، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب للناظرية بين يديه ، ورأينا أثر يعقوب بن كلس في نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ومحدثنا عمارة النخعي أن مجالس الوزير الصالح بن رزيق لم تكن تنقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته (٢) . فكانت هذه العناية الخاصة التي وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سبباً في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية ، وفي أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف الفنون والعلوم .

حقيقة كان علماء مصر في ذلك العصر يشرحون أو ينقدون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم في هذه العلوم العربية . ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقوهم ، ولكن ليس ذلك بغريب فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذا تم تكوينها ووضع قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلاً أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها ، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة ، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم . هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة ، وهذا ما حدث أيضاً للمسلمين في جميع الانقطار الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وفنونه ، وبعد أن صيغت

(١) راجع كتاب راحة العقل (من موضوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند) .

(٢) دكتور المصرية ص ٨ .

القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب ، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم مرت بها مصر الفاطمية بل هرت بها جميع الأقطار الإسلامية ، بل أستطيع أن أقول : إننا لا تزال نعيش على هذه الأصول القديمة ، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن ، قواعد اللغة التي دونها سيبويه وأصول الصرف كما تركه ابن جنى وعروض الخليل بن أحمد وأصول الفقه كما دونه الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن ، على الرغم من أن عدداً كبيراً من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلاً يلائم حياتنا الحديثة ، ولكن لا تزال السيطرة للقديم ، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه .

فعل الرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التي تحتاج إلى مجلد ضخم لسرد أسمائها . وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمي للعصور التي نلت عصر الفاطميين . فإن هذه الكتب الكثيرة ولا سيما ما كان منها في العلوم العربية لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر ، إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التي تحدثت عن مصر . ففي هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يتأثروا بما حولهم وأن يظهروا شيئاً مصرياً لا يستطيع غير المصريين أن يأتوا به .

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر في كتب العلماء المصريين في العلوم العربية ، ذلك هو رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلباً للعلم ، فمصر بموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب وطريق الغرب إلى الأراضى المقدسة ، هذا الموقع الجغرافي جعل مصر مركزاً هاماً لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التعرّيج على مصر في رحيلهم لتأدية فريضة الحج . أو في رحيلهم لطلب العلم في العراق وفارس ، وتطول مدة إقامتهم في مصر أو قصر يأخذون عن علماء مصر أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم فتتلاقح الآراء وتتمزج وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسي ومصري ومغربي

وصقل ، ولا تظهر الشخصية الإقليمية في هذا النحو من العلم ، وكذلك نقول عن علماء مصر الذين رحلوا في طلب العلم من الأقطار الأخرى وعلماء الأقطار الأخرى الذين رحلوا في طلب العلم أو للتعليم في مصر ، فهذه الرحلات الكثيرة كانت سبباً في ألا تتمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار ، حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشاركة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم . أما من الناحية الموضوعية للكتب فمن الصعب العسير أن نصل إلى نتيجة يطمئن إليها الباحث . والأقطار العربية التي كانت تتنازع فيما بينها في السياسة والمذهب الديني ، وتنشب فيها الحروب المختلفة ، كانت تربطها وتوحدتها هذه الحياة العلمية ، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علومها واحدة لا فرق بين قطر وقطر ، ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخالصة والعلوم الإسلامية ، وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية أن تم وحدتها في مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجدهم القديم بهذه الوحدة التي لن تنضم بمعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية .

الفصل الأول

العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى . والتي تضمنها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور ، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذه اللقب إلا إذا ألم بها جميعاً ، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتميز الإلهيات من الطبيعيات . فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون . بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب ، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزير والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث . ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لادعائهم معرفة الغيب . ويروي المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . كما يروون بعض الأشعار كان يتمك بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب ، من ذلك ما روى أن العزير بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب الباطنة

وتضيف الرواية أن العزير بالله ألقع عن ادعائه الغيب بعد ذلك ، ويروي ابن ميسر في تاريخه أن النيل زاد وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة ، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والاعتطاع ، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتاباً فإذا فيه : إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد ، ثم قال : هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا

وأحوال دولتنا وما يأتي بعدها^(١) فإن صحت هذه الرواية فهي تؤيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وبين يدي الآن كتاب « الفترات والقراءات » المنسوب إلى جعفر بن منصور اليمن من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري - ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه - يتحدث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد ويقتبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة . وذهب مؤلفه إلى أن علم القراءات أو علم الجفر علم خص الله سبحانه به آدم عليه السلام وورثه آدم وصيه شيك ، وتداولته الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والنقباء المتوحدنين بالتأييد^(٢) ، ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول : « لو تبيت لي وسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقانهم ، ولولا أن يقال : إن ابن أبي طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة بما علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) ، فهذا كله يؤيد ما قيل عن الفاطميين إنهم كانوا يدعون الغيب وإنهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب . ولكن بجانب هذه النصوص التي ثبتت ذلك نجد نصوصاً أخرى ثبتت عكسها ، فالقاضي النعمان يحدثنا في كتابه المجالس والمسائرات : « ذكر الإمام المعز لدين الله يوماً ، وأنا بين يديه ، النجامة والمنجمين . فقال : من نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جهل ذكره ، وما في ذلك من الدلائل على توحيد الله لا شريك له ، فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والتعصا بما يكون فقد أساء وأخطأ . وقد كان المنصور باقاً من أعلم الناس بها ، وقد قال لي غير مرة : « والله ما نظرت فيها إلا طلباً لعلم توحيد الله وتأثير قدرته وعجائب خلقه ، وقد عانيت من الحروب وغيرها فاهملت في شيء من ذلك باختبار مني

(١) أخبار مصر لابن ميسر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والقريري ج ١ ص ٩٧ .

(٢) كتاب الفترات والقراءات ورقة ٢ نسخة بمكتبي الخاصة .

(٣) المجالس المؤيدية والفترات والقراءات ص ٥٧ والسيرة المؤيدية في القصيدة المسعفة .

(٧ أدب مصر)

دلائل النجوم ولا التفت إليه ، ثم قال المعز : أتاني بعض المنجمين بكتاب ألفه يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل ، وما دلت عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه ، ورأى أنه أتى في ذلك إلى بفائدة وعلم سبق إليه ، فلما وقفت على كتابه سأله . هل كان قبل آدم شيء ؟ قال : نعم قد كان قبله ، ومن كان ؟ وكيف كانت هذه الكواكب قبل ذلك وما دلت عليه قبل خلق آدم ؟ فلم يجر جوابا ، وقال : هذا شيء ما ظننت أني أسأل عنه ، قلت : وهذا الذي تكلفته وجئت به ما سألت عنه أيضا فكيف تكلفته ؛ فصجبت من قوم يتهمون فيما لا يعلمون ويتعاطون مالا يدرون (١) فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعي الغيب ، ولم يدرس الكواكب وحركاتها لعلم ما كان وما سيكون ، ويقول جعفر بن منصور الأمين في كتابه الكشف : « قال الله تعالى : قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك . وهذا قول نوح عليه السلام الذي ذكر الله في كتابه عنه ، وكل هذا دليل على أن الأئمة والرسل لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأيينه ونوره وثبته عن الله جل ذكره (٢) ، فهذا دليل آخر قدمه في دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب .

وقال القاضي النعمان في كتابه المهمة : « فإننا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطونون الصادون عن أولياء الله الدافعون لإمامتهم الراجعون أنهم يعلمون غيب الله وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذي تفرد بعلم ذلك دون خلقه ، ولم يطلع على ما شاء منه إلا من ارتضى من رسله ، وإنما أراد هؤلاء الفسقة . بما نسبوه إلى الأئمة صلوات الله عليهم من ذلك دفع إمامتهم لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب والناس يرونهم لا يعلمون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لم يكونوا أئمة عند أولئك الفسقة ولا عند من قبل منهم ، إذ لم تكن تلك الصفة التي وصفهم بها منهم (٣) . ولعل سبب هذا الادعاء هو

(١) المجالس والمسارير ورقة ٩٢ ب .

(٢) كتاب الكشف لـ جعفر بن منصور الأمين (نسخة خطية بمكتبي) .

(٣) كتاب المهمة في أدب اتباع الأئمة (طبع دار الفكر العربي) ص ٤٠

تطرف بعض الدعاة في إسباغ جميع الفضائل على الأئمة حتى جعلوا أئمتهم
يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس في هذا الأمر مصدر جدل بين
المصريين ، وصور لنا الأمير تميم في إحدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب
أخاه الإمام العزيز بالله :

ولما اختلفنا في النجوم وعليها وفي أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ومن مكتر فيها الجدل ولا يندى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس ونعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلينا تأويل ذلك كله بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلنا وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كامن بما قال والكمان من شيعه الكفر
وأن جميع الكافرين مصيرهم إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتا بعد اختلاف ومرية وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يحل ظلام الشك عن كل ذي فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة في بروجها تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علت منه الأئمة إنما روه عن المختار جدم الطهر (١)

وإذن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب فإن
هؤلاء المؤرخين استقروا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة ولم
يحققوا الأمر تحقيقاً علمياً ، قصيدة الأمير تميم وأقوال علماء الدعوة تنبئ ما جاء
به المؤرخون وتبرئ الفاطميين من ادعاء الغيب .

حقيقة إهم الفاطميون بالنجوم ورصدها ، واستدعى الفاطميون إلى مصر
عدداً كبيراً من المنجمين ، فعندما دخل المزمّلدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن

(١) ديوان الأمير تميم بن العزيز ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبة الخزانة .

عبد الله بن محمد المتقي (١) ، ورفع العزيز باقه منزلة المنجم أبي عبد الله بن القلانسي إلى أن توفي سنة ٣٨٦ (٢) ، وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلاً يرصد فيه النجوم وعمل له منجمه أبو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكمي في أربعة مجلدات ، ويقول ابن خلكان عنه : إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول منه (٣) ويقول القفطي : إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب (٤) وهذا الزيج هو الذي سار عليه منجمو مصر بعده ، ويذهب المقرئ إلى أنه عمل للأفضل بن بدر الجمالي مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة ، وكان منجمو الحضرة يرثون ابن الحلبي وابن الهيثمي وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى في كل شهر ، والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة ، فإذا كان في غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير ، فأنكر ذلك ، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الاختلاف بين التقويم فقالوا : الشامي يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأموني ، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمي لقرب عهده ، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف ، ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد ، وأشار عليه أبو الحسن بن أبي أسامة أن يتولى ذلك القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس للعالم ، ولكن الأفضل غضب على ابن أبي العيش وولى بدله أبا سعيد بن قرقة الطبيب فنشط في إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء

(١) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد المتقي النجم كان متفناً في عدة علوم ، والغالب عليه علم النجوم ، ولما وفد بمصر قريه القاطليون ولم يزل مقرباً إلى أيام العزيز باقه ولكن حدث أن منف كتاباً في التاريخ ذكر فيه بنى أمية وبنى العباس وأشاد بعض عاصمهم وجيل أمثالهم ، وأطلع عليه الوزير بطوب بن كاس فأنهاه إلى العزيز فوجع المتقي على ذلك وجع الوزير الطلاء إلى حاره ودم المتقي أمامهم ، فاضطر المتقي إلى أن يلزم حاره كما سوردت أملاكه وتوفي سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتب في النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع منتهى إلى بعض أيام العزيز ، وكتاب في التوسيم اسم السبب لعلم العرب [راجع أخبار الحكماء لقفطي ص ١٨٧] .

(٢) القفطي ص ٢٦٧ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ . (٤) القفطي ص ١٥٥ .

الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ١٠١٥ هـ بولي الوزارة المأمون البطائحي فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأمون المصحح، واستمر العمل إلى أن قتل الوزير البطائحي سنة ١٠١٨ هـ فوقف العمل به. وكان من المهندسين الذين اشتركوا في إقامة هذا الرصد أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش، وأبو الحسن على بن سليمان بن أيوب، وأبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندراني المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقلى وغيرهم، ومن الحساب والتنجيم ابن الخلبى وابن الهيثمى وأبو النصر تليذ سهلون وابن دياب والقلمى وغيرهم^(١). وكان الخليفة الحافظ مفرما يعلم النجوم وله عدة من المنجمين^(٢)، وما يدل على شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدي وكان من أهل الخبرة بعمل الأصرلاب والحركات: أن الوزير الجرجرائى تقدم سنة ٤٣٥ قاصر بعمل فهرست لخزائن الكتب ويرم ما أخلق من جلودها وأخذ القاضى القضاعى وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك، وحضر ابن السنيدي ليشارك ما يتعلق بصناعته قال: فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس، وكرة أخرى من عمل أبى الحسين الصوفى المالك عند الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشترت بثلاثة آلاف دينار،^(٣) من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللوز من العلم. ولكن الفاطميين لم يكونوا بدعنا فى ذلك كله، فهم ليسوا بأول من رصدوا النجوم، وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلى وتأثير حركات الكواكب فى الأرض، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام وبعد الإسلام فى أوائل قيام الدولة العباسية عنى أبو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم، وترجم له السنخند، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للنجميين رواتب واستشارهم الخلفاء فى أحوالهم الإدارية والسياسية، وليس يعيد عن أنهما قصة فتح عمورية وقصيدة أبى تمام التى مطلعها .

(٢) القرزى ج ٢ ص ٢٤٩ .

(١) للقرزى ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) القلمى ص ٢٨٦ .

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويقول أستاذنا المرحوم كلولو فالينو: إن التنجيم كان له شأن في تصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة، وظل كذلك إلى القرن الماضي فكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم، بيد أنه لا يزال موجوداً في البلاد التي لم تصب من الحضارة الغربية إلا قليلاً (١). فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين في التنجيم والفلك. وقد يكون من أهم الأسباب التي أدت إلى اهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوماً دائماً، ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل رؤية استبصار، فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وخمس يوم وسدس يوم، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام، ولشدة الدقة في هذا التقويم اضطروا إلى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والريجات.

ابن الهيثم

ولعل أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الهيثم وقيل. إنه أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، اتفق المؤرخون على أنه بصرى المولد والنشأة، وإن كانوا لم يذكروا شيئاً من حياته في شبابه، فإن هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض، والتي ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام وطاش في كتف أمير من أمراءها، وأن الأمير أغدق عليه نعمة وصطايها، ولكن ابن الهيثم كان يقول للامير: «يكفيني قوت يومي، وتكفيني جلوية وخادم، فما زاد على قوت يومي إن أمسكت كنت عازنك، وإن أنفقت كنت قهرمانك ووكيلك، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فن القنى

(١) مادة تنجيم في دائرة المعارف الإسلامية.

يستغل بأسرى وعلى ؛ لما قبل بعد ذلك إلا ثقة احتاج إليها لاسا مترسقا (١)
فإن صحت هذه الرواية فهي تدلنا على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف إلى العلم
ورغبة عن المال ، خوفاً من أن يشغله المال عن العلم ، وكان حريصاً على أن يتمسك
بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن طلب الماديات ،
وأين هم العلماء الآن الذين لا يسمعون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم ؟
وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجتهم
الضرورية ، فإن علماء عصرنا مع شديد الأسف يتكالبون على جمع المال بشئ
الطرق والوسائل ، والمقصد يملأ قلب أحدهم إذا أثرى له زميل ، أو ارتفع
قدره ، ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من نطلق عليه لقب عالم يترك العلم
والبحث الجري وراء اقتناء اللور والأراضي ويكترز الأموال ، وهو في غنى
عن ذلك كله إن كان عالماً حقاً قائماً بقناعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق .

ويروى البيهقي قصة تذكرها الآن لعلها تجد عند سادتنا علماء عصرنا رادعاً لهم
عام عليه ، فهي تدل على أن ابن الهيثم لم يأبه للثروة ولم يطلب سوى العلم للعلم ،
تقول القصة : إن أميراً جاء يطلب العلم عليه ، فقال له ابن الهيثم : أطلب منك للتعليم أجرة
وهي مائة دينار في كل شهر ، فبذل ذلك الأمير ما طلبه ابن الهيثم ، وما قصر فيه . وأقام
عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم ، فلما عزم الأمير على الانصراف
إلى دياره ، قال له ابن الهيثم : خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لي إليها وأنت أخرج
إليها من عند عودتك إلى مقر مسكك ، ومسقط رأسك . ولأن قد جربتك بهذه
الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم بذلت مجهودي
في تعليمك وإرشادك . واعلم أن لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير ، ثم
ودعه وانصرف (٢) . وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما في هذه الكلمة
من معان وأوصاف . وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله
الفاطمي ، وقيل : إنه قتل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال : لو كنت بمصر لعلمت في

(١) تاريخ حكاة الإسلام للبيهقي ص ٥١ مخطوطات دار الكتب المصرية .

(٢) البيهقي : تاريخ حكاة الإسلام ص ٥١ وما بعدها نسخة خطية دار الكتب المصرية .

ذيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه
ينحدر من موضع عال وهو في طرف الإقليم المصرى (١) ، فأزداد الحاكم شوقا
إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه ، وأرسل إليه يرغبه في الوفود إليه ، فاستجاب
ابن الهيثم إلى رغبته وخرج الحاكم نفسه للقائه والترحيب به وقربه إليه وأكرمه ،
ثم طلب إليه الحاكم أن ينظر في أصوار النيل عشاء ينفذ ماخطر له وهو بالشام ،
فخرج ابن الهيثم في النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلى أسوان ، ورأى في
طريقه آثار قدماء المصريين فلم أنه لا يستطيع أن يأتي من الأعمال الهندسية ما لم
يبلغ القدماء معرفته ، فأظهر ابن الهيثم عجزه وعاد إلى القاهرة معتذرا إلى الحاكم (٢)
وهذه خصلة أخرى نسجلها لهذا العالم العظيم الخلق الذى خطر له رأى قلنا
كلف بتنفيذه ابن عليه تواضعه العلى إلا أن يعترف بعجزه أمام ما وجدته من فن
القدماء ، ولو لم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لتمادى في مشروعه
ولكلف الدولة آلاف الدنانير ولاستفاد هو أيضا إن كان على نمط علماء عصرنا ،
فأحرانا وقد مضى نحو الفصاحم على وفاة ابن الهيثم أن تتمثل به في قناعته وتواضعه
وهله . وكان من المتوقع أن يغضب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم ، ولكن
الإمام الحاكم حفظ له مكاته وعرف قدر خلقه وعلمه ، فولاه بعض الدراوين ،
وقبل ابن الهيثم العمل رهبة لا رغبة . ثم عاف بعطش الحاكم بعالمه وقلباته مع
من حوله ، فزوات الحاكم وتسرع في إراقة الدماء أو التعذيب أمر عرف به هذا
الإمام ، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يتصنع الجنون والخيال ، فتركه الحاكم في منزله
ويجمل له من يخدمه ويقوم بمصالحه (٣) فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة الحاكم
سنة ٤١١ قاطمان من نزواته على نفسه ، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ،
واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا ، واشتغل بالتصنيف
والتعليم ونسخ الكتب القديمة ، فكان يتعیش من نسخ ثلاثة كتب كل سنة هي
إقليدس والمتوسطات والجسطى ، ويبيعها بمائة وخمسين دينارا هي مؤوته لسنة (٤)

(١) الفضلى ص ١١٤ .

(٢) الفضلى ص ١١٥ .

(٣) الفضلى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩٠ .

(٤) الفضلى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩٠ .

ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالماً متمكناً لعلوم كثيرة فيقول القفطي عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتأليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متمكناً له متمكناً فيه فيما بغوامضه وبعانيه مشاركاً في علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه ،^(١) . ويقول البيهقي : « الحكيم بطليموس الثاني أبو علي بن الهيثم ، كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى^(٢) ، وينهب ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كان متمكناً في العلوم لم يمانه أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه^(٣) . ويقول المستشرق دي بور : نجد في القاهرة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس من الهجرة) رجلاً من أعظم الرياضيين والطبيين في العصور الوسطى هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم^(٤) . وسرد القفطي أسماء سبعة وستين كتاباً من تأليف ابن الهيثم ، أما ابن أبي أصيبعة فذكر له ما يقرب من مائتي كتاب ، خلا رسائل كثيرة ، فقد ألف ابن الهيثم في الهندسة والطبيعات والفلك والحساب والجبر وفي الطب والمنطق والأخلاق ، فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الامة العلمية التي خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكاته في هذه الفنون التي نبغ فيها وعرض لها في مصنفاته ، فالاستاذ مصطفى نظيف بك ، قال : « إن ابن الهيثم غلب الأوضاع القديمة ، وأفضأ علماً جديداً ، هو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان ، وأفضأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التي نراها الآن ، وإن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر ،

(١) القفطي ص ١١٤ .

(٢) تاريخ حكام الإسلام ص ٥١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩ .

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٩٠ ترجمة الدكتور أبو رينة .

قابن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر لليلاد، (١).

وقال الأستاذ محمد رضا مندور وبك: «إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغالياً إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة العلامة أنيشتين في عصرنا هذا» (٢).

ويقول الأستاذ الدكتور مشرقه وباشاء: «المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك إقليدس يلس فيه دقة المؤلف في التفكير وتعقده في البحث واستقلاله في الحكم، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الإقليدية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات». قابن الهيثم في هذا الكتاب رياضي بحث بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل إليه من حدود (٣)، فهذا كله قول مختصين يستطيعون أن يحكموا على مكانة ابن الهيثم في العلوم الرياضية والطبيعية. ولكن ابن الهيثم كان في مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب نصب من أتى بعد الفاطميين، وقد لاحظ الأستاذ ديور إهمال العلماء له فقال: إنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة في الشرق، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء مبشر بن قاتك القاعد (٤) ولكن أرى خلاف ما رآه ديور فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته، ولكن كما قلت كلن التعصب الديني عند الأيوبيين والباسيين قويا حتى إنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية، فكل من اتصل بالفاطميين فهو من زمريهم وكل عالم من علماء مصر الفاطمية متهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه.

(١) الأجنحة الخليلي لذكرى ابن الهيثم - ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) المصدر السابق ص ٤

(٤) تاريخ الفلسفة ص ١٩٤

هذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء .

أما مبشر بن فانك الذى ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم فهو الأمير محمود الفولة أبو الوفاء المبشر بن فانك وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها ، دأب الاشتغال محباً للفضائل والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والانتفاع بما يتسببه من جهتهم ، وكان ممن اجتمع به منهم ، وأخذ عنه كثيراً من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو على محمد بن الهيثم^(١) . ويقول أمية بن أبى الصلت : إنه أدرك أبا الوفاء وأخذ عنه شيئاً من المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه ، وأن أبا الوفاء أدرك أبا كثير بن الرقان تلميذ أبى الحسن على بن وضوان وقرأ بعض كتب جالينوس ، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح بزعمه وفسر ولخص^(٢) . وكان أبو الوفاء أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ . وكان فى أيام الظاهر والمستنصر وله كتاب سيرة المستنصر فى ثلاثة مجلدات ، وله تواليف فى علوم الأوائل ، كما كان حريصاً على اقتناء الكتب لجمع منها ما لا يحصى عنده كثرة^(٣) . ويقول القفطى : إنه قرأ على المبشر فضلاء زمانه فادوا^(٤) . ويذكر من تلاميذه الطيب سلامة بن رحون اليهودى الذى ناظر أمية بن أبى الصلت^(٥) .

ومن الرياضيين الذين كانوا فى هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذى وصفه أمية بقوله : « وله فى فروع النجامة بعض درية ، وتجرباتها بعض خبرة ، وهو شيخ أكابر المنجمين بمصر وكبيرهم الذى علمهم السحر ، لجميعهم إليه منسوب وفى جريدته مكتوب وبفضله معترف ، (٦) . وأبو على المهندس المصرى

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) الرسالة المصرية ص ٧٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧ (طبعة رقاعى) .

(٤) القفطى ص ١٧٦ .

(٥) القفطى ص ١٤٩ وابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ١٠٦ .

(٦) القفطى ص ١٢٧ .

الذي كان قياً بعلم الهندسة ، وكان يعيش في أوائل القرن السادس الهجري ، وكان مع ذلك أديباً شاعراً ، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلاً :

تسم قلبي في محبة معشر بكل فني منهم هواي منوط
كان فؤادي مركز زعم له محيط وأموالي لديه خطوط (١)

وقوله أيضاً :

إقليدس العلم الذي يحوى به ما في السماء معاً وفي الآفاق
تزكو فوائده على إنفاقه يا حبذا ذاك على الإتفاق
هو سلم وكأنا أشكاله درج إلى العلياء للطراق
فرق به النفس الشريفة مرتقى أكرم بذاك المرتقى والراقي (٢)

وظهر في مصر في هذا العصر عدد كبير من الأطباء ، والطب كما نعلم كان في تلك العصر من علوم الفلسفة ، وكثرت في مصر الفاطمية مناظرات الأطباء ومجادلاتهم ، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفاقه وكثرة التأليف حوله ، وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم وعطاياهم خلاف ما أوقفوا لهم من مرقبات شهرية ، فن ذلك ما يروى أن منصور ابن مقشر النصراني طيب العزيز باقه اعتل سنة ٣٨٥ هـ وتأخر عن الركوب مع الإمام ، فلما تماثل من علة كتب إليه العزيز رقعة بخطه نسختها :

بسم الله الرحمن الرحيم .

طيبينا سلمه الله :

سلم الله الطيب وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبنا الله من عافية الطيب وبرته ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة في جسمنا ، فتمم الله عليك النعمة ، ركل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدواً ولا حاسداً ، ورد كيد من يريد الكيد في نحره ، وابتلاه بما لا طاقة له ، بعد كفاية فيك ، وإثباتك العثرة ، ورجوعك إل أفضل ما عودك ،

(١) القنصل ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق .

وصلى الله على خيرته من خلقه محمد النبي وآله وسلم تسليماً (١)

فثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير،
فما بالك إذا صدرت من إمام مسلم إلى طبيبه المسيحي ، فالإمام عرف لطيبه
قدرته في فنه وعلو كعبه في سناعته ، فقربه وانخذه صديقاً ، وكذلك يقال :
إن المعز لدين الله اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار ، وكان طبيباً عالماً
بتركيب الأدوية وطبائع المفردات ، وهو الذي ألف شراب الأصول (٢)

ووفد على مصر في عهد المعز والعزير العالين محمد بن أحمد بن سعيد التميمي
وهو من بيت المقدس ، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الأدوية ، ولحق الأطباء
بمصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في حجة
المعز . والمقيمون بمصر من أهلها . ويقول القفطي : إنه كان منصفاً في مذكراته ،
غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة ، وصنف للوزير يعقوب بن كلس كتاباً
كبيراً في عدة مجلدات سماه : مدة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من
ضرر الأوباء ، . وتوفي التميمي بمصر في حدود سنة ٣٧٠ هـ (٣)

ومن أشهر الأطباء في هذا العصر سلامة بن رحمون أبو الخير اليهودي المصري
الذي قال عنه أمية بن أبي الصلت : « وأبى من رأيت من أطباء مصر وأدخلهم في
عداد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون ، فإنه لقي أبا الوفاء
المبشر بن قاتك وأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه ،
وأدرك الكثير الزقاني تلميذ أبي الحسن بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ،
ثم نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعاً وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية ،
وشرح بزعمه وفسر وخلص ، ولم يكن هنالك في تحصيله وتحقيقه ، بل كان يكثر
كلامه فيفضل ، ويسرع جوابه فيزل (٤) ، وناظره أمية ، ولما كان إجابات سلامه لم
تجد منه قبولاً ، فرماه بسوء التصور والفهم (٥)

واعلم من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان ، ولد بالجيزة

(١) المصدر السابق ص ٢١٩ .

(٢) القفطي ص ٢١٠ .

(٣) القفطي ص ٧٤ و ٧٥ .

(٤) القفطي ص ١٤٢ .

(٥) مصدر السابق .

وكان أبوه تارانا ، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للعلمين وانتقل إلى مدينة مصر وهو في العاشرة لطلب العلم . وبدأ في دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة وهو في الرابعة عشر من عمره ، ولتفقره وحاجته إلى ما يستعين به في الحياة اضطر إلى أن يتكسب بالطب مرة وبالتنجيم مرة أخرى وبالتعليم كذلك . وفي الوقت نفسه كان يواظب على طلب العلم ويجهد في التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سنه حياته ، إذ بدأ يشتهر بالطب ، وكفاء ما كان يكسبه عن طريقه ، بل تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين ، وصار له ذكر حسن في البلاد . وسمع به الحاكم بأمره فاستخدمه وجعله رئيساً على سائر المنطبيين ، فأتسمت حاله ، واقتنى الأملاك في المدينة ، كما ذاع صيته في البلاد الإسلامية ، حتى إن الأطباء فيها كانوا يناظرونه مراسلة ، ويطلبون ما عنده من علم الطب ، فمن راسله الطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف بالبيرودى الدمشقى الذى راسل ابن رضوان وغيره من الأطباء المصريين . ويقول ابن أبى أصيبعة عنه : وله مسائل عدة لإيهم طبية ومباحثات دقيقة ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً جداً من كتب الطب ، ولا سيما من كتاب حاليوس وشروحيها وجوامعها (١) . ويفهم من إحدى رسائل ابن رضوان أن البيرودى زار مصر ، وكان كثير الاختلاط به للمناظرة والمناقشة في المسائل الطبية (٢) . كذلك ناظره الطبيب أبو الحسن المختار بن الحسن المعروف بابن بطلان النصرانى البغدادى ، فكان بين الطبيب المصرى والطبيب البغدادى مراسلات عجيبة ، ولم يكن أحد منهما يؤلف كتاباً ولا يتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه . ثم رأى ابن بطلان البغدادى أن يفتد على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان ، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطبيبين ، وخرج ابن بطلان من مصر حوزع كتاباً تضمن الوقائع التى كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان ورد

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) خمس رسائل لابن بطلان البغدادى وابن رضوان المصرى ص ٤٣ (مطبوعات كلية

ابن رضوان عليه (١) ويقول ابن أبي أصيبعة في الموازنة بين الطيبين
ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي : كان ابن بطلان أعذب لفظا
وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم
بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها (٢) . وحفظ لنا خمس رسائل لهُذين الطيبين
في المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وكان ابن رضوان معتزاً بعلمه ومهارته في فنه فكان يرد على جميع أطباء
عصره وغيرهم ، وكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء ، وكانت عنده
سفاهة في بيئه وتشنيع على من يريد مناقشته ، وأكبر ذلك عندما كان يرد على
حنين بن إسحق وعلى أبي الفرج بن العليب أستاذ ابن بطلان ، وعلى أبي بكر
محمد بن زكريا الرازي (٣) وكان ابن رضوان دميم الخلق مشوه الصورة أسود
اللون . ومن تأليفه مقالة في من غيره بجمع الخلق ، وبين في هذه الرسالة أن
الطيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه ، وكثيرا ما كان ابن بطلان
البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصري حتى إنه قال في الرسالة
التي وسماها بوقعة الأطباء ، يصف ابن رضوان :

فما تبسدى للفواويل وجهه نكمن على أعقابهم من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

وكان يلقيه بتمساح لجان لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه (٤) .
وتغير عقل ابن رضوان في أواخر أيام حياته ، وقيل: إن السبب في ذلك أنه
في إبان المحنة العظمى التي حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمي والتي اشتدت
وعظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان ابن رضوان قد أخذ يتيمة رباها
كبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلالها المنزل ، وكان قد ادخر أشياء نفيسة
من الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على
خير ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت ، وتوفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ،
وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب .

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٢) عيون الأنباء ج ١ ص ٢٤٢ .

(٣) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٢ .

كان لابن رضوان أثر كبير في الحياة العقلية بمصر فهذه المناظرات الكثيرة التي كانت بينه وبين غيره من الأطباء ، وهذه الردود المختلفة التي كتبها في الرد على الأطباء السابقين كان لها أثرها في تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه ، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبه ، فن هؤلاء التلاميذ الطبيب الإسرائيلي إفرائيم بن الزقان وأبو كثير بن الحسن بن إسحق ، وكان من الأطباء المشهورين بمصر ، واستخدمه الأئمة ، وكان كثير الاهتمام بجمع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان عنده النساخ يكتبون ، ولهم ما يقوم بكفائتهم منه ، ومن جملة هؤلاء النساخ محمد بن سعيد بن هشام الحجري المعروف بابن ملساة ، وقيل : إن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب من إفرائيم ، فسمع الأفضل بن بدر الجعالي بذلك فأمر بفسخ هذه الصفقة وأن تبقى الكتب في مصر ولا تنتقل إلى بلاد أخرى ، وأمر بسررتها وإضافتها إلى خزنة الأفضل ، وكتب عليها ألقابه ، ويقال ، إن إفرائيم خلف ما يزيد على عشرين ألف مجلد (١) .

وصنف الطبيب أبو جعفر يوسف بن حسداى شرحاً لكتاب الإيمان من كتب أبقراط ، سماه الشرح المأمونى ، نسبة إلى الوزير المأمونى بن البطائنى . ومن هذه الأمثلة التي ذكرناها عن حركة العلوم الطبية في مصر ، نذكر مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين ، وأن مصر استطاعت في هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية في مضمار هذا العلم ، فوجد عليها عدد من الفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : أمية بن أبى الصلت الأندلسى جاء مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن فقاه الأفضل بن بدر الجعالي سنة ٥٠٩ هـ ، وكان أمية عالماً في فنون مختلفة شاعراً خللاً ، وأديباً ممتازاً بجانب علومه الفلسفية ، سجنه الوزير الأفضل فصف ودو بالسجن رسالة العمل بالأصطرلاب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاباً في المنطق ، وآخر سماه الاتصاف في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن إسحق ، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الشافى وسليمان بن الفياض

(١) عيون الأنباء ، ج ٢ ص ١٠٥ (طبعة مصر ١٨٨٢) .

الاسكندراني ، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم ، وستحدث عن أمية في باب
الشعر من هذا الكتاب .

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا في الإلهيات في هذا العصر أحمد حميد
الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى ، ويعرف في الدعوة الإسماعيلية
بـحجة العراقيين ، وقد على مصر في عهد الحاكم بأمر الله . فهو يقول في رسالته :
« مباسم البشارات بالإمام الحاكم » . « فإني لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً ،
والسدة العلوية زائراً ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عيم ، والناس تحت
ابتلاء عظيم » (١) ويخيل إلى أنه وقد على مصر غضب ثورة الدرزي ،
وظل بمصر نحواً من عشر سنوات ، وصنف بها عدة رسائل منها : الرسالة
الكافية ، في الرد على الشريف الهاروني الحسنى ، والرسالة الواعظة في الرد
على الفرغاني ابن الأخرم أحد دعاة الدرزية ، ورسالة مباسم البشارات بالإمام
الحاكم ، ورسالة الصوم ، وغيرها . وإذا قرأنا رسائل الكرمانى وكتبه نجده
يتحدث في الفلسفة الطبيعية والإلهية كما في « راحة العقل » وفي الفلسفة الإلهية
كما في « الرسالة الدرية » ورسالة النظم في مقابلة العوالم ، ورسالة الرضية في
جواب من يقول بجه الجوهر وحدوث الصورة ، والرسالة الحاوية وهي
في البحث عن أيهما أسبق الليل أم النهار . وهكذا ، نجد الكرمانى تحدث
في جميع أقسام الفلسفة ولا سيما في كتابه « راحة العقل » الذي يعد من أقوم
كتب الفلسفة في العصر الفاطمى ، فهو في هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ
الفلسفة اليونانية المصطبغة بالصيغة الإسلامية على المذهب الفاطمى ، وحديثه
عن إبداع العقل الكلى وصفاته وخصائصه ، وانبعث النفس الكلية وصفاتها
وعن العالم الروحاني وعالم الكون والفساد ، يدل على أن الكرمانى كان من أكبر
الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية ، ولا غرو أن كان لهذا الداعى أثره
في تاريخ المذهب الإسماعيلى إلى اليوم ، فكل من جاء بعده أخذ عنه واقتبس
من رسائله وكتبه .

« سبق نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفاسفية ازدهرت في

(١) رسائل الكرمانى (نسخة حلة مكتبة) .

العصر الفاطمي ازدهاراً لا نجد له مثيلاً في الأقطار الإسلامية الأخرى ، بل نجد غير الفاطميين كانوا ينجحون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية ، وأن القائلين بها من العلماء زنادقة ، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقاً في تفكيرهم ، وكان منزههم يقوم على الفلسفة فجمعوا إليهم علماءها ، وعقدوا مجالس المناظرات بينهم ، فازدهرت بذلك الحركة العلمية ، وقوى البحث للوصول إلى معرفة الحقيقة ، مستعينين بالمنطق وآراء الفلاسفة الأقدمين .

الفصل الثاني

علوم اللغة العربية والفقه

١ - علوم اللغة والنحو :

بجانب هذه الدراسات الفلسفية التي ازدهرت بمصر الفاطمية ، كان هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو ، ورواية للأدب القديم وشرحه وتقدمه ، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر ، وكان هؤلاء العلماء كعبة يفتد إليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر ، فقد ذكرت في كتاب « أدب مصر الإسلامية » ، أن هذه العلوم وجدت في مصر منذ بدأ المسلمون في مصر يقرءون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ، ويهتمون بإعجامة على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي وعبد الله بن أبي إسحق ، حتى إذا دون علم النحو وظهر كتاب سيديويه ونحو الكوفة والبصرة ، أقبل المصريون على الأخذ عنهم ، واطرد نحو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر وقاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس ، وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والمصور التي تلتها ، وكثر العلماء الذين اقتطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به . وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات ويحبسون المرئيات للعلماء ، وكيف حرصوا على اقتناء المكتب اللغوية والنحوية وجعلوها مع غيرها من المكتب بين يدي العلماء والمتعلمين ، فلا غرو أن رأينا عدداً كبيراً ينبغون في هذه العلوم ، ويصنفون كتباً كثيرة في هذه الفنون ، ويكفي أن نلقي نظرة على كتب التراجم لتندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات ، وكيف تضاعف عدد الكتب التي ألقت فيها . وكما كان الفلاسفة يهتمون للباحثة والمذاكرة في فنونهم ، كذلك فعل

علماء النحو واللغة ، فقد قيل : إن جنادة الهروي والحافظ عبد الفنى بن سعيد ، وأبا إسحق علي بن سليمان المعري النحوى ، كانوا يجتمعون فى دار العلم بالقاهرة ، وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات (١) . ويبلغ من اهتمام الفاطميين بعلوم اللغة والنحو أنهم جعلوا فى ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل . حتى لا يظهر فى كتابات الكتاب لحن فى اللغة أو خطأ فى النحو . وستتحدث عن ذلك فى باب الكتابة الفنية .

ومن أشهر العلماء الذين ظهرُوا فى هذا العصر ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى المعروف بالقزاز النحوى ، كان فى خدمة العزيز بالله الفاطمى ، ويقال : إن العزيز تقدم إليه أن يؤلف كتاباً يجمع فيه سائر الحروف التى أشار إليها النحويون فى قولهم : إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه إلى ذكر الحرف الذى جاء لمعنى . وأن يحوى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة ، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب ، فبلغ جملة ما جمعه ألف ورقة . ويروى ابن خلكان عن أبى على الحسن بن رشيق فى كتاب الأتموزج : أن القزاز فضع المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرين ، وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوباً عند العامة ، قليل الخوض إلا فى علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكاً شديداً (٢) . ولأبى عبد الله القزاز كتاب الجامع فى اللغة ، وهو من الكتب المختارة المشهورة ، ونوفى سنة اثنتى عشرة وأربعمئة بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر فى العصر الفاطمى . على بن أحمد المهلبى ، فقد كان إماماً فى النحو واللغة ، ورواية الأخبار وتفسير الأشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقرين إليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقرباً إلى كافور الأخشيدى ومن عصر المتنبى فى مصر ، وكانت بينه وبين المتنبى بعض محاورات عليه . يروى ياقوت أن المهلبى قال : وقع بينى وبين المتنبى فى قول العدوانى :

يا عمرو لا تدع شتى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

(١) لغة نون ، المصدر من ٢٠٠ (٢) ابن خلكان ، ص ١٠٠

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون في هذا البيت ، والصواب اشتقوني
من شقات الرأس بالمشقة وهو المشط . فقلت له : أخطأت في وجوه : أحدها
أنه لم يرو كذلك . والآخر أنه يقال شقات بالهمزة ، وأيضاً فإني أظنك
لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول في الهامة . إنها إذا لم يثار بصاحبها
لا تزال تقول : اسقوني ، فإذا ثاروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم (١) .

والمهلبى كتاب في الرد على كتاب المقصور والمدود لابن ولاد المصري (٢) ،
وقيل : إن المهلبى أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها إلى نفسه . وروى
كثير من المصريين عن المهلبى ، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف
بن يعقوب النجيري وابنه بهزاد وعبد الرحمن بن إسماعيل المروضى نزيل مصر
وغيرهم . وتوفي المهلبى سنة ٢٨٥ هـ (٣) .

ومن أشهر علماء مصر في ذلك العصر أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ
الذى عد إمام عصره في النحو ، وهو أحد الذين عهد إليهم تصحيح رسائل
الكتاب في ديوان الإنشاء ، يروى ابن خلكان : أن الخطيب التبريزى دخل
مصر في عنفوان شبابه وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوى
وغيره علوم اللغة ، ثم عاد إلى بغداد (٤) . ألف من الكتب كتاب المقدمة
المحسنة في فن العربية ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب
المصرية ، وله شرح على هذه المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب
الأصول لابن السراج ، وله في النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النحاة
بعده ، تعليق الفرقة ، ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند
من تصدر موضع ابن بابشاذ في حلقته بجامعة عمرو ، فقد انتقلت إلى تلميذه
عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى اللغوى ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه
أبى محمد عبد الله بن برى النحوى ، ثم بعده إلى أبى الحسين النحوى المنبوز

(١) منجم الأدياء ج ١٢ ص ٢٢٤ (طبعة رفاهى) .

(٢) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .

(٣) راجع بنية الرواة ص ٣٢٨ ومنجم الأدياء ج ١٢ ص ٢٢٤ ، وأبناء الرواة ج ٤

ص ٤٦٤ . (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٣ .

بشوط القيل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أحسن تلاميذه ويعهد إليه بحفظها . وقد اجتهد جماعة من الطلاب في نسخها فلم يتمكنوا من ذلك . وهكذا اتفح الناس بعلم ابن بابشاذ وبتصانيفه ، وقد تزهد في أواخر أيامه ، واستقال من عمله بديوان الإنشاء ، وانقطع في غرفة بجامع عمرو ، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع فزلت قدمه فسقط وأصبح ميتاً في اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة (١) .

ومن لهم أثر يذكر من علماء النحو واللغة ، علي بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي ، لم يكن مصرياً ، ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على علماءها كابن البر أبي بكر الصقلي اللغوي وأمثاله ، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفرنج على تملكها في حدود سنة خمسائة ، فوفد على مصر متخذها وطناً له ، ولقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا في إكرامه وخصه الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدباً لولده في علوم العربية وفنون الأدب ، وقد روى ابن القطاع عن أبي بكر الصقلي كتاب الصحاح للجوهري ، وعن طريق ابن القطاع اشتهرت رواية هذا الكتاب في الآفاق ، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها أحمد بن بربى النحوي المصري فيما تكلم عليه من حواش الصحاح ، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها كتاب العدة الخطيرة في شعراء الجزيرة - أي جزيرة صقلية - اشتمل على مائة وسبعين شاعراً وعشرين ألف بيت شعر ، وكتاب الأسماء في اللغة ، جمع فيه أبنية الأسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما في ثلاث مجلدات وله تاريخ صقلية ، وتوفي في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة ودفن بقرب ضريح الشافعي (٢) .

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا في مصر في العصر الفاطمي أمثال محمد بن أحمد البازودي ، ومحمد بن أحمد العميدى ،

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٥ وبنية الوفاة

ص ٢٧٢ (٢) راجع بنية الوفاة ص ٢٣١ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٩ ، ومجموع

الأدباء ج ١٢ ص ٢٧٩ (٣) بنية الوفاة ص ٢٧٩ .

ومحمد بن أحمد الجرجاني ، ومحمد بن الحسين بن عمير البغلي صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كلية ودمنة ، وهو أستاذ القاضي القاضي ، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة ومحمد علي بن محمد أبو سهل الهروي الذي إليه كانت رئاسة المؤذنين بجامعة عمرو وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ٤١٣ هـ الذي ولي قضاء دمياط . وله تصانيف أدبية ولغوية . كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو الذي أجاز لأبي عبد الله الصوري الحافظ .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى ، نرى عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية في طلب العلم أو الكسب به ، وقد رآنا على مصر وأقاموا بها ودحا من الزمان ثم تركوها إلى بلادهم أو إلى غيرها من البلدان ، ولكنهم تركوا في مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم ، كما استفادوا هم من علماء مصر . تذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله ابن محمد بن ظفر المسكي ، ولد بمكة وقدم مصر في صباه ورحل عنها إلى إفريقية وأقام بالمهدية مدة طويلة ، انتقل بعدها إلى صقلية ومنها إلى مصر ، ثم وفد على حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة ، وفي هذه الفتنة نهبت كتبه ففقد حماة وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥ هـ ، وكان لغويا أكثر منه نحويا ، وله من الكتب ينبوع الحياة في التفسير ، التفسير الكبير ، الاشتراك اللغوي ، الاستنباط المعنوي ، القواعد والبيان في النحو ، الرد على الحريري في درة الفواص ، المطول في شرح المقامات ، وغيرها من الكتب (١) .

ومحمد بن أبي الفرج الكنتاني الصقلي المعروف بالذكي النحوي ، كان من صقلية وطاف العالم الإسلامي حتى وصل إلى الهند ، وكان من أئمة النحو ، وتوفي بأصبهان سنة ٥١٦ هـ (٢) .

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخزرجي تلميذ القاضي القاضي وراويته ، وكان نهاية في علوم العربية ، وألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات . وأصله من لشبونة ، ودخل إلى مصر حيث أقام بها ودحا من الزمن ، ثم عاد إلى مدينة بطليوس يحدث فيها بما رواه عن المصريين ، وتوفي بها سنة ٥٠١ هـ (٣) .

(١) راجع بنية الوعاة ص ٢٩ . (٢) ابيية ص ٦٠ . (٣) البنية ص ١١٥ .

وإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمي ، وهو كوفي رحل إلى الشام ومصر ثم عاد إلى موطنه وبه توفى في شوال سنة ٤٦٦ هـ ، وكان له حظ من الشعر وتوفى في النحو واللغة ، وهو صاحب القصيدة التي أنشدتها وهو في مصر ، ومنها .

فإن تسأليني كيف أنت فإنني تسكرت دهرى والمعاهد والقربى
وأصبحت في مصر كالأيسرني بعيدا عن الأوطان منتزعا غربا
ولاني فيها كمرى القيس مرة وصاحبه لما بكى ورأى الدبا
فإن أتج من بابي زويله فتوبة إلى الله ألا مس خبز لها تربا
ومن الطريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الأبيات وكان حصل له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية (١) ومع ذلك فإنه كان يشعر بشدة الغربة عن بلاده .

وتذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي النحوي الذي كانت له حلقة في جامع عمرو للإقراء وتوفى سنة ٥٥٢ هـ (٢) . وعبد الجبار بن محمد بن علي الماعزى اللغوى الذي قدم مصر وأقرأ بها العربية ، ورحل إلى بغداد حيث ألقى بها علومه وهو شيخ ابن برى المصرى (٣) . ومنهم الحسن بن الوليد القرطبي المعروف بابن العريف النحوى . فقد خرج إلى مصر ورأس فيها ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة (٤) ، كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسي النحوى . قدم مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه إلى معرة النعمان ، ولازم أبا العلاء المعرى وأخذ عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه ، وعاد إلى مصر فقدمها للحاكم بأمر الله الفاطمى ، وقراء عليه فأعجبه نظم المعرى حتى قيل : إن الحاكم أرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب أن يحمل المعرى إلى مصر فاعتذر المعرى (٥) .

إذن نستطيع أن نلمس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر ، وكيف كثر عدد العلماء ، وكثير إلتماهم ، كما تعددت أماكن هذا الدرس ، ففى

(١) البنية ص ١٨٨ . (٢) البنية ص ٢٨٢ . (٣) البنية ص ٢٩٥ .

(٤) البنية ص ٣٠٢ . (٥) البنية ص ٤٠٣ .

الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس، وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب وفي جامع عمرو بالنسطاط استمرت حلقات التدريس التي تحدثنا عن نشاطها في كتابنا ، أدب مصر الإسلامية ، ، ولم تكن القاهرة والنسطاط مراكز الدرس في مصر لحسب ، بل كانت الإسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد قلت كتب التراجم عن المحافظ السلفي تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية في هذا العصر ، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية . كما يحدثنا السيوطي أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسيني النحوي قرأ على القاضي الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب . وانتقل إلى قوص وتوفي سنة ٥٤١ هـ (١) . وكانت قوص من مراكز العلم في مصر ، وستحدث عن ذلك كله فيما بعد ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب النسطاط والقاهرة .

القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ومعرفة أسرار إعجازه ، وتفهم معانيه ، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنفأ إلا بسبب القرآن ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر ، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبل في كتاب ، أدب مصر الإسلامية ، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ودرابهم ، ففي كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القراء في مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدي الإمام ، وكان كل قارئ يحاول أن يتال القرآني من الإمام ليفوز بأكثر قسط من العطاء ، وكذلك تختم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية وهم أشبه شيء بموظفين رسميين في الدولة ، ولهم جاريهم الشهري سوى

(١) البنية ص ٤٠ .

الهبات والخلع ، وكان عند العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيراً جداً ، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم ، نذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الحوفي ، فقد كان عالماً بالعربية وتفسير القرآن ، أخذ عن أبي جعفر النحاس وأبي بكر الأدقوي ، واتي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم ، وتصدر للإفادة في العربية وإعراب القرآن وتفسيره ، وأخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان في تفسير القرآن في ثلاثين مجلداً ، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشرة مجلدات ، وصنف في النحو كتاب الموضح في النحو ، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ صاحب كتاب إعراب القراءات في تسعة مجلدات ، توفي للحوفي سنة ٤٣٠ هـ (١) .

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحق أبا عدي المصري المعروف بابن الإمام مسند القراء في زمانه ، قرأ علي أبي بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عدد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غليون ومكي بن أبي طالب وابن نفيس وغيرهم ، وتوفي سنة ٣٨١ هـ (٢) .

ويقول صاحب الشذرات . إن ابن الإمام كان عتقاً ضابطاً لقراءة ورش وأنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد وقرأ علي أبي بكر بن سيف صاحب أبي يعقوب الأزرق (٣) . وكان أبو بكر الأدقوي محمد بن علي بن أحمد المصري المقرئ النحوي المفسر شيخ مصر وعالمها في عصره ، كان أصله خثابياً ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوي ، وقرأ برواية ورش علي أبي غانم المظفر ابن أحمد ، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع ، وكانت حلقة من أكبر الحلقات العلمية . وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلداً سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن . وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٨٧ هـ (٤) ويقول السيوطي بل في سنة ٣٨٨ هـ (٥) .

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٢ ، والبيهقي ص ٣٢٥ وياقوت ج ٦ ص ١٦٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (طبع مصر سنة ١٣٥٠ هـ) .

(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ٦٠١ . (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

ومن العلماء أيضاً عبد الجبار بن أحمد الطرسوسي ، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه ، ومن أساتذة أبي الظاهر إسماعيل بن خلف الصقلي ، وله كتاب المجتبى في القراءات . وتوفي سنة ٤٢٠ هـ (١) . وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثماني . وهو المذکور في باب التكبير في الشاطبية وتوفي سنة ٤٠١ هـ (٢) . ويروي ياقوت عن الحافظ السلفي . أن عثمان ابن علي بن عمر السرقوسي الصقلي كان من العلم بمكان . نحواً ولغة ، وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره ، وله توالييف في القراءات والنحو والعروض . وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء ، وقرأ عن كثير وأعلى من كنت أقرأ عليه كأبي صادق وابن بركات القراء الموصلين وآخرين ، (٣)

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة ، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون بما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللوحة التي أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين ، مدعين أن للقرآن الكريم تأويلاً باطنياً يخالف ما يقول به المفسرون ، قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر ، وسمعوا لهم بالتعلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم ، فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متسامحين مع غيرهم من أصحاب الفرق والنحل الأخرى . وسنوضح ذلك فيما بعد .

رواية الحديث :

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى ، وكثرت الرحلة في طابيه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا في مصر الفاطمية : أبو بكر محمد بن علي بن حسن المصري نزيل تنيس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين وسمع الفسائي وأبا علي وروى عنه الدارقطني وغيره وتوفي سنة تسع وستين وثلاثمائة (٤) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨١ (٢) حنين المحاضرة ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣) باقوت معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٣٠ (٤) حنين المحاضرة ج ١ ص ١٩٩ .

ومعاصره الحسن بن رشيق ، أبو بكر محمد العسكري المصري ، روى عن
النسائي أيضاً ، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد ، وفيه يقول ابن
الطحان في تاريخه الذي جعله ذيلًا لتاريخ ابن يونس المصري : « ما رأيت عالماً
أكثر حديثاً منه ، ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين وتوفي في جمادى
الآخرة سنة سبعين وثلاثمائة (١) . »

والمحدث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور
البلخي روى عن ابن سعيد بن يونس ، وروى عنه عبد الغني بن سعيد ، وأقام
بمصر وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (٢) .

ومن أشهر الحفاظ في هذا العصر أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي ، ولد
سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، وتوفي والده بعد خمس سنوات من ولادته ، ونشأ
عبد الغني حياً للحديث ، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبي القاسم الكنازي
المصري (٣) وأبي بكر محمد بن علي وابن مسرور البلخي ، ثم اتصل بالدارقطني
ولازمه وروى عنه ، وقيل : إن الدارقطني سئل : هل رأيت في الحديث أحداً
يرجى عليه ؟ فقال : نعم ، رأيت شاباً بمصر كأنه شهلة يثار يقال له عبد الغني .
ولما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودعون ، ونحو نوا على مفارقتهم وبكوا .
فقال لهم : لقد تركت عنكم خلفاً ، يعني عبد الغني ، وقيل أيضاً : إن عبد الغني
لما صنف كتابه المؤلف والمختلف عرضه على الدارقطني ، فقال له : اقرأه .
فقال : كيف أقرؤه لك ومعظمه أخذته عنك ؟ فقال : نعم أخذته عن متفرقة
والآن قد جمعتها (٤) وروى عن الدارقطني أيضاً أنه كان يقول عنه : ما رأيت
في طريق مثله ، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة (٥) .

وكان بين عبد الغني بن سعيد وبين أبي أسامة جنادة اللغوي وبين أبي علي
المعري الأفاكي مودة أكيدة واجتماع في دار العلم ومذاكرات ومحادثات ، فلما
أمر الحاكم بأمر الله بقتل جنادة وأبي علي الأفاكي استتر عبد الغني خوفاً من

(١) حسن المحاضرة (٢) المصدر السابق (٣) النجوم الزاهرة

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥ (٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤

أن يذبح بهما لصداقته لهما ، وأقام مستخفياً مدة حتى حصل له على الأمر فظهر وتوفي في صفر سنة ٥٤٠ هـ ، وقيل سنة ٥٤١ هـ ، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامعهم جعل الحافظ عبد الغنى بن سعيد على بنائه ونظره (١) . وقد طبع كتابه المؤلف والمختف بالهند سنة ١٣٢٦ هـ

ولعل أشهر المحدثين الذي شهدتهم مصر في أواخر الدولة الفاطمية هو الحافظ السننوي وكان متقناً ناقداً ثباتاً دينياً خيراً ، انتهى إليه علو الإسناد . وكان أواخر زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية (٢) ، ويقول صاحب النجوم : وكان قد طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشي حافياً لطلب العلم والحديث (٣) . ورد بغداد فأخذ عن أبي الحسن الهراسي علوم الفقه وعن الخطيب التبريزي علوم اللغة ، كما روى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره ، ثم دخل دمشق وأخذ عن علمائها ودخل الإسكندرية سنة ٥٢١ هـ واستوطنها فقصده الناس وسمعوا عليه ، وبني له العادل بن الحسن علي بن السلار وزير الظاهر الفاطمي مدرسة بالإسكندرية سنة ٥٤٦ هـ وفوض أمرها إليه (٤) ، وصار إليه الهجرة في الحديث حتى لم يكن في آخر أيامه مثله ، ومن أشهر تلاميذه جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصفراوي الإسكندري والحافظ أبو الحسن علي بن فاضل الصوري والحافظ شرف الدين السكندري ، وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهروا في العصر الذي يلي هذا العصر الذي توارخه .

ولما وقد أبو حامد الغزالي على الإسكندرية لقي الحافظ السننوي وتباحثا في بعض المسائل ، أما كتبه وأعماله فهي كثيرة ، وكذلك كان له بعض مقطعات من الشعر ، فمن قوله في كبر سنه :

أنا إن بان شبابي ومضى فزني الحمد ، ذهني حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمي كبراً ، غصن علومي ناضر (٥)

(٢) حنين المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩

(٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

(٥) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

(٤) ابن حنبل كان ج ١ ص ٣١

ذلك أن السن تقدمت به حتى قيل : لأنه جاوز المائة بخمس سنين ، إذ توفي سنة ست وسبعين وخمسمائة . ومن الرحالين الذين وفدوا على مصر في هذا العصر في طلب الحديث ، الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي . ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم ، كما استفاد بعض المصريين منه ، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ (١) . وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن الفيراني ، وكان أحد الرحالين في طلب العلم والحديث بوجه خاص . روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس . وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧ هـ (٢) .

دراسة مذاهب أهل السنة :

وهنا نعرض لموضوع كثير فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمي إلى الآن ، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدي التعصب للمذهب الديني . وتطرفوا في عصيتهم حتى إنهم أكرهوا الناس على اعتناق عيسى بن مريم رغبة لا رغبة ، وإنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة بل أفنواهم قتيلاً ، ويقول السيوطي : إن الفاطميين أفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة — أي الشافعية والمالكية والحنفية — قتلاً ونهياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرافض والشيعة (٣) ، وذهب قليل من المؤرخين المحدثين إلى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية ، وأن جوهر الصقلي أعطى الأمان للمصريين بأن يختاروا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين ، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلماً ، فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتاب دار الإنشاء من كل مسيحياً أو يهودياً ، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عرف بالتقلب في سياسته وأحكامه .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧١ .

فقهاء الشافعية .

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا عدداً كبيراً من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيشون في مصر الفاطمية ، ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصير رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يحسبهم سوء . فمن علماء مذهب الشافعي القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر فقد أُملي بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١ هـ (١) ، وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي فقد كان فقيهاً محققاً ومناظراً مبرزاً وتوفي سنة ٤٧٧ هـ (٢) . والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصل الخثمي المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان فقيهاً مشهوراً له تصانيف وروايات متسعة وكان أئمة أهل مصر إسناداً ، وجمع له أبو نصر أحمد بن الحسن الشيرازي عشرين جزءاً وخرجها عنه وسماها « الخليعات » ، وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاء الفاطميين القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ وينسب إليه مسجد الخثمي بالقاهرة ، وكان والده أيضاً من فقهاء الشافعية ، توفي بمصر سنة ٤٤٨ هـ (٣)

ومن فقهاء الشافعية أيضاً في ذلك العصر أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي ، الذي قال عنه الحافظ السلفي : كان من أئمة الفقهاء بمصر ، وأوعيه قرأ أكثرهم ، ولد بالقنس سنة ٤٤٢ هـ وتفقّه على الشيخ نصر المقدسي ثم دخل مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ (٤) .

وكذلك قول عن أبي الهجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي الميودقي الذي اتخذ الإسكندرية موطناً له وصنف تعليقه في الخلاف بين الفقهاء ، وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلفي ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ (٥) ومجلى ابن جميع بن نجما المخزومي المصري صاحب كتاب الفخائر ، تفقه على سلطان

(١) حس المحاضرة ١ ص ٢٢٧ وتاريخ بغداد . (٢) المصدر السابق .

(٣) حس المحاضرة ١ ص ٢٢٨ وابن ميسر ص ٣٩ .

(٤) حس المحاضرة ١ ص ٢٢٨ . (٥) المصدر السابق .

المقدسي وبرع في فقه الشافعي حتى صار من كبار الأئمة ، وتفقه عليه جماعة منهم العراقي شارح المذهب ، وعلى الرغم من تمذهب بذهب يخالف مذهب أولى الأمر في البلاد فقد ولي القضاء سنة ٤٤٧ هـ ومكث في القضاء عامين ، ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تصانيفه كتاب أدب القضاء وكتاب الجهر بالبسمة (١) .

وأبو محمد عبد الله بن رفاعه بن غدير السعدي المصري الذي ولي قضاء الجيزة قد كان قتيها ماهرا في الفرائض ، أخذ عن الخلمي ولازمه مدة طويلة ، وهو آخر من حدث عنه ، ثم ترك القضاء واعتزل في القراقة متعبدا إلى أن توفي سنة ٥٦١ هـ (٢) .

وستحدث في فصل التاريخ عن القاضي القضاعي الشافعي وكيف ولي القضاء ، وولي ديوان الإنشاء بالرغم من شافعيته ، وأنه صنف كتابا في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب في فقه الشافعية (٣) .

وهكذا نرى عندنا كبراً من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون في العصر الفاطمي ، ومنهم من ولي القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية ، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر في حياتهم العلمية أو العملية .

فقهاء المالكية :

وكذلك قول عن فقهاء المالكية ، فقد وجد في مصر الفاطمية عدد كبير منهم ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعمان الذي كانت إليه إمامة المالكية في وقته وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقاته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً ، لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه للأخذ عنه ، وتوفي سنة ٣٨٠ هـ (٤) .

وأبو القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله العافقي المصري صاحب مسند

(١) حسن المحاضرة ج ١ وابن ميسر ص ٩٥

(٢) المصدران السابقان (٣) ابن خلكان - ص ٦٢ :

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦

الموطأ المتوفى في شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ (١)

ورعن جميعاً فعلم قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي ، أحد الأئمة
المجتهدين في المذهب حتى وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم ير في المالكية
أفقه منه ، وتعلم كيف وفد إلى مصر لضيق حاله في بغداد ، وكيف أكرمه
المصريون حتى تمول وحسنت حاله ، ولما أدركه المرض كان يقول : لا إله إلا
الله عندما عشنا متناً ، وتوفي بمصر ٤٢٢ هـ

ونسمع في هذا العصر عن عبد الجليل بن مخوف الصقلي الذي قال ابن ميسر
عنه : إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩ هـ . وعن علي بن الحسن
ابن محمد بن العباس الفهرى صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ . وعن
أبي بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزيل الإسكندرية ، وكان كثير
الرحلة في طلب العلم فسافر إلى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الإسكندرية
واتصل بالوزير المأمون البطاحي الذي أكرمه فصنف له الطرطوشي كتاب
«سراج الملوك» . كان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم
الأزدى الذي خلفه في حلقة ، والذي شرح المدونة . وتوفي الطرطوشي
سنة ٥٢٥ هـ وتوفي تلميذه سنة ٥٤١ هـ .

إذن تستطيع أن تظمن إلى أن دراسة مذهب مالك استمرت في مصر في
العصر الفاطمي بجانب مذهب الشافعي بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون
النقد اللاذع إلى هذين المذاهب ، وأن دعاة المذهب الفاطمي كثيراً ما كانوا
يقنطرون بالتجريح هذه المذاهب السنية في مجالس حكمهم وفي أشعارهم ،
وما هو ذا الداعي المؤيد في الدين يقول :

فا أبو حنيفة والشافعي حيثهم قد تفموا بنافع (٢)

ويقول مرة أخرى :

ونزول لبس الشافعي ومالك بيان زين العابدين وجعفر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦

(٢) لصيدة الأول من ديوان المؤيد الذي دأب عليه (من مطبوعات دار الكتاب العربي)

(٩ - أعب مصر)

وقياس قِيَّاس غدا متبرجا بالاعتزال وترهات الحجر (١)
يد أن الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حريةهم العقلية . وسمحوا لهم
بالتحلق في المسجد وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من الطلاب ، وقد
ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لما أمر بعمارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر ،
أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكي وخلع عليهما وقربهما
وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته . وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم .
ويحدثنا عمارة اليمنى أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يلقى في ولايته فقهاء السنة
ويسمع كلامهم (٢) ، مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط في التعصب لمذهبه (٣) .

تعصب الفاطميين لمذهبهم !!

أما هذه المسألة التي أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم ،
فيخيل إلى أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، أحيانا
بالترغيب ، وأحيانا بالترهيب . فكان الدعوة يؤدون واجبه في تشكيك المسلمين
في مذاهبهم السنية ويحجبون إليهم المذهب الفاطمي . فن المصريين من استجاب
لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعوة . ومنهم من استجاب لغرض
التقرب إلى الحاكم عساه يجد حظوة لديهم وينال مأربه ، وهذا اللون من الناس
كثير في كل البيئات والأقاليم ، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهب
الدينى ، واستمر يحافظ على عقيدته التي دان بها والتي نشأ عليها أبواه ولو أدى
ذلك إلى تعسف الحاكمين معه ، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف في سبيل
نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم ، فهذا أمر طبيعي نجد مثيلا له في
ظل كل الحكومات التي لها نزعة خاصة حتى في عصرنا الحاضر . فقد رأينا اليوم
ألوانا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية وكلها تحاول فرض
سلطانها ومبادئها في بلادها وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة ، وأن تحكم
بالتوانين التي سنتها فظلمها ولو أدى ذلك إلى القتل والنفي والتشريد لكل من

(١) من القصيدة السابعة من ديوان المؤيد في الدين .

(٢) النكت المصرية ص ٤٥ . (٣) النكت ص ٤٨ .

حاول مخالفة تلك النظم والقوانين ، رأينا ذلك كله ولمنأه في هذا العصر الحديث ، فلا نستطيع أن نتكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ ألف عام تقريباً كانوا يستعملون وسائل الإرهاب لمخالفى عقيدتهم ، ولا سيما أن الشيعة عامة ذاقوا من العذاب والتنكيل على أيدي مناصريهم ما نتحدث به كتب التاريخ .

كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم بمصر إلى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن للوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمم هذا المبلغ الذى نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين ، وفى هذا العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمراً طبيعياً لتثبيت أركان الدولة وحمايتها من أعدائها أموى الأندلس فى الغرب ، ومن العباسيين فى الشرق ، فكانت السياسة تقضى على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم ، وأن يشحنوا السيف لكل من تحدى نفسه بالخروج على سلطانهم ، ولا سيما أن العباسيين وأموى الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين فى نسبهم وفى عقائدهم ، وحاربوا الفاطميين بالسيف طوراً وبالهداية طوراً آخر ، فكثرت المحاضر فى نسب الفاطميين ، وطلبوا من العلماء والكتّاب الطعن فى عقائد الفاطميين مثل ما نراه فى كتب الفزائى وغيره فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جد الجدد ، وأن يعتبروا كل من لم يعتقد عقيدتهم عدوا لهم ، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله فى سياسته ، فكان حينما يقرب أهل السنة ويتسلم أهواله وطوره يشتت شمائمهم ويمعن فيهم بالقتل والسجن ، وهو فى كلا الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة لتلك الأسباب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه ، فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنوناً كما يصور فى نسب بعض الأئمة ، وإنما كان سياسياً حازماً فى سياسته ، يعفو فى وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر ، وهكذا كانت الحال فى سياسة الفاطميين نحو أهل السنة .

حينما ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الإسماعيلية أو الذمية فهم يستخدمونهم فى وظائف الدولة ، ولا يتعرضون لهم بمقت ولا أذى ، وقد قال القاضى النعمان فى كتابه المجالس والمسائرات (١) : ولما قلدنى القضاء بالمنصورية رأيت قوماً

(١) المجالس والمسائرات ورقة ٧٤ ب (نسخة خطية بمكتبتى)

لم يصفوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة ورجوت أن يهديهم الله إن فتح في ذلك لعباده ، فلما جاء الله من ذلك بما هيأ لخلقهم من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا ، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم ، ورمزت لهم وطارحتهم فلم أرهم يقبلون على شيء ، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتهم فلم يزدوا ذلك إلا تماديا في النفي وإصرارا على الجهل ، فثقل على أمرهم وكرهت جانبيهم وأبغضت رؤيتهم وسئمت صحبتهم ، فأردت الاستبدال بهم ، فرفعت ذلك إلى العزيز ، فوقع لي فيهم : « أيقظهم على خدمتك فإن ينو الله بهم فسيأده ساقها الله إليهم وثواب يضير اليك بما بذلته من النصيحة لهم ، وإلا فلا يمنعك جهل الحر المستغفرة من الاتضاع بها في بعض مصالحك ويكونون بعد ما قال الله عز وجل : « عاملة ناصبة تصلي نارا حامية »

وحينا آخر كان الفاطميون يضطرون اضطرارا إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشدّة والعنف . . حتى ولى المستنصر بالله سنة ٤٢٧ هـ فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سنة من الخلفاء ، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد ، وأصبح الخليفة الفاطمي العويبة في أيدي وزرائه وليس له من الأمر إلا الخطبة . وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يخالف المذهب الفاطمي (١) ، هنا ترى حدة العصبية الأولى تخف ، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل ؛ بل ذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي إلى أن يعين للبلاد أربعة قضاة ، اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة ، فالشيعة أحدهما فاطمي المذهب والآخر إمامي المذهب ، والسنيان أحدهما شافعي والآخر مالكي ، وأعلى السبيل واحد السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه (٢) . وقد ذكرنا أن الوزير أبا الحسن علي بن السلاو وزير الظاهر كان ظاهرا للسنن شافعي المذهب وهو الذي أنشأ مدرسة للشافعية بالإسكندرية وفوض أمرها إلى المحافظ السنني (٣) ، وهكذا بدأ الضعف يندب في الدولة

(١) راجع ما كتبناه من ذلك في مقدمة كتاب المجالس المنتصرة .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٢٥ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٠ .

الفاطمية والمذهب الفاطمي نفسه ، حتى تم بعض الوزراء في مصر إلى تسيير
الدعوة لابن صاحب عدن ، ويقول عمارة اليمنى في ذلك : إن المداعي ابن عبد
القوى والأجل الفاضل ، وشاور ، والكامل ، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء
بتسيير الدعوة لولدي صاحب عدن بعد موته ، ثم قال شاور : أحضروا
فلانا (يعني عمارة) وخذوا ما عنده ، ولم يبق في التوبة إلا صرمها ، فلما حضرت
وأعلوني منهم وقلت : إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف
والنجاير ويتولونكم لأجل الدعوة ، فإذا تبرعتم بها فقد هوتتم حرمتها ، فرجع
الجميع عما كانوا عليه (١) .

وقصة أخرى رواها عمارة أيضاً تدلنا على ما بلغ إليه التهاون في عقيدة
الفاطميين . ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح بن رزيك
توضأ ومسح رجله ولم يغسلها - على حسب عقيدة الفاطميين - فتناول عمارة
الإبريق وسكب الماء على رجله ، لجذبهما وهو يضحك ، فقال عمارة : إن كان
الحق معكم في مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطي ولا نعاقب على غسلها ، وإن كان
الحق معنا في غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تركون غسل
الرجلين وهو فرض . فكان سيف الدين يقول له بعد ذلك : والله لقد أدخلت
على قلبي الشك والرسواس بكلامك في مسألة الوضوء (٢) .

وأمل قصة محاولة إدخال عمارة اليمنى في الدعوة من القصص التي ترونا أن
القائمين بأمر الدولة الفاطمية في أواخر عهدها لم يابهوا بأمر المذهب وأنهم كانوا
يتساحون مع مخالفيهم إلى حد بعيد ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن
رزيك كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمي ، وأنه أدخل عددا من المسلمين في
مذهبه فإنه لم يستطع أن ينجح في محاولته مع عمارة ، يقول عمارة : وكانت تجري
بحضرتة مسائل ومذاكرات ويأمرني بالتحوض مع الجماعة فيها وأنا بمجزل عن
ذلك لا أطلق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس

(١) التذكرة ص ٩٢ .

(٢) التذكرة ص ١٢٣ .

انسر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماحه قول الله عز وجل : « فلا تقدموا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » ، ونهضت فخرجت فأدركني الغليان فقلت : حصاة يعتادني وجمعها . فتركوني واقطعت في منزلي أياما ثلاثة ورسوله يأتي في كل يوم والطبيب معه ، ثم ركب بالنيهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، فقلت : إني لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة . فمجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاها لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه مامن مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه . فضحك . وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها آيات بخط الملك الصالح ، ومعها ثلاثة أكياس ذهب ، وفي الرقعة :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| قل للفقيه عمارة يا خير من | أضحى يؤلف خطبة وخطابا |
| أقل نصيحة من دعاك إلى الهدى | قل (حطة) وادخل إلينا البابا |
| تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد | إلا لدينا سنة وكتابا |
| وعلى أن يعلموا بحلك في الورى | وإذا شفعت إلى كنت : مجابا |
| وقبضت آلافا ومن ثلاثة | صلة وحقك لا تعد نوابا |

فأجابه عمارة مع الرسول بهذه الآيات :

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| سأشاك من هذا الخطاب خطابا | يا خير أملاك الزمان فصابا |
| لكن إذا ما أفسدت عطاؤكم | معمور معتقدي وصار خرابا |
| ودعوتهم فكبرى إلى أقوالكم | من بعد ذاك أطاعكم وأجابا |
| فأشد يدك على صفاء محبتي | وأمن على وسد هذا البابا (١) |

ولا أدري كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين

(١) النسك من ٣ : دعا مدعا .

بالبيت الثاني من هذه المقطوعة ، ولكنه الأمر لم يكن أمر تعصب من الملك الصالح بن رزنيك ، بل هو أمر تهاون بالمدح شمل الأمر - وغير الأمر ، ولعل هذا الضعف الذي حل بالسيده «عاطمية» هو الذي سهل الأمر لصالح الدين الأيوبي في أن يهوض أركان الدولة المتداعية وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل السنة والجماعة ، وقبل الناس منه ذلك . فتحوّلت مصر بمد عشية وضحاها من شيعية إلى سنية ، لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة في نفوس المصريين ، وأن الذين اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها ، فسهل على الأيوبيين أن ينزعوها منهم .

الفصل الثالث

التاريخ والسير

وأينا في عصر الولاية بمصر^(١) كيف أسهم المصريون في تدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة ، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا في العصر الذي سبق العصر الفاطمي ، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعمار بن وسيمة المصري ، وابن يونس والكندي وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمي ، فظهر عدد كبير من المؤرخين ، وحفظت لنا أسماء مؤلفاتهم ، وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة في كتب التواريخ ، ففي كتب المقرئ بن أبي المحاسن بن تفرى بردى والسيوطي وابن فضل الله العمري والنويري والثلاثيني مقتبسات كثيرة من الكتب التي وضعها مؤرخو العصر الفاطمي ، وهذه المقتطفات تدلنا على أن مؤرخي مصر في العصر الفاطمي كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر ، فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر ، وإن كان منها ما كتب في التاريخ العام .

فمن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر ، أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني ، ولد بمصر في شى الحجة سنة ٢٢٧ هـ ، وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبري وروى عنه تصانيفه ، وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبري وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه ، وكتاب سيرة كافور الأحمدي ، وسيرة العزيز بالله الفاطمي ، وكان مقامه بمصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٢٩٨ هـ^(٢) .

ابن زولاق :

وشهد هذا العصر المؤرخ المصري الكبير الذي أخذ عنه كل من جاء بعده

(١) راجع كتاب أهدب مصر الإسلامية (من مطبوعات دار الفكر العربي) .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ١٠٥ .

من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر ، ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثي
المصري المعروف بابن زولاق ، فقد كان من أعيان علماء مصر ولد سنة ست
وثلاثمائة ، وروى الحديث ، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان
وغيره ، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندي وابن قديد وابن الداية ، يقول
ابن زولاق : كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب (أي ابن الداية)
قد عمل سيرة أحمد بن شوثر بن أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ، وانتشرا
في الناس . وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه مع غيرها من مصنفاته ، ثم عملت
أنا مائة من سيرتهما (١) .

وكان ابن زولاق من فرط حبه لرواية التاريخ كثيراً ما ينشد :

ما زلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً (٢)
وصنف ابن زولاق عدة كتب منها سيرة محمد بن طنج الأشيد ، وكتاب
أخبار سيويه المصري . وكتاب سيرة المادرائين - وقد طبعت هذه الكتب
كلها . وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار
الكتب المصرية وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس) وكتاب سيرة كافور ،
وكتاب سيرة جوهر . وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز ، وكتاب
التاريخ الكبير على السنين ، وله تذييل على كتاب الولاة للكندي وآخر على
كتاب القضاة للكندي أيضاً ، وكتاب خطط مصر ، وأكثر هذه الكتب
فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة في الكتب . وإذا نظرنا إلى الكتب
التي حفظت إلى الآن نرى ابن زولاق يدون ما سمعه من القات العدول من
معاصره أو ما شاهده بنفسه من أحداث ، فهي سجلات حوادث يتلو بعضها
بعضاً دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى ، فالكتب ليست
بكتب تاريخ على النحو الذي نفهمه الآن من كتب التاريخ ، بل هي أشبه شيء
بجرائد الأخبار في عصرنا الحديث ، وإن كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث

(١) المغرب في حل المغرب من ٤ .

(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر في رثاء أبي سعيد عبد الرحمن بن

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٤٧ هـ .

التي حدثت في عصر ملك من الملوك ، ولم تقسم الكتب إلى أبواب وفصول ، بل هي كما قلت مجرد سرد للحوادث ، كما أن أكثرها ليس مرتباً على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التي ذكرها . فقد تجد حادثة في أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التي جاءت بعدها . ومهما يكن من شيء فقد كان تأليف كتب السير في ذلك العصر على هذا النحو الذي نراه في كتب ابن زولاق ، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدرأ هاماً من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده ، فابن خلكان ، والنويري ، وابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وابن دقاق ، وأبو المحاسن ، وياقوت ، والقلقشندي ، والمعري وغيرهم نقلوا كثيراً من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق ، وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » ، ما يدل على قيمة كتبه وأخباره ، ولا غرو في ذلك فقد كان محدثاً ، والمفروض في المحدث أن يكون صدوقاً فيما يروي ، وقد نكون ميزة ابن زولاق الكبرى هي صدق أخباره ، حتى عرف بذلك بين معاصريه أنفسهم ، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة في نفوسهم ، وقد ذكرنا قصته مع الوزير يعقوب بن كلس ، وتوفي ابن زولاق في عهد الحاكم سنة سبع وثمانين وثلثمائة من الهجرة (١) .

المسبحي :

ومن مؤرخي هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم ، المؤرخ الأمير المختار عز الملك بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد المعروف بالمسبحي ، الحراتي الأصل ، المصري المولد والنشأة ، ولد في رجب سنة ست وستين وثلثمائة ، واتصل في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله في زمرة جنده ، وما زال يرقى في مراتب الجندية حتى صار أميراً على إقليم البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر ، ثم ولي ديوان الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذكرات أودعها كتابه « التاريخ الكبير » ، الذي وصفه بقوله : التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ،

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ ومجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ .

وهو أخبار مصر . ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من الصناعات والأبنية ، واختلاف أصناف الأطنمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاء والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم . وهو في ثلاثة عشر ألف ورقة . وبدلنا هذا النص على أن المسيحي لم يهتم بالتاريخ السياسي لحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، ومن الموزم حقاً أن يضيع مثل هذا الكتاب القيم ، ولم يبق منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة في كتب التاريخ ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبه الأسكوريال بأبانيا .

لم يكن الأمير المسيحي مؤرخاً لحسب ، بل كان أديباً له ذوق فني وإطلاع واسع في ميدان الأدب ، وألف في ذلك الميدان كتباً كثيرة منها : كتاب التلويح والتصريح ، في معاني الشعر ، وكتاب الشجن والسكن ، في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ، وكتاب جورة الماشطة ، يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وكتاب الراح والارتياح ، في وصف الشراب وآلاته والندامى عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الأزهار والرياح والثمار والأشجار . وكتاب الفرق والشرق ، وكتاب مختار الأغاني ومعالينها وكتاب المفاتيح والمناكحة في أصناف الجماع ، وكتاب الطعام والإدام في صفة ألوان الطعام وما يقدم على الخوان ، وكتاب دوك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمتبشرين وذكر الفرائض والآداب ، وكتب الجوعان والعريان ، وكتاب القران والتمام . وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان شاعراً رقيق العاطفة دقيق الحس ، فن شعره في زناء أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تنظما وقادحة لم تبق للعين مدمما
أصبراً وقد حل الثرى من أوده فله هم ما أشد وأوجما
فيا ليتني للوت قدمت قبلها وإلا فليت الوت أذهبنا معا

وانظر إليه وهو يرثي والده سنة ١٠٠٤ هـ :

خطب ألم من الزمان عظيم .
خطب يقل له البكاء وينطوى
خطب يميت من الصدور قلوبها
يادهر : قد أنشبت في مخالبا
يادهر : قد البستنى حلل الأسي
لو كنت قبل فدية أفديت من
يا من يلوم إذا رآنى جازعا
بأى فحمت فأى شكل مثله
قد كنت أجزع أن يلم به الأذى

قالدمع مع اللصاب نجوم
عنه العزاء ويظهر المكتوم
أسفا ، ويتمد تأره وقيم
بالأسودين لوقمن كلوم
مذ حل شخص في العراب كريم
رضت عظامى فيه وهو رميم
من طارق الحدثنان فيم تلوم ؟
شكل الأبوة في الشباب أليم
أو يمتريه من الزمان هموم

وبجانب هذه النفحة الأدبية كان المسيحي يلم بالنجامة . وله في ذلك كتاب
القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم . من هذا كله نستطيع أن نذكر أن
المسيحي كان من أركان الحركة العلمية والأدبية في مصر الفاطمية . وقد استفاد
منه المؤرخون الذين جاءوا بعده فاقبسوا من مؤلفاته ولقبوه بمؤرخ الفاطميين
وتوفي المسيحي سنة عشرين وأربعمائة ، ورثاه جماعة من شعراء عصره ، ذكرهم
ولده في تاريخه وذكر مرثيهم (١) .

القضاعي :

ومن المؤرخين النابيين في هذا العصر ؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر
القضاعي ، تفرغ على مذهب الشافعي ، ومع ذلك فقد ولاء الفاطميين القضاء
ثم اتصل بالوزير الجرجرائي فجعله الوزير كاتب علامته ؛ ثم عمل في ديوان
الإنشاء ، وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ رسولا من
قبلهم إلى الامبراطورة تيودورا لإصلاح ما فسد من العلاقات بين أنصريين
والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصداقة المصريين إذ ذاك وفضلوا أن

(١) راجع ابن خلدون ج ١ ص ٥١٥ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧١ .
ص ٩٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .

يتحالفوا مع طغرابك التركاز (١) ؛ ولما عاد القاضي القضاى من هذه السفارة اتخذه الوزير اليازورى كاتباً لإنشائه وعلامته . وهكذا كان مقدماً عند الفاطميين بالرغم من تذهبهم بذهب يخالف عقيدتهم . ألف القاضي كتاباً كثيرة نذكر منها كتابه فى مناقب الإمام الشافعى وأخباره . وكتاب الشهاب ، وكتاب الأنبا عن الأنبا . وتواريخ الخلفاء ، وكتاب خطط مصر : وقد وهم المقرئى حين قال (٢) : إن أول من كتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه ، هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاى كتابه المنصوت بالمختار فى ذكر الخطط والآثار . ومات فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنَى الشدة . فذكر أكثر ما ذكره ، فإن أول من تحدث من مؤرخى مصر عن الخطط هو عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر (٣) وتبعه المؤرخون بعده

والتقضى القضاى كان أستاذ مدرسة فى رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال السعدى النحوى المولود سنة ٤٢٠ هـ صاحب كتاب خطط مصر (٤) ، وكان ابن بركات شغوياً لغريباً وله فى هذه العلوم كتاب الإيجاز فى معرفة ما فى القرآن من ناسخ ومنسوخ ألفه للأفضل بن بدر الجمالى ، وله تصانيف فى النحو حتى قيل إنه بحر العلوم . ومنه روى الحافظ السلبى والبوصيرى صاحب البردة وأبو الميمون عبد الوهاب المالكى وهبة الله ابن صدقة المعروف بأبى الرداد وغيرهم ، وتوفى ابن بركات سنة ٥٢٠ هـ .

ومن روى عن القضاى أبو عبد الله الحميدى والخطيب أبو بكر أحمد بن على ابن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، فقد قابل القضاى فى الحج سنة ٤٤٥ هـ . وروى عنه . وهكذا كان أثر القضاى فى معاصريه . كما أن الذين جاؤا بعده نقلوا كثيراً من رواياته ، واقتبسوا من أقواله ، وتوفى القضاى سنة ٤٥٧ هـ (٥) .

(١) راجع ذلك بالتفصيل فى السيرة المؤيدية ونجد شيئاً من ذلك فى أخبار مصر لابن ميسر

(٢) الخطط ج ١ ص ٦ (٣) راجع كتابه فى أدب مصر الإسلامية .

(٤) بنية الوفاة ص ٢٤ .

(٥) ان خديكان ج ١ ص ٤١٢ وابن ميسر ص ١٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧ =

ومن المؤرخين في أواخر العصر الفاطمي ابن المأمون البطائحي ، وكان والده وزيراً للأمر بأحكام الله ، ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه ، ولكن المقرئى اقتبس كثيراً من كتاباته في مواضع متفرقة .

فن السير :

أما فن السير وهو ذلك الفن الذى يعد من فنون التاريخ ، فقد كان له شأن كبير فى الحياة الفكرية فى مصر الإسلامية ، ذلك أن كتب مصر وعلماءها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم ، وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية فى مصر فى القرن الثانى للهجرة (١) وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبى الجيش ، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافور وسيرة الممزر لذين الله وسيرة العزيز وسيرة سيديويه المصرى ، وكتب القاضى النعمان سيرة المعز لدين الله ، وكتب محمد بن محمد العياني سيرة جعفر الحاجب ، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل ما وصل إلينا فى فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهذا الفن . ويخيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماماً خاصاً ، نراه مثلاً فيما تركته مصر الفرعونية من سير ملوكها وأمرائها منقوشة على جدران المسابد والمقابر أو مسطراً على ورق البردى . نراه فى مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سيقوم من الآباء والفديسين ، وفى مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة فى فن السير ، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة ، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين .

وبلغت عناية المصريين بالسير وكلفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيراً عن أبطال أجدادهم المصريون وردد الشعب هذه السير فى اجتماعاته ومغانيه ، مثل

== وطلقات القاضية ج ٣ ص ٦٣ .

(١) راجع كتاب « فى أدب مصر الإسلامية » .

سيرة عنبرة بن شداد وسيرة الهلالية . وستحدث عن ذلك فيما بعد .
وقد حصلنا أخيراً على مخطوطين في فن السير ، الأول : سيرة الأستاذ
جوذر ، والثاني : سيرة المؤيد في الدين .

سيرة الأستاذ جوذر (١)

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين
أغفل المؤرخون ذكرهم . وهو الأستاذ جوذر الصقلي ، مع ما كان له من مكانة
رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المزلدين الله إلى مصر ، ومع
ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين ، يحدثنا هذا الكتاب
عن دخول جوذر في خدمة المهدي بالله الفاطمي ، وأن المهدي أهدى هذا
الغلام إلى ولي العهد القائم بأمر الله وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيده ،
إن القائم - وكان لا يزال ولي العهد - عتدماً خرج لغزو بلاد المغرب حتى
سنة ٢٠٠ هـ استخف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما
توفي المهدي بالله سنة ٢٢٢ هـ خص القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال
الدعوة بمرتبة الاستياداع لولي عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبع
سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملائ ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر
صاحب بيت المال ووكيل بخزائن الكساء كما كان سفيراً بين الخليفة
وإثر الناس .

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى في هذه الدولة الناشئة
قهاية الناس ، ولحبه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وتوفي القائم بعد ذلك
ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر ، وخرج
لحرب الخارجين عليه مستخلفاً جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسله
مقاتليهم خزائن الأموال ، ولما عاد من حروبه أعان موت القائم وكافاً جوذر
على خدمته فأعتقه ولقبه « مولى أمير المؤمنين » وأمره ألا يكتب في رسائله أحداً

(١) هو الذي نسب إليه عطفة وحارة وشارع الجوذرية بقسم المغرب الأحمر بالقاهرة .

ولا يقدم على اسمه اسما إلا الخليفة وولي العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة وولي عهده . وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إمعاناً في تشریفه ، وفي خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه ، إلى أن فتحت مصر وأراد المعز أن يسير إليها ، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيثول إلى جوذر ولكن جوذر أبى أن يفارق إمامه فسار معه إلى مصر ولكنه توفي بالقرب من مدينة برقة في مكان يعرف بمياسر سنة ٦٣٤ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى في هذه الدولة منذ نشأتها ، وإنما يوضح هذا الكتاب بعض نواحي تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرأً سريعاً ، ففي الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية وكادت تفرض أركان تلك الدولة ، كما يطلعنا على العلاقة بين الفاطميين وصقنية . وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة ومن قرصان البحر ، يظهر سبب الجفاء الذي كان بين المنصور وبين بني عمومه من أولاد المهدي ، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد في تأديبهم وروصد حركاتهم . أضف إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التي خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر ورسائله إليهما ، وقد بلغ عددها في هذا الكتاب نحو المائة ، فالكتاب أشبه بديوان توقيعات الفاطميين ، ولا أكاد أعرف كتاباً جمع توقيعات الفاطميين سوى هذا الكتاب ، وكتاب المجالس والمسائرات للفاضي النعمان الذي جمع فيه مصنفه بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستعمرية الذي جمع فيه رسائل المستنصر إلى الصليبيين باليمن ، وأجد في سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور بالله ، وخطبة المنصور في نعي القائم . وخطبة المعز في نعي المنصور ، وهكذا نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية والاجتماعية في العصر الفاطمي بالمغرب .

أما مصنف هذه السيرة فهو رجل مشهور لا تكاد نعرف عنه إلا أنه منصور الموردي المرزبي ، وأنه دخل في خدمة الأستاذ جوفد كاتباً له سنة

٣٥٠ هـ وأصبح موضع سره ، وظل في عمله إلى أن توفي جوذر فأنصل بالمعز فالعزير . ويتضح من كلامه أن العزيز جعله في مرتبة رفيعة هي نفس المرتبة التي كان فيها جوذر ، ويضيف المقرئ أن أبا علي منصوراً الجوزري زادت مكاتبه في عهد الحاكم بأمر الله ، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك (١) .

هذا كل ما نعرفه عن واضع هذه السيرة ، ونستدل من هذه السيرة أنها صفت في عهد العزيز بالله الذي ولي سنة ٣٦٥ هـ وتوفي سنة ٣٦٨ هـ ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد السنة التي ألفت فيها (٢) ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب قريباً .

السيرة المؤيدية :

لا أكاد أعرف كاتباً من كتاب المسلمين ، سبق المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي الدعوة - الذي تحدثنا عنه من قبل - في تصنيف كتاب خاص لسيرته . فقد ترجم لنفسه في هذا الكتاب ، بفصل من تاريخ حياته . أي من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع هذا الكتاب بعض وسائله ومناظراته العلمية المذهبية ، ولما كان المؤيد ممن أسهم في الحياة السياسية في هذه الفترة فهو يوضح جهوده وحركاته وسكناته منذ كان في بلاط أبي كاليبج البويهى بفارس ، فوصف المؤيد حياته في هذه البلاد ، كما وصف هذه الحياة التي كان يحياها السلطان مع الندماء ، وصلة السلطان بالعباسيين ، وكان المؤيد متصلاً برجال المستنصر الفاطمي من وزراء وكتاب ودعاة ، فاضطر إلى أن يتحدث عن شيء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب ، وأسرار وزراء مصر في ذلك العصر ، وذهب المؤيد لمؤازرة البساسيري في العراق واجتمع بعدد كبير من أسراء العرب والآتراك والأكراد فتحدث عن هذه

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٦ .

(٢) راجع ما كتبتاه من هذا الكتاب في مجلة الكتاب المصري المجلد الثامن عدد ٣١

(أبريل سنة ١٩٤٨)

الحركة الصيامية التي كادت تقوض أركان العباسيين ، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للتؤيد لحسب ، بل هو مصدر هام للحياة السياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري . لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذي عاش فيه . والكتاب قيم جداً في دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرين التي كان بها أحداث وخطوب ، وكان لها أثر قوى في مجرى الحياة الإسلامية عامة ، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه (١) فهو في متناول القراء الآن . وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية في مصر الفاطمية كما كانت قوية قبل عصر الفاطميين . ففن التاريخ وروايته من الفنون التي ازدهرت في مصر في عصورها المختلفة ، شغف به المصريون فأكثروا من روايته وتدوينه .

خاتمة القول في الحياة العقلية

قلنا إن العقائد الفاطمية كانت ميداناً فسيحاً للعقل ، وإن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية في وقت كانت فيه هذه الدراسات موضع هجمات عنيفة في الأقطار الإسلامية الأخرى . بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ويصبنون هذه الآراء والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التي بشروا بها ، فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفي الأخذ عن القديم ، والاجتهاد في المذهب . ما لا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى ، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة في الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة ، فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية ، ومجالس حكمتهم ، كانت تدور قبل كل شيء حول صاحب النصر المعصوم وثبيت إمامته وإظهار الإمام بمظهر الجلال والقدسية فكان الفاطميين في مصر قد أعادوا إليها شيئاً من الحياة الفكرية التي كانت بالإسكندرية منذ عهد بطليموس . إذ كان أهم الدراسات بالإسكندرية استرضاء الحكام وإشباع غرورهم بإسناد الفضائل كلها إليهم وإلى أجدادهم ،

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة (من مطبوعات دار الكاتب المصري) .

بيد أن دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم فأدخلوا في الدين ما وصلت إليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة ، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات وآراء هرمس الحراتي وغيرها من الآراء القديمة ، وذلك كله لإسباغ الفضائل كلها على الأئمة من أهل البيت ، فكانهم قالوا بحرية الفكر إلى أبعد مدى هذه الحرية ، ولكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة .

وكانت هذه الحرية الفكرية سبباً في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر وظهور عدد كبير من الفلاسفة على نحو ما ذكرنا من قبل ، ولكن هذه الدراسات الفلسفية كانت في أغلبها تتبع عقائد الفاطميين ، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد مثلاً كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان ، ويظن على ظني أن الفاطميين لو لم يدينوا برؤية الهلال رؤية استبصار وعلم لما ازدهرت هذه الألوان من الدراسات .

ورويتنا أن مصر الفاطمية شأهت دراسات أدبية عربية ، ولكننا نلاحظ أن هذه الدراسات مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق عليها دون أن تنتج مصر شيئاً جديداً ، وهذا ما كان أيضاً في مصر إبان ازدهار مدرسة الإسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعر هو ميروس ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم ، دون أن يكون للدراسات الوجدانية أثر قوى في هذه الدراسات التي قوى فيها عمل العقل والآراء العلية أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التي تستوحى من نفسية الشعب . ولذلك تنفق الدراسات الأدبية في العصر الإسكندري مع العصر الفاطمي في أن هذه الدراسات لا تظهر فيها شخصية مصر ، وكذلك في المزاوجة بين الدراسات الأدبية الخاصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتعبيراتها ، ومن هنا نرى سبب هذا التعقيد في أسلوب الدعاة والعلماء ، حتى يجنب إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن التعبيرات الأدبية التي تمثل فيها البساطة والنوع الموسيقي والمأطني في اللفظ والمعنى ، ولكن الدعاة والعلماء في العصر الفاطمي حشوا كتاباتهم بالتعبيرات الفلسفية ، واستعملوا مصطلحات اضطروا أن

ينحتوها من ألفاظ عربية ، وأن يتلاعبوا بقواعد الصرف المعروفة فجاءت كتاباتهم غريبة عن الأسلوب العربي . حقيقة حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستعيدوا الأسلوب الأدبي وأن يعتمدوا عن تعقيدات الفلاسفة ، ولكنهم وجدوا مشقة في تعبيرهم ، وصعوبة في صناعتهم . فاضطروا إلى استخدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليفتتوا الجماهير بالريثة اللفظية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيداً ليقموا في تعقيد آخر ، وهذه الشروح والهامشيات التي وضعت حول النصوص القديمة احتاجت هي نفسها فيما بعد إلى شروح وحواشٍ أخرى لتوضيحها وتحريرها إلى المتعلمين ، وهكذا كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلمية على الأساليب العربية .

على أن هذه الظاهرة لم تكن في مصر فحسب ، بل كانت في جميع الأقطار الإسلامية منذ عرفت هذه الأقطار هذه العلوم التي عرفت بالعلوم الدخيلة . ومنذ أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن آرائهم ودحض رأي خصومهم ، ومن يدرى لعل هؤلاء العلماء تعمدوا تعقيد أسلوبهم حتى يقال عنهم إنهم علماء ، وما هو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعمدوا التعقيد فيقول : « قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالناس تفهم بعضها ولا تفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ فأجلب أنا رجل لم أصنع كتبى هذه فه ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعونى إليه قلت حاجات الناس إلى فيها ، وإنما كانت غايى المنالة ، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت في هذا التدبير ، إذ كنت إلى التمسك ذهبت ، (١) .

ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه الحركة العقلية في مصر الفاطمية في عهد مطرد في كل نواحيها وألوانها وقتونها ، وتعددت مراكزها في مصر ، وكانت

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٤٥ (طبعة الساسي) .

حلقات الدرس في المساجد أو الدور في القاهرة و الفسطاط وفي الإسكندرية
و تنيس في الشبان وفي أسوان وقوص وقنط في الجنوب ، كما كان أمراء الأقاليم
يجمعون حولهم العلماء والشعراء ، وما هو ذا عمارة النبي يحدثنا في « النسك » ،
عن بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم ، فالحياة العلمية كانت
مزدهرة في مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء في الغرب والشرق
فلا غرو إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية ،
تلك الزعامة التي لا تزال مصر تحمل لواءها إلى الآن .

الكتاب الثاني
في الحياة الأدبية

الباب الأول

في الشعر

الفصل الأول

ازدهار الشعر

عرف الفاطميون بجراء دولتهم ، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، واقتنوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم ، حتى ينجيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادا ومواسم ، وكلها لهوا ومرحاً ، بالرغم مما كان في هذا العصر من سني شدة وقحط ضرب بها المثل ، ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعياداً بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين ، والأعياد التي يحييها مسيحيو مصر ويشترك معهم فيها إخوانهم المسلمون . فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق النجون وارتكاب المعاصي ، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالاً يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم ، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لو أننا من ألوان التنافر السياسي بينهم وبين أعدائهم ، فيقف أعداؤهم على هذه الحياة الهيبجة الفرحة ، والتفقات العائلية . فيعلمون أنهم أمام دولة قوية غنية . فتضيق منهم عن مهاجرتها ، أما هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر فقد روى المقرئ بن علي بن الطوير المؤرخ : أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد فاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر (١) .

(١) خط المقرئ بن علي ج ٢ ص ٢٩٢ .

وفي فصل آخر من خطط المقرئى يتحدث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعياداً ومواسم ، فقال : وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم ، وهي موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ومولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد الحسن . ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان رسماط رمضان وليلة الحتم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد النحر ، وعيد القدير ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ويوم التوروز ويوم الفطاس ويوم الميلاد وخيس العدس^(١) وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة ، فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة ، وفي جامع الحاكم مرة ، وفي جامع عمرو بن العاص مرة ، وينال الناس من الخليفة في هذه الجمع الثلاث رسوما وهبات وصدقات^(٢) . وأضاف أيضاً أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبت وثلاثاء إلى منزلاته بالبساتين والمناظر التي بنوها لنزهاتهم^(٣) ويوم سفر الحاج^(٤) وركوب الخليفة في أول شهر رمضان^(٥) وتحدث المقرئى كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهر رجب وشعبان وليلى النصف منهن^(٦) فكل هذه الأيام التي كان يحتفل بها الفاطميون ، سواء كانت أيام حزن مثل عاشوراء ، أو أيام فرح تمد فيها السمت الفاخرة ، وينفق فيها عن بذخ وإسراف ، ويصيب رجال النولة وكل من يتصل بالقصر من النعم والخلع ، كل بما يقتاسب مع مكانته ، وينال الشعب الذي يشارك أمراءه في أفراحهم وأحزانهم حظاً مما كان ينفقه الخلفاء والأمراء عليه ، فإذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التي استبها الفاطميون ، وقد يطول في الحديث لو توخيت وصف هذه الحفلات الكثيرة ، وأكتفى هنا بأن أعطي صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم قلا عن المقرئى

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها . (٢) الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٥) . . . ج ٢ ص ٣٨٩ . (٦) . . . ج ٢ ص ٣٤٥ .

عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون في وصف موسم أول العام :

وأُسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وبأبدر المستخدمون في الخزانة وصناديق الإقفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة ، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات ، وجميع الأستاذين العوالي والأدوان ، وتوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته ، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته ، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأصحاب والحواشي والأمراء والضيوف والأجناد ، فأمروا بتفرقة . والذي اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كان قبلها ، وجلس المأمون باكراً على السباط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الختم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية ، وتسلم كل المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجبة ومصفات المساكر ، وترتيب الأسمطة ، وأحمد كل منهم إلى شغله ، وتوجه لخدمته ، ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب ، وقد نشرت مظلته وخدمت الرحمة ورتب الموكب والجنايب ومصفات المساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين من الجوهرين والسيارف والصلغة والبزازين وغيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة ، وخرج من باب الفتوح ، والمساكر قارسها وراجلها بتجميلها وزياها ، وأبواب حارات العبيد مغلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تم للمساكين . والرسوم تفرق على المستقرين ، إلى أن دخل من باب الذهب ، فلقبه المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدعايز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص ، وغير ثياب الموكب بغيرها وتوجه إلى تربة آبائه لترحم على عاده ، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة . وعينت الأسمطة وجرى الحال فيها وفي جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهيئة قصور الخلافة وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال في الأسمطة على ما جرت

به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها ، وكذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وطابت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المهود ، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات بما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق ، ويحمل إلى الحرمين الشريخين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل إلى الثغور ، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع في الثغور والبلاد . . الخ (١)

هذه صورة ما نقله القرزى على المؤرخين المعاصرين عما كان يجري تحت بصرم وسمعهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون ، ومن هذه الصورة نقيين أن هذه الأعياد لم تكن أعياد الخلفاء والأمراء ورجال القصر ، لحسب . بل كانت أعياد الشعب أيضاً بما كان يقدم فيها من الصدقات والسمط ، فإذا الشعب يشارك الحاكين ، ويناله شيء من بذخ الفاطميين ، فإذا هو في فرح وبشر ، ولا يكاد يمضي عيد حتى يلحقه آخر :

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم ، ويتنافسون في الإجابة والإيقان ، وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في الدول الأخرى ، فلا غرابة إن قلنا إن هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر في العصر الفاطمي ، وموضوعاً من موضوعاته ، حتى إن عمارة النبي في قصيدته التي رثى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| أبكي على ما تراءت من مكارمكم | حال الزمان عليها وهي لم تحمل |
| دار الضيافة كانت أنس وافدكم | واليوم أوحش من رسم ومن طلل |
| وفطوة الصوم إذ أضحت مكارمكم | تشكو من الدهر حيفا غير محتمل |
| وكسوة الناس في الفصلين قد درست | ورث منها جديد عندهم وبلى |

(١) خطط القرزى ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٤ .

وموسم كان في يوم الخليج لكم يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم فيهن من وبل جودايس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما يهتز ما بين قصر يكم من الأسفل
والخيل تعرض في وشى وفي شية مثل العرائس في حل وفي حل (١)
ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر عمارة النبي لحفلات وأعياد
الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغنى .

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في
الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية ، ولكننا نرى الفاطميين يكثر من المباني
والمنشآت التي أقاموها في البلاد ، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار
منها من الأدلة التي نستطيع أن تقدمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة ، فهذه
البساتين التي جعلوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها ، لم تتخذ متنزها لهم فقط
دون غيرهم من الرعية ، بل أباحوا للناس دخولها والتمتع بمناظرها وجوها ،
فأوجد ذلك عند المصريين لونا من ألوان الحياة الناطرة البهيجة ، وسمت
النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معا . ولقد كان خروج المصريين في ذلك
العصر إلى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يقصفون
ويطربون ، وينعمون بجمال الرياض وأريج الأزهار ، وكان الشعراء يقصدون
هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر ويتبارون في الإنشاد ، يستوحون
من جمال الزهر والطبيعة وحنى شعرهم ، فإذا صح ماروا القدما أن شعراء
الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستلهام الشعر ، فكذلك خرج شعراء
مصر إلى البساتين يتغنون ببدايح الطبيعة ، فكانت هذه المتنزهات والبساتين
التي أكثر منها الفاطميون مصدرا خصبيا لكثير من الشعر المصري
في العصر الفاطمي .

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف ، وكان سكان مصر على حظ من التراء
والغنى يحسدهم عليه العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطانهم ، وكان الخلفاء

(١) خطب المقرئ ج ٢ ص ٢٩٢ .

الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب بما يملكون من مال ومتاع ورقيق ، بما كان يحمله إليهم النعاة من مال الخس (١) وأموال النجوى ، ومن هدايا الأمراء في المشرق ، وكان الوزراء يتشبهون بالأئمة في الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعة وافتن الشعب في التشبه بأمرائهم وحكامهم ، فظهروا بمظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أبهجها ومن الزينة واللباس أزهاها ، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان ، وإقامة المآذب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب ، حتى خيل إلينا أن حياة المصريين كانت حياة لهو وقصف وسماع غناء وألحان ، فكان ذلك كله وخيا لشعراء بالقريص .

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أن القائلين على شئون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما اتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبير عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها ، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام ، واصطنعوا كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء ، وكان الفاطميون على قدرة وكياسة في فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم وسائل العناية لقبيلة في العصر الجاهلي وللأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بعد ظهور الإسلام ، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان بن أبي حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحق وغيرهما أدخلوا في شعرهم بعض الآراء الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين . فلم يشأ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشيروا على خصومهم ، أو أن يستخدموه في الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم ، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين ينلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم ، ويعملون لبعض الشعراء مرتبات شهرية ، وينقل المقرئ عن ابن الطوير أنه كان لشعراء دواتب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير (٢) ويروي أيضاً أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم

(١) راجع كتاب المهنة في آداب اتباع الأئمة (من مطبوعات دار الفكر العربي) .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٣ .

على ماجرت به عادتهم (١) ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يعطى لهم شهريا . ويحدثنا المقرئ مرة أخرى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر لطف مذهب ، وأن الخليفة الأمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة محتومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده (٢) .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متزهات عامة بما يدل دلالة قاطعة على تمجيد فن الشعر والشعراء ، فأين نحن الآن من مصر في العصر الفاطمي ؟

ويذكر الهادي في الخريدة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة « مقدم الشعراء » ، ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن حريز (٣) . وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية ينفقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرا جيدا في مدح الآئمة ، ويحدثنا عمارة البني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار (٤) ، وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إقنان الشعر مع الإكثار من الإنشاد ، فكثر الشعراء وكثر إنتاجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه

(٢) خط ج ١ ص ٤٨٦ .

(٤) النكت ص ٣٤

(١) خط ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣) الخريدة ورقة ١٠٢

الائمة واستبد الوزراء بالملك فقد طلب إلى الشاعر أبي عبد الله مسلم أن ينظم
السيرة المصرية ، وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك ، فسأل أن يجرى
له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء ، فزيد نصف دينار ، فهجاه الشاعر
بجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالي سنة ٥٥٤ هـ بقوله :

جرى الحديث فقالوا كل ذى أدب أضحت له خمسة تجرى بمقدار
بأى فضل حواء ابن المسلم من دون الجماعة حتى زيد في الجارى
أجروا له خمسة عن حق سيرته فقال : لا تنقصونى حق أشعارى
نادوا عليه وسوق الشعر ناقصة فلم يرد قدرها عن نصف دينار (١)
وهكذا كان الفاطميون يستقلون شعر الشعراء في تثبيت أركان دولتهم حتى
في وقت ضعف سلطانهم :

شعر الأئمة :

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرون الشعر ويتذوقونه من حيث هو
فن من الفنون التي تجب العناية بها ، ويقدرها كل من نال حظا من الثقافة ورقة
الشعور ودقة الإحساس ، بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين من
كان ينشد الشعر ، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبان
غزواته ، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للنصور بالله ، منها :

تبدلت بعد الزعفران وطيبه صدا الدرع من مستحكات السوامر
ألم ترى بعد المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيل الضوامر
وقتيان صدق لاضغاث بينهم يثرون ثورات الأسود الخوادر
أرونى فنى يغنى غنائى ومشهدى إذا زهج الوادى لوقع الخوافر
أنا الظاهر المنصور من نسل أحمد بسينى أقد الهام تحت المغافر (٢)

(١) الخريدة ورقة ١٠٢ .

(٢) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبتي) .

ومن شعر المنصور بالله أيضاً يخاطب ابنه وولى عهده المعز لدين الله :
كتابي إليك من أقصى الغروب وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوى الرمال وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن برى السير أجسامنا وكل الركاب وقاه الدليل
فواغرتاه وواوحشتاه وفي الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعاً ولكني نهضت بقلب صبور حول
وقد من ذو العرش من فضله بفتح مبین وعز جليل
وفي كل يوم من الله لي عطا جديد وصنع جميل
فله حمد على ما قضى وحسي ربي ونعم الوكيل (١)

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادي منها إلى فن الشعر، فالمقطوعة الأولى من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسي ملك ناصية الفن في اللفظ والمعنى، فهو يختار اللفظ الذي يتلاءم في موسيقاه مع المعنى الذي يقصده الشاعر فيلذ الأذن والعقل معاً، ولكن القطعة الثانية، فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها يعيب حين يدعى أنه يقول شعراً.

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً، وينسب إليه هذه الأبيات.

الله ما صنعت بنا تلك المهاجر في المهاجر
أمضى وأقصى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد نعت بينكم تعب المهاجر في المهاجر (٢)

فهذه الأبيات إن دلت على شيء فهي تدل قبل كل شيء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد فن بهذه الملازمة اللفظية بين « المهاجر، والمهاجر، وبين « أمضى، و « أقصى، وبين « الخناجر، و « الخناجر، وبين المهاجر، و « المهاجر، ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الأبيات

(١) سيرة الأستاذ جوهر « نسخة خطية بمكتنتي » . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٤

كان خيال الشاعر كان قويا في تصويره عما تفعله العيون التي تختفي تحت المهاجر
ولكنها تصيب هدفها ، وتفعل في النفوس أكثر مما تفعله الخناجر في الخناجر .
وكذلك ينسب للقدماء إلى المعز لدين الله هذه الأبيات :

أطلع الحسن من جبينك شمساً فوق ورد في وجنتيك أطلا
وكان الجمال خاف على الورود جفاً قد بان شمر ظلاً (١)

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن ، فهو يصف جمال
المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحيية إلى النفس فهي كالورد المتفتح قد غمرته
الشمس ، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور ، فحس أن يذبل الورد
من حرارة الشمس فظله بمنصلة من شعر الحبيب ، فالصورة هنا لا شك جميلة ،
ولا غرو أن رأينا القدماء قد فتروا بها حتى قال ابن خلكان : إن هذا معنى
غريب بديع ، (٢) . ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الأبيات إلى المعز لدين الله
كما روى ابن خلكان ، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي الفحل إذ
ورد في الخريدة أن ظافراً قال :

أطلع الشمس من جبينك بدر فوق ورد من وجنتيك أطلا
فكان العذار خاف على الورود جفاً قد بان شمر ظلاً (٣)

لست أتدري لمن أنسب البيتين ، فربما حاكى ظافر الإمام المعز فأخذهما عنه
بعد أن غير بعض الألفاظ ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيهقي إلى المعز عندما
أرادوا إثبات شاعريته . ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن أبي عمير تحدث
أيضاً عن شعر المعز فقال : وكان المعز عاقلاً حازماً ليلاً فصيحاً شاعراً ، وله
شعر جيد من ذلك قوله :

ما بان عذري في حتى عذرا وبدا البنفسج فوق ورد أحمر
همت بقبلته عقارب صدغه فاستل ناظره عليها خنجراً (٤)
وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر ، وصراف به ، وكذلك كان ابنه العزيز

(٢) نفس المصدر السابق

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣

(٤) تاريخ ابن أبي عمير ج ١ ص ٤٨

(٣) الخريدة ورقة (٨٧ ب)

يا لله نزار ، وابنه المعروف بالأمير تميم ، يقول أبو المحاسن عن العزيز : « كانت لديه فضيلة ، وله شعر جيد^(١) . وروى الثعالبي في بقيته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كاظمتنا
عجيبة في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وعانتنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طرا ، وأعيادنا مآتمنا^(٢)

فالشاعر في هذه الآيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفين وحزن كين ، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم ، ويخيل إلى أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت العزيز لأن يقول :

ولما رأيت الدين رثت حباله وأصبح محو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة تسوم عباد الله خزم المخاطم
وتحكم في أموالها ونمايا بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة ثائر غيور عايبا مانع للبحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتائب تروح بأبطال رجال قائم
يقودون جرد الخيل تنظر بالقنا وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
أنا ابن رسول الله غير مدافع تنقلت في الأنوار من قبل آدم
في الشرف العالى الذى خضعت له رقاب بنى حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هداية ومنا بحمد الله (خير الخواتم)
فقل لبنى العباس مع ضعف ملككم بأنهم أسرى بأيدي الأعاجم
غصبت بنى مروان ما غصبوه من فوارثنا ، سحقا لظالم ظالم
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد ولما ادعيتم من مناسب هاشم
سنقيكم كأسا كما قد سقيتم أوائلنا وانه أعدل حاكم^(٣)

(١) النجوم ج ٤ ص ١٢١ .

(٢) النبوة ج ١ ص ٢٢٣ و النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣ .

(٣) ورقة ٦٣ من مجموعة أشعار إسماعيلية ، نسخة خطية بمكتبي .

ففي هذه الآيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه ، شديد العداوة لمن خالفه من العباسيين ، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من عن علي أيديهم ، شديد الفخر بنسبته إلى الرسول الكريم ، وهو في ذلك كله لا ينسى عتائه المذهبية التي كان إمامها ، فأشار إلى أنه تنقل في الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين ، وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب ، فقسّم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما : يكن يا هذا عمدا ويا هذا يكن عليا ، وأن هذا النور تجمع مرة أخرى بزواج علي من فاطمة بنت الرسول وتنقل في الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكان العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذي حل به وجد قبل آدم (١)

وكان الحاكم بأمر الله شاعرا أيضا وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة :
دع اللوم عني لست مني بموتق فلا بد لي من صدقة المتحق
وأنتي جيادى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق (٢)
ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الأمر
وكنك المقرئ (٣) . وعندى في المجموعة الخطية عدة آيات للحاكم ، ولكن هذه الآيات ضعيفة في صياغتها وفي معناها ، ويظهر فيها الالتحال ، ويحيل إلى أن قائلها هو أحد أتباع المذهب الذين لا يحسنون صناعة الشعر . والآيات هي :

إذا ما اتقى لبس السواد أتيتكم بأبيض من فوق السماء يفور
على أشقر يظلى إذا ماركته ولا صحبت رجلى بعد حير
وأجلس عادق كما كنت قبل ذا ويختال بي من بعد ذلك وزير (٤)

(١) راجع المجالس الأيضية في مواضع شتى وما كتبتاه من ذلك في مقدمة ديوان التوحيد في الدين داعى العناية .

(٢) النجوم ج ٤ ص ١٩٦ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٤) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأشمار الإسماعيلية .

ويحدثنا ابن بسام في الذخيرة أن الشاعر الواساني ، هجا يوسف بن علي المشرف على دمشق أيام الحاكم ، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يوماً : أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن النشيد (١) . فهذا يدل على أن الحاكم كان يلد له سماع الشعر عن يحسنون النشيد .

وتكاد تجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعراً مبدعاً ، وأنه كان متمكناً من إنشاد الشعر يرتجله في مناسبات ، ويحجب عن بعض الرسائل التي كانت ترد عليه بأشعر يروي صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠ هـ إلى الوزير ابن كدينة ، وطالبوا الوزير بالمالي ، فقال لهم الوزير : وراي مال بقي عندي بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاعات ، فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر ، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأرسلها إلى الإمام ، فأجلب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه :

أصبحت لا أرجو ولا أتق إلا إلهي وله الفضل
جهدى نبي وإمامي أبي وقولي التوحيد والعدل (٢)

ففي هذين يظهر الألم الشديد الذي كمن في نفس الإمام لما حل وبه وحاق بالبلاد إبان الشدة العظمى المروقة في التاريخ ، والبيت الثاني يذكرنا بما نسمعه عند دفن الموتى بما يعرف بتلقين الأموات ، فقل المستنصر أراد أن يتهم بمن جده يطالبه بالأموال فأجلب بما يلحق به الموتى . فهو يسخر بهؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن ، فالعقدة النفسية التي كانت عند المستنصر ، هي التي جعلته يسخر ويتهم على هذا النحو .

ومما يروى عن المستنصر أيضاً أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي بعد أن عاد سنة ٤٥٠ هـ إلى القاهرة منعه الوزير ابن المقرئ من لقاء المستنصر ، فأخذ المؤيد يرسل إليه الكتب والرسائل وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد :

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ص ٦٩ من القسم الرابع (المجلد الأول) .

(٢) النجوم ج ٤ ص ٨١ . وينسبها ابن منجب الصيرفي في كتابه الإشارة ص ٢٩ إلى

الحاكم بأمر الله . أما ابن خلدون فينسبها في تاريخه ج ٤ ص ٦١ إلى الأمر بأحكام الله .

أفسم لو أنك توجتني بتاج كبير ملك المشرق
وانلتني كل أمور الوري من قد مضى منهم ومن قد بقي
وقلت أن لا نلتني ساعة أجبت يامولاي أن نلتني
لأن إبعادك لي ساعة شيب فودي مع المشرق

فلما بلغت الرقعة التي فيها هذا الشعر لى المستنصر أجلب عليها بخطه :

ياحجة مشهورة في الوري وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا إلا لأمر مؤلم مقلق
خفنا على قلبك من سمعنا فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عديموا رشدهم في الغرب ياصاح وفي المشرق
فأنشر لهم ما شئت من علنا وكن لهم كالأولاد المشفق
إن كنت في دعوتنا آخرا فقد تجاوزت مدى السبق
مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقي (١)
وتنسب إليه قصيدة وردت في مجموعة أشعار الإسماعيلية مطلقها :

كني ملامك يا ابنة الغمر ما بال وفر أهلك من وفر (٢)
ولكنني أرى هذه القصيدة موضوعة ونسبت إلى المستنصر ، فأكتفي الآن
بالإشارة إليها .

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى علي
ابن محمد الصليحي باليمن ، ولكن من يطالع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه
الرسائل لا تصدر عن الإمام ، إنما تصدر عن كتابه ، وقيل أن نجد خليفة من
خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله ، إنما كان ذلك عمل كتاب
ديوان الإنهاء ، ونحن نشك في نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر . ونرجح أنها
كتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن ، وأن كاتبها أحد الشعراء في

(١) انظر ديوان المؤيد في الدين داعي العتاة .

(٢) ورقة ٦٣ ب .

العين ، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحث آخر (١) .
ويقول صاحب النجوم عن الأمر بأحكام الله ، كان للأمر نظم ونظر في
الأدب (٢) وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حيناً إلى الحاكم ، وحيناً
آخر إلى الأمر ، كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر إلى الأمر قوله :
أما والذي حجت إلى ركن بيته جرائيم وكيان مغلطة شها
لاقتحمن الحرب حتى يقال لي ملكك زمام الحرب فاعتزل الحربا
ويزل روح الله عيني بن مريم فيرضى بنا صحبا ونرضى به صحبا (٣)
وينسب طائفة البهرة إلى الأمر بأحكام الله رسالة تعرف ، بالهداية الأمرية
في إبطال الدعوة الزارية ، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظي
وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للأمر في الحقيقة وربما كانت لأحد
كتابه ، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاد ، وربما
كان الأمر هو الذي أوضى بها (٤) .

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر ، فلا غرو أن رأيتهم
يقربون الشعراء ويجزلون لهم المعطاء ، ويلتف الشعراء حولهم ويتنافسون بين
أبدي أمراتهم في الإنشاد ، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره .

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم - أي في القسم الأول من العصر
الفاطمي - ينشدون الشعر ويقربون الشعراء ، كان بعض الوزراء في عهد غلبة
الوزراء في مصر - ينشد الشعر ويثيب عليه ، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا
كل شيء في الدولة فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم ، حتى إن الشعراء
عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمي كانوا يذكرون بجانبه الوزير ،
ويطلبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام . ويروي المقرئ

(١) السجلات المستنصرية نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٢) ج ٤ ص ١٨٣ .

(٣) تاريخ مصر لابن بهر ص ٧٣ .

(٤) الهداية الأمرية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظي من مطبوعات (جمعية الدراسات

أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جلا ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أشد منهم ما يسهله لقه على حكم الجائزة ، فرأى القائل أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف (١) ، إذ كان الأفضل يجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا ، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، فن هذه الظروف كان يفتقد عطايا على الشعراء الذين كانوا يقصدونه . ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إنشادا الشعر وتحببا إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن تزيك ، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئا كثيرا ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات . وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيك بن الصالح الذي وصفه عمارة اليني بقوله :
وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثيب عليه (٢) . فسوق الشعر قد ازدهرت في عهد الوزراء كما كان مزدهرا في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد .

ضياع الشعر الفاطمي :

وكانت الحياة في مصر الفاطمية - كما رأينا جانبا منها - تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أتجه الشعراء في كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته ، ولكن هذه الموجة الفنية التي طفت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية ، فضياع الشعر ولم يبق منه إلا النزر اليسير ، أو قل لم يبق إلا اسم الشاعر أحيانا إن قدر لاسمه البقاء ، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجهالتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمد أن يحرقوا كل أثر أدبي يمت للفاطميين بصلة ، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفا من أن يكون بالشعر مديح للأئمة ، وهو كفر بدهم . وهماو ذا كاتب الأيوبيين الهاد الأصفهاني عندما أراد أن يجمع

(١) المخطوط ج ٢ ص ٢٧٥

(٢) النكت ص ٥٥

في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة ، قال عن ابن الضيف داعي الأمر وشاعره :
وكنيت عازماً لفرط غلوه على حظه ، لأنه أساء شعراً وإن أحسن شعراً ، بل
أظهر فيه كفراً ، ولكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفراً ، لأن البحر الواسع
يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، ويحمل الغشا كما يحمل الدر^(١) .
وقال عن ظافر الحداد : أقول ظافر ، يحظ من الفضل ظاهر ، يدل نظمه على أن
أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلامة سافر ، وما أكله لولا أنه من مداح
المصري والله غافر^(٢) . ومع ذلك لم يرو العباد لها شيئاً في مدح الأئمة ، فقد
تمدد العباد الأصفهاني أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته ، وتبعه
في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين ، فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب
هذا التعصب المذهبي .

أضف إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر ، ولا سيما في عهد المستنصر
بالله ، إبان اخنعة الكبرى ، وفي الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في
أواخر العصر الفاطمي ، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكتب العلماء ،
حتى إن الشاعر عمارة النبي عندما أراد أن يذكر لنا شيئاً من شعره في مدح
طلي بن شاور قال : فإن جميع ماقلته فيه نهب من دار الخليج^(٣) ولم يتذكر منه
شيئاً يرويه ، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمي نفسه
إذ سببت زوال دولة الفاطميين ، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضاً ، وإلا
لحدثت عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كسر . وأين ديوان ابن حيدر
المقبيل^(٤) وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري
وكان ديوانه في مجلدين^(٥) . وأين ديوان أبي الحسن بن مطير^(٦) ، وديوان ابن
الشخباء أستاذ القاضي الفاضل^(٧) وديوان الملك الصالح بن رزيك^(٨) ، وديوان

(٢) الخريدة ورقة ٥٠ .

(٤) الحرب ص ٥٢ .

(٦) الخريدة ورقة ١١٤

(٨) الخريدة ورقة ٣٧ ب

(١) الخريدة ورقة ٥٣ ب .

(٣) النكت ص ١٢٧ .

(٥) الخريدة ورقة ١٩

(٧) الخريدة ورقة ١١٤

القاضي الرشيد ابن الزبير^(١) وديوان أخيه المهذب بن الزبير^(٢)، وديوان ابن الضيف، وديوان ظافر الحداد الذي وصفه أحد معاصريه، وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن الفزاري بقوله. وله ديون شعر مشهور وبالجودة له مشهور^(٣) وأين ديوان الفقيه الصوفي ابن الكيزاني، وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد، وأين مقطوعات ابن الصياد في ألقاب ابن الحباب، فقد قيل: إن ابن الحباب كان كبير الألقاب، وكان ابن الصياد مولما بألقابهم وهجاه بأكثر من ألف مقطوعة^(٤)، وأين شعر أولاد الكنتز بأسوان^(٥)، وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف بابن بشرون التي صنفها سنة ٥٦١ وسماها «الختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر» وأين مجموع شعراء ابن رزيك^(٦). وأين كتاب جنان الجنان للمهذب ابن الزبير الذي صنفه سنة ٥٥٨ وجمع فيه أشعار شعراء مصر، وذيل به البيهقي، وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود ابن القاضي الموفق اسماعيل بن أحمد اللمياطي المعروف بابن قادوس وكان من أمثال المصريين وكتابه مقدما عند ملوكهم^(٧) ؟

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية. إنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر، لتعرف تعدد هذه الحسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لضياح هذه الثروة الأدبية المصرية ولتدل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها، خصبة في شعرها.

هناك جناية أخرى ارتكبتها الثعالب والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئا من الشعر، فصدوا إلى عدة أبيات من قصيدة، ولم يدونوا كل القصيدة، فقد اكتفوا بخطوطة من بيتين أو أكثر لكل شاعر، وقل أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب، مما جعلنا لا نستطيع أن نكون حكا صحيحا على فن الشاعر من هذه

(١) الخريفة ورقة ٣٦ ب

(٢) الخريفة ورقة ١٦٨

(٣) الخريفة (٦٨ ب)

(٤) الخريفة ورقة ١٣٦

(٥) الخريفة ورقة ٥٩ ب

(٦) المخطوط ج ١ ص ٣٢٠

(٧) ابن ميسر ص ٩٧

المقطوعات التي رويت له ، لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية ، و اتسعت ثقافته الأدبية وارتقت ذوقه الأدبي ، لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة ، أو قصيدة واحدة من ديوان ، وإلا كنا كالتدما. الذين كانوا يفضلون شاعرا على شاعر بيت شعر قاله . فمؤلا. الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم ، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه .

ومهما يكن من شيء فإن بين أدينا الآن بعض آثار الحياة الشعر في العصر الفاطمي ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبا في إنتاج الشعر بحيث استطاع شعر مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى صورته وصوره ، فالعوامل التي تحدث عنها ، والآثار التي وصلتنا . وما قاله الرواة عن شعر مصر ، كل ذلك يجعلنا نقول : إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية ويتطور هنا التطور الذي نلسه في العصر الفاطمي .

الفصل الثاني

الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهباً دينياً خاصاً يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون ، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقتهم ، ولا يفهمها غيرهم ، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوي في شعر مصر الفاطمية ، ذلك أن الشعراء الذين انصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التي صيغها المذهب على الأئمة ، ويتعمد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته ، وكلما أمعن الشاعر في استخدام هذه المصطلحات ، وإدخال هذه الصفات في شعره ، ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة ، وكثر عطاؤه وزاد جلوه ، فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن . وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام ، ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء ، فإذا كانت كتب الدعوة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم ، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم ، فالشعر يختلف عن ذلك كله ، فإنه يسير بين الناس وبيرويه الرواة ، فإذا سمع مستمع إلى تلك الآيات التي زخرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له اللام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر ، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه ، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه ، وقد رأينا كيف وصف العماد الأصفهاني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية ، وقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هاني الأندلسي ، وما وصف به من شدة الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملة ، فلو كان

هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هانيء ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراد الشاعر وقصد إليه ، لرأيانهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر . وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية ، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي ملئ بالعقائد والذي قيل في مدح الأئمة . ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة ، وديوان الأمير تميم بن المعز وقصيدة في مدح العزيز ، وكانت هذه النصوص في مكتبات رجال البهرة بالهند .

ففي مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله ، وهي لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله ، وتنسب هذه القصيدة أحياناً إلى المؤيد في الدين^(١) . وتنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالإسكندراني^(٢) ، ولكنني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد لأن العزيز بالله أقدم عهداً من المؤيد في الدين ، وأن المؤيد لم يمدح العزيز مطلقاً إنما مدح الظاهر والمستنصر وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد ، ولم يمدح غيرهما من الأئمة ، أضف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد .

أما الإسكندراني الذي تنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئاً ، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا ، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو : هذه قصيدة الإسكندراني رحمه الله في مدح الإمام العزيز بالله قدس الله روحه ، وهي الموسومة بذات النوحه^(٣) .

قلت : إن هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي ، ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « أهل بيتي شجرة أصلها ثابت ، وفرعها في السماء ، وقول النبي أيضاً : « أنا شجرة وفاطمة حملها وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرتها وعيوبونا أهل البيت ورقها ، حقا حقا أن يكونوا معنا

(1) A Guide to Ismaili Literature. P. 49.

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية الرموز إليها (ق) راجع ديوان المؤيد .

(٣) ورقة ٦٦ ب .

في الجنة (١) ، وأمثال هذين الحديثين . فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعاً وفروعاً على مثال الشجرة ، وسمى قصيدته ذات الدوحة ، وأودعها كثيراً من المصطلحات والمعانيد الفاطمية ، والقصيدة هي :

| | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| سئمت من البين الذي ليس يصدق | سئمت بغير الحق والصدق أفتلق |
| أمدح رهطاً غير رهط عمد | وفي الجيد عهد للإمام موثق |
| ولا فضل لي في ذا بل الفضل فضل من | بهم يحرم الله الأنام ويرزق |
| أئمة دين الله مذ قام دينه | وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق |
| عجتهم فرض على الناس واجب | وعصيانهم كفر إلى النار موبق |
| هم العروة الوثقى ، هم منهج الهدى | هم الناية القصوى التي ليس تلحق |
| ولولاهم لم يخلق الله خلقه | ولم يك في الدنيا ضياء ورونق |
| هم دوحة الدين التي ثمر الهدى | وبالدين والتقوى تظل وتسبق |
| تجبر من الأيام من يستظلها | وتحى من الموت الجهول وتطلق |
| سقاها غمام الوحي علياً فأبنت | بمكنون علم الله فالدين موق |
| جرت في تخوم المحكمات عروقها | وفوق الثريا فرعها متعلق |
| هم الأصل منها والأئمة فرعها | ففي كل عصر نورها يتألق |
| إلى أن أسامت بالعزير ولم تكن | بغير أبي المنصور لو كان يلق |
| فباهت على الأيام أيامه التي | تكاد لها صم الجنادل تورق |
| سحاب جود لا يغيب غمامها | ويجر سماح بالندي يتدفق |
| لئن فقد الناس المنز لدينه | لقد قام بالدين العزيز الموفق |
| تجددت الدنيا علينا بينه | فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق |
| ولا الجود ممنوع ولا الحمد غامل | ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق |
| تضوع نشر العدل في كل بلدة | ونشر الثناء الطيب للطيب يبعق |
| ملأت قلوب العارفين محبة | فكل على مقداره يتشوق |
| فلا صامت إلا بحبك ناطق | ولا مضر إلا بشرك ينطق |

(١) يروي الشيعة هذه الأحاديث . ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤبدية وفي كتاب بحار الأنوار وغيرها .

فضائل مولانا العزيز جليلة
 غرست على بيت من الشعر دوحه
 فآلفت من بيت بيوتاً كثيرة
 فسبح وسبح عن يمين ويسرة
 بمدح أمير المؤمنين لأنها
 عليه صلاة الله ما لاح كوكب

إذا عد فضل فهو بالفضل يسبق
 لها أغصن في وزنه حين تبسق
 ولكنها مع ذلك لا تتفرق
 على كل حرف منه بيت مطلق
 لعمري به من سائر الخلق أليق
 وما فاح في الأيك الحمام المطوق

كسرى
 من الذين والديا تزار جليلا
 الشريف والتهرب الإلهام غرابيا
 من الأندلس جليلا
 من الجود والأفعال والوصف مشرق
 عملوا نبي الحق بالحق مطلق
 بليلته اللان بها الصغر يوق
 بيتي من أنماها بالحق
 نرى النور من أنماها بالحق
 هطلة وخرق
 من الذين والديا تزار جليلا
 الشريف والتهرب الإلهام غرابيا
 من الأندلس جليلا
 من الجود والأفعال والوصف مشرق
 عملوا نبي الحق بالحق مطلق
 بليلته اللان بها الصغر يوق
 بيتي من أنماها بالحق
 نرى النور من أنماها بالحق
 هطلة وخرق

قال الشاعر هنا قد أزم نفسه بأن يبنى بيتين من الشعر على كل كلمة من كلمات البيت الأخير ، وأن يفرع عن يمين وشمال هذا البيت الأخير أربعة عشر بيتا ، سبعة أيات عن يمين ، وسبعة عن شمال حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة ، وما رأينا أحدا من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمي ، ومن يدرى لعل التشجير الذي ظهر في الشعر الفارسي في القرن السادس الهجري وما بعده هو تطور هذا التلاعب الذي نراه في هذه القصيدة ، فقد أراد الشاعر أن

يهدى إلى إمامه مثالا من الشعر للشجرة التي ذكر في القرآن أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وشاء الشاعر إلا أن يهدى لإمامه هذه الدعوة وجعل آيات الفروع والأغصان سبعة عن يمين وسبعة عن شمال تمثيلا لرأى الفاطميين في الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة الدين تلاء دور آخر لسبعة آخرين ، وقد يكون ذلك أيضا لأن المركز كان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد ، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث ، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاعبه في شكل القصيدة باطنيا ، وهو باطن أيضا في المعاني التي قصد إليها ، ففي مدحه لإمامه أملت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني ، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته . وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول ، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضا) « بك أتيب وبك أعاقب » (١) فهذه الصفات تنطبق أيضا على مثل العقل وهم الأئمة (٢) فيتيب الله من أطاع الأئمة ويعاقب من خالفهم . وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقل نور الله منذ بدأ خلقه أن حل هذا النور في إمام العصر (٣) ، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي نخص به الأئمة دون غيرهم ، وأن هذا العلم هو الذي يحيي موتى النفوس ويجلو غياهب الشرك ، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين وهي العقيدة التي تقول : إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى ، بل لعبادته وتوحيده . ولكن الفاطميين عالفوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد ، ذلك أن العبادة عندهم لا تقبل إلا بموالاته الأئمة من أهل البيت ، فكان العالم لم يخلق إلا من أجل

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخاري قول النبي (ص) « أول ما خلق الله القلم قال له : أقبلي فأقبل ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال : جزئي وجلالي ما خلقت خلقا هو أرفع على منك ، بك أتيب وبك أعاقب . . . »

(٢) راجع « نظرية العقل والشمس » (٣) راجع قصيدة الامام العزيز في الفصل السابق .

الائمة الذين هم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله . قال الشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شيء . عرف عقائده فأتخذ هذه العقائد وسيلة لملاح الإمام ، قال الشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره .

وما هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله ، الذي نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة ، وأخ لإمام من أئمتهم ، كان شاعراً من أكبر شعراء عصره ، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حفظت في ديوانه ، وقد استطننا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان ، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ، ويلم في شعره بعقائد أسرته ، فهو يقول مرة للعزير بالله :

| | |
|--------------------------------|------------------------------|
| جئت الخلافة لما أن دعيتك كما | وإني لميقاته موسى على قدر |
| كالأرض جاد عليها الفيتك منهلاً | فزانها بضروب الروض والزهري |
| ما أنت دون ملوك العالمين سوى | روح من القدس في جسم من البشر |
| نور لطيف تناهى منك جوهره | تناهيا جاز حد الشمس والقمر |
| معنى من العلة الأولى التي سبقت | خلق الهيول وبسط الأرض والمدد |
| فأنت بالله دون الخلق متصل | وأنت لله فيهم خير مؤتمر |
| وأنت آية من نسل مرسله | وأنت خيرته الفراء من مضر |
| لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها | مشوى وكنت ملك الأنجم الزهر |
| ولو تفاظنت الأبواب فيك دوت | بأنها عنك في عجز وفي حصر (١) |

في هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك ، لأن نفس الإمام الشريفة العظيمة هي روح قدسية حلت في جسم كفيف ترابي ، وأن هذه النفس العظيمة تناسب العقل — الذي سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفيلسوفية والفاطمية أيضاً — وبما أن العقل هو أول ما خلقه الله فهو سابق لخلق الهيول ، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه ، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة . وهو متصل بالله تعالى لأن أوله العقل الأول متصل بالله تعالى ، وأن

(١) ديوان الأمير تميم. ورقة ١٥٨ (نسخة خطية بمكتبي) .

الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد ، لأن مشو له العقل هو آية الله الكبرى .
وهكذا يستمر الأمير تميم في استقلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح
شقيقه الإمام العزيز بالله بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا
المدح دون التوصل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والمثول . انظر إليه
وهو بمدح الإمام :

فيا بن الوصي ويا بن البتول ويا بن نبي الهدى المصطفى

ويا بن المشاعر والمروءين ويا بن العظيم ويا بن الصفا^(١)

فهو يصف الإمام بجمان باطنية ، فتناكس الحج في التأويل الباطن هي محمد
صلى الله عليه وسلم ، وبما أن الوصي والآئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم
يوصفون بصفاته ، ويكرر هذا المعنى في أكا قصائده كقوله :

وا بن الصفا والحبر ويا بن الهدى ويا بن نبي الهدى ويا بن الكتاب^(٢)

فجاءت هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر
نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب ، والكتاب هو القرآن ، وفي التأويل
لباطن أن القرآن والزيور والتوراة والإنجيل هي مثل ، والمثول هو الوصي .
يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية : « قال قرآن العظيم هو هذا الكتاب
الكريم ، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه
أفضل الصلاة والتسليم لأنه في زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وإتاما
يسمى الكتاب قرآنا لاقرانه بالعترة ، يبين ذلك قول رسول الله صلى الله عليه
وسلم (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى
يردا على الحوض) . « قال قرآن قرين كل واحد من الآئمة الطاهرين ،^(٣) .

وخزاة أخرى بمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول :

يا حبة الرحمن ضد عباده وشهايه في كل أمر مشكل

من لم يكن في صومه مقربا بك ، فصومه لم يقبل^(٤)

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٨ ب .

(٢) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥ .

(٣) ديوان الأمير تميم ورقة ١٤١ ب .

(٤) كتاب المجالس المستنصرية ص ٢٩ .

فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض وهو معنى من المعاني الباطنية
وصفة من صفات الأئمة (١) ، ويقول أيضا : إن الإمام هو النور الذي يبين
للناس ما غمض عليهم ويوضح ما أشكل ، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة
الفاطميين التي تقول إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا بانباع المنصوص
عليه من أهل البيت ، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة لأن الولاية
كما قلنا هي محور عقيدة الفاطميين ، ويكرر هذا المعنى الأخير في قوله :

وأنت أنت المصطفى الملك الذي بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كل الملك في غير أهله وكان على أفق الشريعة غيب
عليك صلاة الله ما طاع الضحى وما حن للأوطان من يتغرب (٢)

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية
في شعره ، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معان إذا طبقنا (نظرية
المثل والمشول) .

ولعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي هو أول شاعر
في هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره ، فإذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية
فالشاعر أجمل كل قصائده التي في هذا الديوان في مدح الأئمة ، ولم يتناول
موضوعا آخر من موضوعات الشعر ، وملا قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية
حتى إنى لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلا في الأدب الفاطمي بل في الأدب
العربي كله ، فمن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعري من كتب العقائد
الفاطمية ، ولاغرو في ذلك فالمؤيد لم يكن شاعرا متكسبا بشعره مثل غيره
من الشعراء ، ولم يكن شاعرا من الشعراء الذين تهو بهم حياة الجون والقصف
واللهو ، إنما كان عالما من علماء الدعوة ، بل كانت إليه مرتبة داعي الدعوة ،
ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعا إلى رفع شأنه ، فليس غريبا أن ينقطع مثل
هذا العالم الكبير إلى العلم وأذ يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس ،
فإذا أنشد شعرا فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته .

(١) راجع ما كتبه عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد داعي الهدى .

(٢) ديوان تميم ورقة ١٧١ .

وانك ترى هذه الأشجار الكثيرة التي فيها ديوانه ملئت علما وتأويلا
انظر إليه يقول في إحدى منظوماته التي وضعها لمكاسرة، مخالف منجبه :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| ما النون يا صاح ترى والكاف | فالمخلق در وما أصداف |
| إن الذي ظنهما حرفي هما | مستوجب من ذي الحما كل هما |
| هل كافل بالأرض والسماء | ياهي حرفان من الحياة |
| تفهموا يا قوم ما الحرفان | إن نجاة المرء بالحرفان |
| ما فاعل الماء كلفصول | كلا ، ولا الحامل كلفصول |
| والكاف والنون اللذان اتظما | صنع الإله منهما واتحدا |
| وهنما يأتلف الوجود | لمن هو الشاهد الموجود |
| أني يكونان من الموات | وهنما منابع الحياة (١) |

قارىء مثل هذه الآيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدار تأثيرها
بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمق في دراسة المنجبه الفاطمي ،
فإن قضية الإبداع ، أو الحدود الروحانية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن
تكون أدق موضوع طالجه جميع اللغات والكتب ، فأفردوا لهذا الموضوع
كتبا خاصة ، وفصولا من كل كتاب من كتب الدعوة ، والمؤيد في الدين في هذه
الآيات يشير إلى « الكاف » و « النون » وهما الحرفان اللذان يأتلف منهما لفظ
« كن » . من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ، غير
أن الفاطميين قلوا : إن « كن » هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض
وما فيها من خلق ، وإن « الكاف » و « النون » ليسا بحرفي هما كما يتوهم العامة
بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيم الشأن ، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى
بهما في قوله « نون والقلم » ، والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته ، « الكاف »
رمز من الله « بالقلم » ، و « النون » رمز إلى « الروح المحفوظ » ، ويسمى « القلم »
هندم بالسابق وهو العقل الكلي عند الفلاسفة ، وله كل صفات وخصائص ذلك
العقل كما تحدث عنه الفلاسفة ، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد حاصر البغداد .

الروحانية ، ومن علماء المذهب من قال بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفنواحدة
من المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أى لا من مادة تقدمت عليه . ولا شيء ، أى
لا بآلة استعان بها عليه ، ولا فى شيء . أى لا مع غيره يشاكلة وبساويه ، ولا
مثل شيء . أى لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، ولا لشيء . أى لا الحاجة فى زيادة ولا
قصان فى ملكة تعالى ومشيئته ، فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ولوح به
العلاء عنه تعالى بحرف «الكاف» و«النون» فكان ما كان (١) ، ولكن
أغلب العلماء على أن «القلم» كان أسبق فى الوجود من اللوح ولذلك سمي «القلم»
بالسابق و«الروح» بالتالى ، و«اللوح» هو ما يسمى عند الفلاسفة بال«نفس» ،
وجعل الفاطميون لهذا الحد جميع الصفات التى وصف بها الفلاسفة النفس الكلية
ومن «القلم» و«الروح» وبواسطتهما أو جداوله تعالى جميع المخلوقات فى السموات
والأرض ، فهما كافلا العالم (٢) ، لحديثهم فى الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات
فى الأفلاطونية الحديثة ، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية ،
وبتطبيق نظرية المثل والمشول ، يكون النبي مثلا «القلم» ، والوصى مثلا «الروح» ،
وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلا «القلم» والحجة مثلا «الروح» ، وللشجميع
صفات وخصائص المشول ، فكان الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات
مكانة الأئمة بين الحدود الجسدية ومماثلتهم للحدود الروحانية فى العالم العلوى
وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة ، ومن هذه العقيدة اشتق
الفاطميون عقائدهم فى صفات الإمام ، وظهر أثرها فى الشعر الفاطمى . من ذلك
ما أتقده المؤيد فى الدين فى مدح إمامه المتصر :

قد خلقتم من طينة وخلقنا نحن منها لكن بدا ترتيب
إن أجسامكم لتأشئة الطين الذى منه شق منا القلوب (٣)

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله ، ذلك أن جسم الإمام خلق من
الطينة التى خلقت منها قلوب البشر ، أى أن الطينة التى خلق منها جسم الإمام هى

(١) كتاب كنز الولد (نسخة خطية بمكتبى) .

(٢) ربيع كتاب راحة القل والمجالس المؤيدية فى مواضع متعددة .

(٣) القصيدة الثالثة .

تس الطينة التي خلق منها عقل البشر، فما هو كفيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من طامة الناس. وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف ويجب أن يكون ما يصل فيه هذا العقل شريفا أيضا، ولكن بما أن الإمام من البشر وجسمه ترابي كغيره من الأدميين، لجسمه خلق من تراب ولكنه اقتراب الذي خلق منه قلب البشر الذي يحله عقول البشر. وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضا :

نعم قد أفاضها في البرايا فتخلت عن شكرها أنعام
م نهايات كل من برأ الله ، وقايات خلقه والسلام
فإليهم تسمى النفوس إذا را حث إلى الأرض تسمى الأجسام (١)
وقوله أيضا :

مولى مواليك الأعز ز صك ما معاديه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى والمرضى يسمو ويملو
بكشيفه ولطيفه فأسامه نفس وعقل (٢)
وهذا المعنى كثير جدا في شعر المؤيد نراه في أكثر قصائده التي في الديوان .
هناك عقيدة أخرى رددتها المؤيد في شعره ، فهو يقول مثلا :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| سلام على العترة الطاهرة | وأهلا بأنوارها الزاهرة |
| سلام بديا على آدم | أبي الخلق باديه والحاضره |
| سلام على من بطوقاته | أديوت على من بنى الدائره |
| سلام على من أتاه السلام | ضداه أخت به التاتره |
| سلام على قاهر بالمعا | صاة فراعنة جاتره |
| سلام على الروح صبي الذي | بمجته شرفت ناصره |
| سلام على المصطفى أحمد | ولي الشفاعة في الآخره |
| سلام على المرتضى جيد | وأبنائه الأنجم الزاهره |
| سلام عليك ، فصولهم | لديك أيا صاحب القاهره |
| بنفس مستقرا بالإله | جنود السماء له ناصره |

شهدت بأفك وجه الإله وجوه الموالى به فاضره
وأنتك صاحب عين الحياة وعين خصومهم فائره
بحار الندى كفه والعلوم مدى النحر في قرن زاخره
لإحياء أرواحنا الباقيات وإنشاء أجسامنا البائره (١)

فالشاعر هنا يسلّم على جميع الأنبياء ، وعلى الوصي على بن أبي طالب والأئمة من ذريته ، ولكنه ذهب إلى أبعد من التّسليم فقال : « فحصل لهم لديك أيا صاحب القاهرة ، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله ، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء ؟ تقول عقيدة الفاطميين إن النبي محمداً جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله ، أي أنه في دوره مثل آدم في دوره فهو آدم على هذا النحو ، وهو إبراهيم في دوره وهكذا ، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء ، بل قال الفاطميون إن دور النبي محمداً يشبه أدوار الأنبياء السابقين ، وما حدث الأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضاً لمحمد ووصيه وأئمة دوره ، فالأدوار واحدة ولكنها تتخذ أشكالاً مختلفة . ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو يجمع الأدوار أيضاً على هذه الصورة ، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح إلى آخر الأنبياء ، فالنور الذي تنقل بين الأنبياء حل في إمام الزمان ، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء . فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة ، وهكذا نستطيع أن نفسر قصيدة المؤيد السابقة . ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى قرّن بين الإمام وبين بعض الأنبياء . فقال في مقارفة المستنصر بنبي الله عيسى بن مريم :

وصديق مثل العدو مداج لا أراه إلا عدوا مضلا
جاءني حائرا ، فقال بجمل ما أرى للسيح في الناس شكلا
إن عيسى قد كلم الله في الهدى صيا وكلم الناس كهلا

(١) القصيدة الحادية والأربعون .

قلت : هذا مولى الأنام معد
قال : عيسى أحيى الموت جهاراً
إن هذا مولى الأنام معد
قال : عيسى أبرأ العمى قلت : مولا
قال : حسبي أجبتني بجواب
ثم ولي حتى مقراً بفضل
قد حوى الملك والإمامة طفلاً
قلت : مهلاً يا ناقص الفهم مهلاً
هو يحيى بالعلم من مات جهلاً
ي معد يجلو العمى إن تجلى
باطني بينت لي فيه عقلاً
لإمام المهدي ورحمت مدلاً (١)

وقس على ذلك مقارناته لباقي الأنبياء ، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء ، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تقول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة ويستمر المزيد في كل قصائده بمدح الإمام يعان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره .

ويحيل إلى أن العقائد أثرت أيضاً في جميع الشعراء الذين ظهوروا في بلاط الأئمة في عهد ضعف الأئمة وسطوة الوزراء ، وفي عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن ودخول الأئمة في دور الستر الثاني ، وقد ذكرنا أن المحافظ والظافر والفائز والمعاضد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الإمام المستر ولم يكونوا أئمة ، ولكن شعراء مصر أبوا إلا أن يقدحوا صفات الأئمة على هؤلاء التواب بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة ، قال الشاعر الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخطش شاعر الأمر والحافظ مدح المحافظ بقوله :

صرف جرمال يرى تحريمها
من يرى المحافظ فرداً صمداً
بشر في الصين إلا أنه
من طريق العقل نور وهدي
جل أن تدركه أعيننا
وتعالى أن نراه جسداً
هو في التسبيح زلقى راحه
سمع الله به من حمداً
تدرك الأفكار فه بانياً
كلا من لإجلاله أن يبداً (٢)

قال الشاعر هنا مدح المحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة

(١) القصيدة التاسعة والخمسون .

(٢) الحريرة ورقة ١٤٣ ب .

ولكن الحافظ كان يشوب عن الإمام المستر فطبق الشاعر صفات الإمام علي
تأبته ، فالإمام عن طريق العقل ، أي عن طريق علم الباطن ، هو نور أي أنه
عقل كله ، والعقل الأول لا يدرك بالابصار ، فهو تعالى أن يحد بحدود ذلك
الجسد ، أما قوله « فهو في التسبيح زلني راعح ، فتأويل الركوع - كما يحدثنا
القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام - هو طاعة الإمام ، والإقرار
بحدود الدين الروحانيين والجسمانيين ، والتسبيح في الركوع تأويله البراءة
والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه (١)
وتأويل « سمع الله به من حمدا ، أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله
على ما أصاره من فضله إليه وأطلعه من أمر أوليائه عليه فيأمر الداعي بذلك
من دعاء ويخبرهم أن الله تعالى يسمع حدهم ، ويطلع على اعتقادهم في ذلك ، فإن
كانوا قبلوه حق القبول واعتظبوا به كما يجب وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه
فيحمد الله كما أمرهم (٢) أما البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر
في أمر الإمام ، وأن الإمام مثل للعقل الأول وما يوصف به هذا العقل ، فيكاد
المفكر من إجلاله للعقل أن يعبدته وأن يعبد مثله . وهذا البيت الأخير يشبه
قول المؤيد في مدح المستنصر :

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسيتك ربا
وهو مثل قول للشريف بن أنس الدولة في مدح الحافظ ، وقد سعد
المنبر يوم العيد :

خشوعا فإن الله هذا مقامه وهما فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه (٣)

فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الآيات هو من المعاني الباطنية ، وكلها
تخضع في التفسير لنظرية المثل والمشول أيضا . فالإمام مثل للعقل الأول فهو
أشرف من جميع المخلوقات ، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله

(١) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام - نسخة خطية بمكتبي .

(٢) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام نسخة خطية بمكتبي .

(٣) خطط للقريري ج ٢ ص ٣٣٠ .

التي وردت في القرآن الكريم . ثم انظر الى قول الشاعر :

هذا أمير المؤمنين يجلس أبصرت فيه الوحي والتزبلا
وإذا تمثل راكبا في موكب عاينت تحت ركابه جبريلا (١)

« فجلس الوحي والتزبيل ، هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم الإمام مقامه ، أما قوله : « عاينت تحت ركابه جبريل ، فتأويل الملائكة في عقيدة الفاطميين هم الدعاء ، فكأن الشاعر يقول : إن الإمام إذا سار في موكبه سار تحت ركابه السعاة الذين يدعون له ولمذهبه .

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائد مذهبهم وتهجين مذاهب أئمتهم ، فن ذلك قوله :

يا أمة سلكت ضلالا بينا حتى استوى إقرارها وجحودها
ملت إلى أن المعاصي لم يكن إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كمن الإله بزعمكم منح الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريد ما (٢)

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين وأثارها المعتزلة ردحا طويلا من الزمان ، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين ، وهي مسألة الجبر والاختيار . لجمهور أهل السنة على أن الإنسان مجبر ، والمعتزلة تذهب إلى أن الإنسان مخير ، ولكن الفاطميين كانوا ينهبون مذهبها وسطا ، فالإنسان مجبر في أمور ، ومخير في أمور ، فهو ولد من غير اختيار بل هو مجبر ، وتصيبه بعض الأحداث في حياته قضاء وقدرًا ويموت بغير اختيار ، أما أفعاله فهو مخير فيها .

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألما في أشعارهم عقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثر الذي رأينا بعض نماذجه ، إذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاد الفاطميين كانوا يتمذهبون بمذهب الأئمة ،

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ .

(٢) خطط القرظي ج ٤ ص ٨٢ .

ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة ، وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة ، وأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطمي المذهب ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر ، ويحدثنا ياقوت أن الحسين بن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حصينة المعري المتوفى سنة ٤٥٧ هـ أوفد إلى المستنصر بالله ، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ظهر الهدى وتجلل الإسلام | وابن الرسول خليفة وإمام |
| مستنصر بالله ليس يهوته | طلب ولا يعتاص عنه مرام |
| حاط العباد وبات يسهر عينه | وعيون سكان البلاد تمام |
| قصر الإمام أبي تميم كعبة | وبينه ركن لها ومقام |
| ولولا بنو الزمراء ما عرف التقى | فينا ولا تبع الهدى الأقسام |
| يا آل أحمد ثبتت أقدامكم | وتزلزلت بعداكم الأقدام |
| لتم وغيركم سواء ، أتم | للدين أرواح وهم أجسام |
| يا آل طه حكيم وولاؤكم | فرض وإن عدل اللحاقولا موا (١) |

فالشاعر على الرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه الصفات الباطنية التي تجد حظا من القبول إذا مدح بها الإمام ، فقصر الإمام كعبة والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام ، ولولا الأئمة ما عرفت حقيقة الدين ، والأئمة عقول والناس أجسام والولاء للأئمة فرض من الله ، فهذه كلها من عقائد الفاطميين ، واضطر الشاعر أن يزوج بها في مدحه للإمام الفاطمي ، ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضا منها قوله :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أما الإمام قد وفي بحالة | صلى الإله على الإمام وآله |
| لذا بجانبه نعم بفضله | وينذره وبصقوه وجماله |
| لا خلق أكرم من محب، شيعة | محمودة في قوله وقصاه |

(١) ياقوت - معجم الأدباء ج ١٠ ص ٩٠ (طبعة رفاعي) .

فانصد أمير المؤمنين فأتري يؤما وأنت مظلل بظلاله
 زاد الإمام على البحور بفضله وعلى البهور بحسنه وجماله
 وعلى سرير الملك من آل الهدى من لا تمر الفاحشات بياله
 النصر والتأييد في أعلامه ومكارم الأخلاق في سرباله
 مستنصر باقه ضاق زمانه عن شبهه ونظيره ومثاله (١)

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا بها الملوك، ولكنه ألم فيها أيضا بالمعاني الباطنية التي تتميز مصر الفاطمية عن غيرها من الدول، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر العربي فالصلاة على الإمام وآله وأن الإمام من نسل الرسول، وأن لاشييه للإمام ولا مثل كل هذه من العقائد التي كان يبثها اللطاة بين الناس .

ولعل الشاعر عمارة البني أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنيين الواقفين على مصر؛ والذين ألما في شعرهم بالعقائد الفاطمية، ففي أول قصيدة أنشدتها في مصر قال في مدح الخليفة الفائز، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التي مطلعها :

الحد للميس بعد العزم والمهم حدما يقوم بما أولت من النعم
 وفيها يقول :

لأجحد الحق، عندي للركب يد تمتت الجسم فيها رتبة الخطم
 قربن بعد مزار العزم من نظري حتى رأيت إمام القصر من أمم
 ورحن من كعبة البطحاء والحرم وقدأ إلى كعبة المعروف والكرم
 فهل ددى البيت أنى بعد فرقه ما سرت من حرم إلا إلى حرم
 حيث الخلاقة مضروب مرادقها بين النبيضين من عفر ومن قم
 وللإمامة أنوار مقدسة تجلو النبيضين من ظلم ومن ظلم
 والنبوة آيات تنص لنا

(١) بالوت ج ١٠ ص ٩٢ .

(٢) التكت ص ٣٢ (٢) ص ١٩٨ .

ويستمر عمارة في مدح الفائز ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئاً كثيراً من عقائد الفاطميين، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية إلا بقدر يسير، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة، على أن الشاعر بعد أن استقر بمصر واتصل بالبيئة المصرية حوله وسمع جدل العلماء ومناقضاتهم في مجالس الملك الصالح، وعرف شطراً من العقائد الفاطمية، فأثر بهذه العقائد في شعره، وإن كان لم يمتق دعوتهم، بل ظل على عقيدة الشافعية، فهو يقول في مدح العاضد:

| | |
|----------------------------|--|
| وعليك من شيم النبي وحيدر | لناظرين أدلة وشهود |
| والوحي ينطق عن لسانك بالذي | من دونه يستدع الجلود |
| شخصت إليك نواظر الأمم التي | ملكتم لك بيعة وعهود |
| يوم جلت فيه الإمامة عزها | ولها الملائكة الأرام جنود ^(١) |

في هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر مارة، فالشاعر هنا متأثر بالعقائد، حتى يخيل إلينا أنه أصبح على دينهم وحقيدتهم، قالوحي - وهو في التأويل داعي الهداية - ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة والبراهين القوية التي لا تقف أمامها حجج أو براهين، والبيعة في عنق جميع الذين طاهدوا الإمام، والملائكة وهم الهداة جنود الإمام. ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| لا يبلغ البلاء وصف مناقب | أنتى على إحسانها التنزيل |
| شيم لكم غرأتى بمدحها الـ | فرقان والتوراة والإنجيل |
| سبح فخناها من السور التي | ما شأنها نوح ولا تبديل |
| قامت خواطرها بخدمة نظمها | فيكم، وقام نوحها جبريل |
| شرف نصبت به قريش كلها | عولا لكم وهداكم التعويل |
| لأن الرسول أبوكم من دونها | فن الذي منها أبوه رسول |
| ولقد ودرت مقام قوم يستوى | منهم شباب في العلاء وكهول |
| وجعت شمل خلافة لم يختلف | في فضائها المقول والمنقول |
| لما برزت إلى المصل معلنا | وشعارك التكبير والتهيل |

وخطبت فيه المؤمنين خطابة ذابت عيون عندها وعقول
وسلت عرب فصاحة نبوية شهدت بأنك لنبى سليل^(١)
فهو هنا يمدح العاضد بأن في سور القرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن
الائمة ، وهذا من أقوال الفاطميين في أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد في الدين :

لهم معاني الزبر وفضل آى الزمر^(٢)

وقال عمارة أيضا في هذا المعنى نفسه :

يا خير من نظم المديح لمجده وتزلت سور الكتاب بحمده^(٣)
واظفر إليه وهو يقول في مدح العاضد أيضا :

ولاؤك دين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى وبيدين^(٤)
ولعل الآيات التي أشدها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة
على مدى تأثير عمارة بالعقائد وبتأويل الفاطميين ، فهو يقول مثلا :

لا تعجبن لقدار ناقة صالح فلكل عصر صالح وقدار
أحلت دار كرامة لا تنقضى أبدا وحل بقاتليك بوار^(٥)

فناقة صالح التي ذكرت في القرآن تقول على حجة صالح ، وكذلك كان
الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز ، ويتحدث عمارة عن الأدوار ، فلكل
عصر صالح ، من نبي أو إمام ، ولكل عصر ناقة صالح ، أى حجة للإمام ،
فهذا المعنى لا يأتي به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها ، وكان عمارة
يجالس الساسة والعلماء فصرف الكثير من أسرارهم فجرى لسانه به ، وفي البيت
الثاني يتحدث الشاعر أيضا عن عقيدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت
وعودتها إلى العالم الروحاني ، فإن كانت قسماً شريفة بأن كانت نفس حرة من
حدود الدين الجسائية عادت إلى عالم الحدود الروحانية وتأخذ مرتبتها بين الحدود
الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسائية .

(٢) القصيدة الحامسة والمصرون من ديوان المؤيد

(٥) ص ٦٩ .

(٤) ص ٣٦٢

(١) الذبكت ص ٣٠٦

(٣) الذبكت ص ٢٠١

وفي مديحه للصالح قال :

كف هو الباب الذي من لم يصل منه فليس له إليك وصول
إشارة إلى أن داعي الدعاء هو باب الأبواب ، وهو الذي يشير فيه إلى
الحديث النبوي : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، فالإمام في عصره يماثل النبي
في عصره ، وداعي الدعاء هو الباب أيضا . وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيق
أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضا :

قل للفتية عمارة يا خير من أضحي يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل دحطه ، وادخل إلينا ، البابا ،
قلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا (١)

وفي قضية أول رمضان ، حدث أن غم الهلال ولم يظهر بين الضباب فلم يره
الناس رؤية بصر ، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم
بدورة الفلك ، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس ، فقال عمارة في ذلك :

ولما تراءت الهلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب
وقفنا فهناكنا الصيام بعاضد سناء مدى الأيام ليس بخباب (٢)

فروية رمضان التي نحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي معلنا
صوم رمضان .

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العاضد ، اتفق أن اجتمع الشاعر
يحيى أبو سالم بن الأحبب بن أبي حصينة والشاعر عمارة اليمني في قصر القلوة
فأنشد أبو سالم في نجم الدين أيوب :

يامالك الأرض لا أرضي له طرفا منها ، وما كان منها لم يكن طرفا
قد جعل الله هنى الدار تسكنها وقد أهد لك الجنات والنرقا
تشرفت بك عن كل يسكنها قاليس بها المز ، ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدقا والذاز لؤلؤة وأنت لؤلؤة صارت لها صدقا

فأجابه عمارة :

آمنت يا من عجا السادات والخلفاء
جعلتهم صدقا حلوا بلؤلؤة
وإنما هي دار حل جوهرم
فقال لؤلؤة عجا يهيجتها
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه
لولا تجسمهم فيه لكان على
قال الكلب يا كلب أسنى منك مكرمة
وقلت ما قلته في ثلبيهم سخفا
والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدقا
فيها ، وشف فأسناها الذي وصفا
وكونها حوت الأشراف والشرقا
فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
من البرية إلا كل من عرفا
ضعف البصائر الأبصار عتظفا
لان فيه حفاظا دائما ووقفا (١)

فانظر إلى قول عمارة : إن جوهرم هو الذي حل بهذه الدار ، وإن الآيات
سكنتها وكانت تسكن الصحف ، وحديثه عن الجوهر الفرد الذي هو نور تجسم
في الأئمة .

أليس ذلك كله من الأدلة التي نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية
على الرغم من تمسكه بمنهجه السني الشافعي ؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من
الشعراء ألسنة لهم في نشر عقائدهم التي أذاعوها بين هؤلاء الشعراء ، وكيف
استغل الشعراء علم الباطن وخاصة ما خلمه علماء المذهب على الأئمة من صفات
باطنية ، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا
إليهم وينالوا من هباتهم وعتاياهم ، ويقول القلقشندي : كان الشعراء جماعة
كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره ، وكان منهم أهل سنة لا يغلون في
المدح ، وشيعة يغلون فيه . (٢) فكان القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء
الذين مدحوا الأئمة قد ألما في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ولكن بعضهم كان
يسرف في ذلك ، وبعضهم كان يقتصد .

(١) المخطوط ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٢ .

وها هو ذا الكاتب تولى القولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان
الإنشاء في عهد الظاهر والمستنصر ينشد شعراً يدل على أنه كان يتشيع ، ولكنه
كان يعارض الفاطميين في أمور ، فهو يقول :

أنا شيعي لآل المصطفى غير أنني لا أرى سب السلف
أقصد الإجماع في الدين ومن قصد الإجماع لم يفتش التلف
لي بنفسى شغل عن كل من للهوى قرظ قوماً أو قذف (١)

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي ولا سيما شعر
المدح التي قيل في الأئمة واضحة جلياً تراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها ،
كما كان الشعراء من السنة الدعوة الدينية ، فقد سار شعراء في البلاد ورواه الناس
واستغلها السادة في نشر المذهب ، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد
المؤيد في الدين تردد في المساجد ، فطائفة البهرة في الهند تردد إلى الآن قصيدة
المؤيد التي مطلعها :

سلام على العترة الطاهرة .. وأهلاً بأنوارها الزاهرة (٢)

عقب صلاة الفجر كل يوم . ويرتلون قول المؤيد :

أبا حسن يا نظير النذير ولولا وجودك فأت النظر (٣)

عقب صلاة التهجد كل يوم ، وينشدون قصيدته التي مطلعها :

إلهي دعوتك سرّاً وجهرّاً أيا مالك الملك خلقاً وأمرّاً (٤)

عقب صلاة التواقل في رمضان ، ولا سيما في ذكرى مقتل علي . ويرددون

قول المؤيد أيضاً :

هلال بدا من خلال النجفة لإمام زمان من النار جنه (٥)

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٠ (طبعة رقاعى)

(٢) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد .

(٣) القصيدة الخامسة والأربعون .

(٤) القصيدة السادسة والعشرون

(٥) القصيدة الثانية والعشرون

في أول كل شهر عربي . وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر
المستنصر الفاطمي وداعي دعائه على نحو ما يفعله الصوفية في ترتيل الأوراد .
على أن الشعر الذي يلم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة ، والشاعر كان
يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد . وأن يلائم بين هذه العقائد
والألفاظ التي يختارها لشعره . ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر .
ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره وكان ينفق جهدا كبيرا في إنشاد
الشعر . ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل .
ولا غرابة إذا رأينا في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لوفين من الشعر .
فالمقدمة التي كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون . والآيات التي بها العقائد لون آخر ،
يظهر في المقدمة فن الشاعر وطبيعته ، وتظهر في الآيات التي بها العقائد صناعة
الشاعر وتلاعبه . وقل أن نجد شاعرا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله .
أو بين فنه وعلمه . ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذي كثر في العصر
الفاطمي ظهر مرة أخرى في شيء من القوة في شعر الصوفية . وهو الشعر الذي
كاد يكون الشعر الرمزي في الأدب العربي — وسنرى ذلك في حديثنا عن شعر
الصوفية في المصور التي تلت عصر الفاطميين — ويكفي أن أقول الآن : إن
شعر الصوفية هو تطور شعر العقائد الفاطمية ، وكذلك تأويلات الصوفية هي
تطور لتأويل الباطن عند الإسماعيلية .

وأكثر الشعر الذي يتأثر بالعقائد كان في مدح الأئمة الفاطميين . على أن
هناك شعراء مدحوا الأئمة ولم يقرروا العقائد من قريب أو من بعيد . بل كان
شعرهم في المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء . وغير الفاطميين
من الأمراء ، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك
من الصفات التي جعلها الشعراء للمدحيين . فمن ذلك قول الشاعر أبي الرصمق
في العزيز :

حي الخيام قاني منرى بأهل الخيام
بالأميات فزادي بصائبات السهام
لا عذب الله قلبي إلا بطول الضرام

بقيا لدمر نولي بشرتي وعسراي
كأنما ذلك العيد ش كأن في الأحلام
لم يبق من ترجم به لحادث الأيام
إلا ابن أحمد ذو الطور ل والأياذي الجسام
كفاه أغدق جوردا من واكفات الغمام
يلقى العفاة بوجد ه مستبشر بسام
مظلم ترجميه للنايات العظام
يرى الخطوب برأى أمضى من بالصمصام
قرم له عزومات قفل حد الحسام (١)

ففي هذه الأبيات لا تجد معنى باطنيا في حاجة إلى تأويل ، ولا تجد مدحا في الإمام الفاطمي يختلف عن المدائح التي تقال لغير الفاطميين ، فكل المدحون عند الشعراء يوصفون بالجود والشجاعة وأصالة الرأي إلى غير ذلك من الصفات التي اعتاد الشعراء أن يذكروها ، وأن يصفوا بها الرجل اليوم ، وغدا يصفون بدوه بالصفات نفسها .

وفي قصيدة أخرى مدح أبو الرقيق الإمام العزيز ، ولم يذكر شيئا في حاجة إلى تأويل باطنى ، فقد قال :

سيد شادت علاه له في الملا آباؤه النجب
وله بيت يمد له فوق مجرى الأنجم الطنب
حسبه بالمصطفى شرقا وعل حين ينسب
رتبة في العز شائعة قصرت عن مثلها الرتب (٢)

فكل هذه المعاني ليست باطنية ، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبي طالب ، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوى .

(١) بنية الدر ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم في أخيه الإمام العزيز بالله
هي هذه المدائح المكررة المألوفة ، فهو يقول مثلاً يهنئه بالعيد :

| | |
|--------------------|------------------------------|
| العيد في كل عام | يوم يعيد سنه |
| وأنت في كل يوم | عيد يلوح علاه |
| ونعمة وسعود | للعنفين وجاء |
| يا من تصل المعالي | إليه حين تراه |
| ومن ير اليتامى | من كل خلق سواه |
| لو كان الفضل يوماً | منى لكنت مناه |
| لأن منك استعار الز | مان حسن حلاه |
| فأنت شمس ضحاه | وأنت بدر دجاء |
| كفأك في كل سلم | سحاب صوب نداء |
| وحسن رأيك في الحر | ب سيفه وقناه |
| فأنت بمنى يديه | وأنت أمضى ظباه |
| فاسلم لسعدك يا من | يديم نحس عداه ^(١) |

قالامير تميم يهنئ أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية . ولكنه مع ذلك
كله لم يأت بمعنى واحد من المعاني الدينية التي كان الشعراء يقصدون إليها في مدح
الفاطميين ، ولو شاء الامير تميم أن يأتي بالمعاني الباطنية في شعره لاني بما يعجز
عنه غيره من الشعراء لانه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية فهو ابن إمام
وأخو إمام ، بل كانت الإمامة ستؤول إليه بعد أبيه ، ومع ذلك كله فالشاعر
هنا كان شاعراً محسباً ، أراد أن يمدح الإمام فدحه بهذه المعاني المألوفة .
وفي قصيدة أخرى يقول تميم في مدح العزيز :

| | |
|---------------------------|-------------------------------|
| رأيت معداً كالحسين وإنما | تطول على المولود إن أنجب الجد |
| تعرب فيها مثلاً ذاب رقة | وظرفاً فافى وصف كنه له حد |
| به يشتق السمع الأصم بلفظه | وتشقى برؤيا وجه الأعين الرمذ |

(١) ديوان تميم ، نسخة خطية بمكتبي .

وَأَهْدِي إِلَهُ قَلْبِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ
مَنْ الْمَالِ صَفْرًا حِينَ يَصْبُو لَهُ الْمَجْدُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ كَفِّهَا رَقْدُ
تَضَيِّقُ إِذَا كَانَتْ عِلَاكَ هِيَ الرِّغْدُ
إِذَنْ لَتَسَاوَى فِي الْعِلَا الْجُرِّ وَالْمَجْدُ
لَهُي مَصُونًا لَا يَبِينُ وَلَا يَبْدُو
مَزَزَتْ حَسَابًا لَيْسَ يَنْبُو لَهُ حَدُ
إِذَا لَمْ تَفَارِقْهُ الْحَائِلُ وَالْعَمْدُ
وَعَنَى بِهِ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ مَنْ يَحْدُو
وَصَيِّغُهَا مِنْ حَلِي الْفَاطِمَةِ يَرْدُ
كَأَنَّ لَيْسَ فِي كُلِّ الْعَالِي يَحْسِنُ الْعَمْدُ
أَمْرٌ بِهَا مِنْ لَيْسَ لَكَ الْبَحْمُ وَالْجَلْدُ
لَحَى لَشَلِي مِنْ مِثَالِكَ ذَا الْوَرْدُ
فَرَضِي وَلَا يَفْنِي مَوَاهِبِكَ الْقَمْدُ
إِذَا اعْتَدَرَ الْمَعْرُوفَ عِنْدَكَ وَالْوَعْدُ
وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْمُجْتَدِي لَنْدِي جَمْدُ
لَطِبْكَ مِنْكَ الْآنَ عَنْ كَرَمِ رَدِ
تَسَاوَلَهُ يَوْمَ الْوَعْيِ بَطْلُ نَجْدِ
وَمَا حَنَّ مَشْتَاقٌ تَدَاوَلَهُ الْفَقْدُ (١)

وهكذا يعنى الأمير تميم في مديحه للإمام ، قتل أن تجمد الشاعر يصف أخاه
بمصطلحات الفاطميين ، حتى يخيل لى أن الشاعر المؤيد في الدين الذى جاء بعد
تميم بزهاء قرن من الزمان لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح فهديين
القبائل ، فوضع المؤيد قصيدته التى مطلعها :

مَلالٌ بَدَأَ مِنْ خِلالِ الْمَجْنُونِ لِمَامِ زَمَانٍ مِنَ النَّارِ جَنَّةِ

(١) ديوان تميم ، السابق ذكره .

وجعل هذه القصيدة جواباً لقصيدة تميم بن المعز التي مطلعها :
أسرب منها عن أم سرّب جنه حكيتهن ولستن منه
وفي قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله :

سينبت فضلك مني اللسان إذا نعت الغير توريد وجنه
وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفضل وفطنه
نحلها جواباً لنحل المعز وأسرب منها عن أم سرّب جنه ،

فكان المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام ، لأن الأمير تميماً مدح
إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالغزل ، ونعت الممدوح
بالجمال وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات ، على حين أن المديح عند
المؤيد هو من صميم الدين .

وأشيد على بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن متهوك
أبي نواس يمدح فيها الحاكم بأمر الله ، منها قوله :

إن الزمان قد نضر بالحاكم الملك الأغر
في كفه صنب ذكر قد عدا على القصر
من غره على الغرر يعضى كما يعضى الصبدر
في سرعة الطرف نظر أو السحاب المنهر
بادد إتفاق البدر بدر إذا لاح بهر^(١)

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناعة الدوح في مدح الحاكم ، وقد
حدثت لزلّة في مصر :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتلياً نجل العلا وسليل السادة الصلحا
مازلت مصر من كيد يراد بها وإيجاً وقصت من عدله فرحاً^(٢)
فأنت قرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية ، ولا تجد أثراً
لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم .

(١) مجمع الأدباء ج ١٥ ص ٨٥ (طبعة رقاعى) .

(٢) المغرب ص ٨٥ ويقال إن الشاعر أشيداً في كافور .

إذا نحن أمام لونين من المديح الذي قيل في الأئمة ، اللون الأول هو ذلك الشعر الذي مدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هي من خصائص الفاطميين . وفي هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين . اللون الثاني من المديح فهو ذلك المديح الذي اعتاد الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء ، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر فقط ، وقل أن نجد فيه أثرا للبيئة التي تحبب بالشاعر إلا من ناحية واحدة ، وهي الظروف التي أنشد فيها هذا الشعر ، ولذلك نرى الشعراء الذي وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم في مصر كما كانوا ينشدونه في أي بلد آخر من البلاد الإسلامية .

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم في المواسم والاعياد التي كثرت في العصر الفاطمي ، وكثيرا ما كانت هذه الأيام ، وكثيرا ما كانت المناسبات التي ينشد فيها الشعراء مدائحهم . ففي يوم فتح الخليج مثلا كان صاحب الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإشادة^(١) ، وما أنشد في هذه المناسبة قول ابن جبر :

فتح الخليج فقال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام فعرفها الإعطاء^(٢)

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتقوى الشعر وقده ، فإنهم لما سمعوا هذه الأبيات انتقدوه في قوله : « فقال منه الماء » وقالوا : أي شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ وأن الشاعر أضع ما قاله بعد ذلك المطلع .

وفي هذه المناسبة أيضا أنشد مسعود الدولة وكار مقدم الشعراء في عصره :

ما زال هذا السد ينظر قبحه إذن الخليفة بالتوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول
بجرى كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه كافور بطيب المنديل

(١) للقريري ٢ ص ٢٦٥ (٢) المصدر السابق

ولكن هذه القصيدة أيضا لم تعجب السامعين إذ اتفقوا عليه أيضا قوله
في البيت الثاني وقالوا : « أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه » (١) .
وأشاد الشاعر أبو العباس أحمد في مناسبة قمع الخليج قوله :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد | للليل أم لك يا بن بنت عم |
| أم لاجتماعكما معا في موطن | واقبتا فيه لأصدق موعد |
| ليس اجتماع الخلق إلا للذي | حاز الفضيلة منك في المولد |
| شكروا لكل منك لوفائه | بالسعي لكن، ميلهم للأجود |
| ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله | بالقصد ليس له كن لم يقصد |
| هذا بين ويعود ينتقض تارة | وتسد أنت النقص إن لم يزد |
| وقواه إن بلغ النهاية قصرت | وإذا بلغت إلى النهاية تبتدى |
| فالآن قد ضاقت مسالك سعيه | بالسد فهو به بحال مقيد |
| فإذا أردت صلاحه فاقح له | ليرى جنابا مخصبا وثرى ندى |
| والأمر يقصد العرق منه فاشكا | جسم فصح الجسم إن لم يقصد |
| واسلم إلى أمثال يومك هكذا | في عيش مضبوط وعز محظوظ (٢) |

فشعر المناسبات كثير جدا في العصر الفاطمي ، حتى إن الخليفة الحافظ مل
طول الشعر وكثرته فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم ، فلم يعجب ذلك الشعراء
فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه :

أمرت أن نصوص المدح مختصرا لم لا أمرت ندى كفيك مختصرا
واقه لا بد أن تمرى سوابقتنا حتى يبين لها في مدحك الأثر (٣)

فكان الشعر ينشد في مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التي كانت تقام لأي حادثة
صغرت أم كبرت ، فإذا تم عمل شمسية لبيت الحرام مثلا أشاد الشعراء ، من
ذلك قول الأمير تميم وقد تم عمل هذه الشمسية في عهد المعز لدين الله :
إليك مدت رقابها العرب والملك ماء طليك منسكب

(١) القرظي ج ٢ . (٢) المصدر السابق

(٣) الحريرة ورقة ١٠٦ ب وابن ميسر ص ٨٥ .

وأنت في دوحه النبوة لا
أست من يرهب الإله ولا
وكما قال بدء عزيمته
فهكذا يصدع الملوك إذا
ويردهى الدين بالمعز لدين الله
وكل رحاحة عزائمه دلا
وهذه الدوة التي ذخرت
يا حبذا ذمرك الزلال إذا
وحبذا القصة التي نصبت
قايست العيد وهي حله
ينهب ياقوتها العيون فما
دوائر أحبذت بغرتها
كأنما درها وجوهرها
فظمتها الهدى وليت
في كبد المسجد الحرام بها
فلا تسمى بأمله زمن
عليك صلى الإله ما طلعت

تألف إلا عدائك الريب
يصده عن حدوده سبب
بمنهب لم يخالف العقب
صالت ، وتنق الضلالة الشهب
والمرهفات واليب
صها ، والرماح والقضب
فلم يسعها الزمان والمقب
أمر دمر ، وعصرك الثنوب
يقصر عنها المديح والمخطب
وأخفت اليوم وهو متصب
يكل الأمر حيث ينتهب
أمة لا تحفها السحب
نجوم ليل سماؤها ذهب
وإن سخطن الكواكب العرب
شوق ، ولبيت نحرها طرب
إلا بما تشتهي وترقب
شمس ، وما أهل عارض لجب (١)

فبالرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية ، وأن
المدوح إمام المنهب لم يشأ الأمير تميم أن يلجأ بشيء من العقائد الفاطمية في هذه
القصيدة وإنما أشد الشعر للناسبة فقط ، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم
نجد هذا الشاعر أشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات
مختلفة فإذا قصد الإمام مدحه الشاعر ، وإذا شكنا من مرض مدحه ، وإذا
سافر مدحه ، وإذا أهداه شيئا مدحه ، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت
بمناسبة الأعياد .

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٢٢ (نسخة خطية بمكة)

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة ، فلم يستجب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم ، وظل محافظاً على مذهبه معتزلاً بخلافة العباسيين ، وظهر هذا في الشعر المصري ، فقد قيل : إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها :

إنا سمنا نسا منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطالع
أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم بقصر عنها طمع الطامع (١)

وقول الآخر في الحاكم ، وقيل بل في العزيز :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحنافة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي ، وقد هجا رجال العصر وعرض بالعزيز بالله ، وسرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود من كان إليهم بعض الدواوين في العصر الفاطمي ، فالفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانهم وتقوؤهم وادعائهم العصمة للأئمة . فإن بعض الشعراء لم يأبه بذلك ، وعرض بهذه العقائد وسخر هؤلاء الأئمة

الأمير تميم بن المعز :

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مرارا وسنذكره مرارا فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، وهو الشاعر الذي يقرن دائماً بالشاعر ابن المعز العباسي ، لما بينهما من تشابه ، فكلا الشاعرين من بيت خلافة . وكلا الشاعرين من شعراء البديع . وكلاهما من أكثر من الوصف والمجون وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة ، فهما متشابهان في أمور كثيرة جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائماً .

(١) ابن خلكان ج ٣ ص ٥١ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦

ولد الأمير تميم بالمغرب وفيها نشأ مع إخوته عبد الله ونزار وعقيل ، وكان تميم أكبرهم سناً ، فلم يشك الناس في أن ولاية المهدي ستكون له ، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ، ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين هو ما عرف عن تميم من مجون ولجور ، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمر صفلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يساير الأمير تيميا ويشاركة في طوره وفسقه . ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صفلية رد خطابه وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق ولجور (١) ، ولما قمت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وبقي أسرته ، وفي مصر توفي عبد الله (ولي العهد) فجعل المعز ولاية عهده إلى ابنه الثالث نزار الذي لقب بالعزير ، ولعل لهذا هو السرفيا نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تميم إذ كان يمدح أخاه الصغير العزيز بالله ، ولكنه لم يستطع أن يخفي ما في نفسه من آلام وشعور بحتم وغيب ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره ، ولكن عاطفته في الشعر هي عاطفة القانط الحاقد ، فهو يقول مثلاً من قصيدة في مدح العزيز :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| تهون على صغار الأمور | وبصفر عنى جميع الوزى |
| أنا ابن المعز سليل للعلا | وصنو العزيز إمام الهدى |
| وما احتجت قط إلى ناصر | ولارحت يوماً ضعيف القوى |
| ولم أستشر في مسلم يثوب | مشيراً أرى منه ما لا أرى |

(١) نس ما ورد في سيرة جوذر من ١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية - مكتوب) .
ولما وصل أحمد بن الحسن من صفلية ، وكان واجداً على ولده طاهر لصيته مع الأمير تميم
وما منع من القول منهما فأراد قتل ولده طاهر هذا إلا أنه استأمر الأستاذ (أى جوذر)
على ذلك وشارره فيه ، فلم يجد الأستاذ بداً من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أى المعز)
فصرف إليه الجواب وهو :

« يا جوذر كثر أفة من أولياتنا مثل أحمد فوافقه ما كان يشبهه عندنا وبصوره غير صورته ،
إلا بعض أنباءه الذين زينوا لهذا الهدى الشق ولده صعباً من كان سبب شقوته . ووافقه إن توجنا
كتوجنا بمن لنا . لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى .
إذ كان الخطة التي رفعها من أولادنا هي خطة الطهارة . ومن عندها كان كلاً على =

ولست بوان إذا ما أمر زمان ، ولا فرح إن حلا (١)
فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه وبنسبته للأئمة الفاطميين وعدم
مبالاته بصروف الفخر ، ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر تلك النفس
الناقة الحاقدة ، ويقول يفخر أيضاً :

ليس من ساد عن وراثة جد أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكر ويحوى مدائح المداح
إنما السيد المولى المفدى من علا للعلا صدور الرياح
ورى ليل كل خطب بهم بذكا أضوا من المصباح
واقنى المز بالطبا والعوال واشترى الحمد بالثنا والباح
فكذا تسمى المكارم والمجد ويستبعد العود الملاحى
لاكن قد جرى برجل سواء وسما طائرا بغير جناح
لا ألفت الصلا ولا ألفتى إن توسمت دونها بوشاح
أو رفعت أو تشاغللت عنها بأباطيل قينة أو براح
لا ولا ابيض لى منى المجد إن لم أستجد غسله بزف الجراح
وألقى العداة عنه بعزم علوى بفل حيد الصفاح
ويطش يضرى المهاجم والأعضاق فرى المدى لحوم الأضاحى
أنا فرد النهى ورب المعالى وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال يوم يقدر الندى بلا مفتاح
أنا كالجسد فى الأمور إذا ما كان عيشى فيهن مثل المزاح

==مولاه والمحدثه عن ملساء وسر، فأما ما أراد أن يضله أحد بولاه فادعته وتشفع له عنده ،
وعرفه أن الصواب لإصلاح كل فاسد من غير ظلم شفقة يطبقه عارها ويبنى ذكرها مع الأيام
فأينحى عليه أن ذلك يبنى فى الأعقاب فليسك ويعمل ما يصلح فيها يستقبله فكونه بين أيدينا
يصلح فساد كل فاسد كما يسمى به بينهما ونحن نداوى عليهم ، فن أطاعنا لم يهتق ، وافته لقد
نكس انه رهوس كل من كان انصبب للعبادة بهم ، لما رآوه من فضلنا عليهم وإفطاله ، وكذا
نحب أن يكونوا ما جوارى نحو وزيادة ، لاقى النفس ورجوع التهنيرى فرفه ذلك ليعمل به ،
ولا يحدث فى الصبي حيتا من المكروه إن شاء الله .

(١) ديوان الأمير نجم نسخة خطية بمكتبة .

لا كراع من اتعلا بادعاء وبعرض مجرح مستباح
فسل الجعد عن ضياحي وليلي ومقبلي وغدوتي ورواحي
هل يسر العسلا مقالي وفعل وارتياحي اكسبها واقتراحي
هاكها كالعصيل في حلبة الفخر إذا كان غيرها كالنباح (١)

ويجئ لمن أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز بنا جعل العزيز
يغضب على الشاعر ، وجعل الشاعر يتصل من وشاية الواشين ، فأخذ الشاعر
يتلس الأعداء ، ويقدم الاعتذار ، ويذكر الإمام بأنها شقيقتان . وأن على
الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة . فأكثر قصائد المدح التي في الديوان
تحدث عن هؤلاء الذين يسمون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير .
ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نفي مرة إلى عين شمس ونفي
مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين ، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات
من الشعر يبتهم فيها شوقه إليهم . ويشكو غربته التي اضطرت إليها اضطراراً . فقد
أنشد في عين شمس :

أما كني الحب شوق مومج وأمي مبرح يقطع الأحناء والكبدا
حتى رى البين بالتفريق ألفتنا وحل من وصلنا ما كان قد عقدا
فآه من لوعة مشبوبة وجوى في الصدر لم يبق لي صبرا ولا جلدا
قالت وعبرتها مخلوطة بدم تجرى وأفقائها مرفوعة صعدا
لا تطلب النطق مني بالسلام فما أتق فراقك لي روحا ولا جسدا
فظلت ملتثما من صحن وجنتها وردا ، وحرثفا من ثغرها بردا
وطاويبا في الحشا منها ريس هوى لا أحسب الدهر يبل عهده أبدا

وأنشد وهو في الرملة وأرسل بها لي بعض أهله في القاهرة :

أنتم في المنام حلبي وأنتم في انقباهي سؤلي وأتم مرادى
كل عضو مني إليكم مشوق زائد شوقه على الأبداد

لم أفرقكم ولكن جسي . بان عنكم وحل فيكم تؤداى
فهينا لكم وقان عليكم وهنينا للمين طول السهاد
كلا حتى اشتياقي إليكم فت ليك أنت نعم المناهى

وكان الأمير تميم في مصر يشارك المصريين لهوم ويخرج إلى متزهاتها ،
ويبعث في أديرتها ، وأشد في ذلك كله شعرا - ستحدث عنه في فصل آخر
من هذا الكتاب - وشعره إن دل على شيء فأنما يدل على رقة شعوره ،
ورقة العاطفة وصدقها . وتوفي هذا الشاعر سنة ٥٣٧هـ .

الفصل الثالث

الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيراً ، وكان الوزير يعقوب ابن كلثوم أول وزير في الدولة الفاطمية ، ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة لقبه العزيز بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب ، فمظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب (١) . فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلثوم في هذه الدولة الفتية إذ ذلك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه ، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلثوم أحد العلماء المبرزين ، وكيف كان يلقي علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه ، ويتناقشون بين يديه ، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد يعطي ويجزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله ويكثر من مدحه . مدحه أبو الرقعمق وعبد الله بن محمد بن أبي الجحوج ، والأمير تميم بن المعز وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين قد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي ، وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر ، فمن هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك أولاً : عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على نحو كل أثر على أو أدبي الفاطميين لخلاف منهج الدولتين ، وثانياً : عند المؤرخين والكتاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فأبوا أن يرووا شيئاً عن شعراء مصر الفاطمية ، وثالثاً : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة فأطاحوا بحضارتهم من أرق الحضارات التي شاهدتها العالم وشاهدتها تاريخ الفكر البشري وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة

(١) خط العزيز ج ٢ ص ٨ وشرح الأمل ج ٢ ص ٤٨٢ .

أخرى تقوم مقام هاتين الحضارتين ، وكان الأبراك شديدي التحصب للذهب
السنى فأزلوا قمتهم على كل ما هو شيعى ، أضف إلى ذلك كله الجماعات الكثيرة
والاضطرابات المدينة التي سببت معنا عديدة لمصر ، ووصفها القريرى في كتابه
دإغاثة الأمة بكشف الغمة ، فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة
من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم ، وهكذا تضافت قوى عديدة
لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمى ، حتى إن الذى بقى من هذا كله أصبح
مختبلا تافها بالنسبة لما كان في عهد الزاهر . فقد بقى لنا جزء من قصيدة لأبى
الرقصق في مدح ابن كاس وهي :

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| لم يدع العزيز في سائر الأثر | ض عدوا إلا وأخذ فاره |
| فلماذا اجتباها دون سواء | واصطفاه لنفسه واختاره |
| لم تشيد له الوزارة مجدا | لا ولا قيل رفعت مقداره |
| بل كساها وقد تخرمها النحر | جلا لا وبهجة ونضاره |
| كل يوم له على نوب النجر | وكر الخطوب بالبنل غاره |
| ذو يد شأنها الفرار من البند | ل وفي حومة الوغى كراهه |
| هي فلت عن العزيز عداه | بالعطايا وكثرت أنصاره |
| هكنا كل فاضل يده تسمى | واضحى تقاعة نضاره |
| فاستجره فليس يأمن إلا | من يقيا بظله واستجاره |
| فإذا ما رأته مطرقا به | حل فيما يريد أفكاره |
| لم يدع بالذكاء والذهن شيئا | في ضمير الغيوب إلا آثاره |
| لا ولا موضعا من الأرض إلا | كان بالرأى مدركا أقطاره |
| زاده الله بسطة وكفاء | خوفه من زمانه وحذاره (١) |

قالشاعر في هذه الأبيات بمدح الوزير ، ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمى
كنا وسعه فنه ومواهبه في الشعر فهو لم يستطع أن يغفل الإمام من قصائده ،
وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرا

(١) ينهيه البحر ج ١ ص ٢٣٩

فبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه . وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون
الوزير حتى يتقربوا به للإمام ، فدح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهي الاتصال
بالإمام ، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر
الفاطمي ، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسرون مرافق البلاد ، ويختارون
الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر
وزراء ذلك العصر من رجال القلم أمثال الجرجاني واليازوري وابن الخزيق
والبجلي وغيرهم من الكتاب . ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم في
الوزراء وفي مدحهم فمن الشعراء من هجا الوزراء كالنبي وأبناء من هجاه ابن كليث :

وهجاه أبو محمد القاسم الرسي بقوله .

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مداس
فإنا أردناه لكافور شربة فزاد على تقريرنا ألف مجلس (١)

وكذلك روى أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير علي بن أحمد الجرجاني
وزير الظاهر لإعزاز دين الله ، وكان هذا الوزير أقطع اليدين بسبب خيانة
ظهرت عليه أيام الحاكم . فلما ولي الوزارة استعمل العفان والأمانة ولكن
ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه :

يا أحقا اسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق
أفت نفسك في التقات ، وهبك فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى قطعت بذاك من المرافق (٢)

وقال الشاعر الحسن بن خاقان في هجاه الوزير الفلاحى وزير المستعمر .
حجاب وإعجاب وفرط نكلف ومد يد نحو الملا متكاف
فلو كان هذا من وراء كفاية عندنا ولكن من وراء تحفظ (٣)

ونحن نعلم أن الفلاحى كان يهوديا وأسلم ، وأن أباسعد التستري مدير

(١) البنية ج ١ ص ٣٣٠ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦٢ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٢ .

الدولة إذ ذاك كان يهوديا ولناك قال أجد الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العرز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
بأهل مصر إني نصحت لكم يهودوا قد تهود الفلك (١)

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، وحلت بالبلاد
تلك الشدة العظيمة اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف وأن يتخذ
عندهم وزراء له، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف
الإسلام ناصر الإمام كافل قضاء المسلمين وهادي دواة المؤمنين أبو نجم بدر
الجلالي، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ ولكنه لم يلبس خلع الوزارة إلا سنة
٤٦٨ هـ، وصار صاحب الكلمة الثاقفة في البلاد التي كانت خاضعة للفاطميين،
وأصبح الإمام الفاطمي شبه أسير في يدي الوزير، وظل بدر الجلالي في منصبه
إلى أن توفي سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمي بأشهر، فتولى الوزارة بعده
ابنه القاسم شامشاه الأفضل، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى
الدرى حتى إنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ لم يبقا بقيدة من أم عقائد
الفاطميين في الإمامة، هي النص على من يلي الإمامة، إذ الإمام لا يد أن ينصر
قبل وفاته على خليفته، وأن يبلغ ذلك إلى حجة وحجج الجزائر، ولكن
الأفضل بن بدر الجلالي أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص، وهو نزار بن
المستنصر، وجعلها إلى المستعلي بالله وهو ابن أخته وكان صغير السن وبذلك
انقسمت الدعوة إلى فرعيها النزارية والمستعلية، وكان هذا الانقسام من أهم
الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية، والخلافة الفاطمية، وأضعفت
هبة الإمام بين الناس وشك في إمامته بعض الأتباع والأشباع، ومهما يكن من
شيء فقد أصبحت الوزارة هي القوة المحركة للبلاد كما فاتحه الشعراء إلى الوزراء
يعدسونهم ويأخذون حياتهم وصلاتهم، وتثب الوزراء في بذخهم بالآفة
فأسرفوا في كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معا، وأحاطوا أنفسهم بهالة.

آية الملك وألقابه؟ واتخذوا لأنفسهم حاشية هي أشبه شيء بحاشية الملوك
والسلاطين، وعقدوا مجالس الشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بني العباس
والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم، فانتقل أكثر الشعراء من مدح
الأئمة إلى مدح الوزراء.

وكان من الوزراء من ينفد الشعر، فالأفضل بن بدر الجمالي كان شاعرا،
ومن شعره قوله في غلامه تاج المعالي

أقضيبي يميس أم هو قد وشقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقا عليه وهو كالبدر حين وأفاه سعد^(١)

ومن قوله أيضا في جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق،
هو كان شديد الغيرة على نسائه فلما جرى له برأسها قال:

نظرت إليها وهي تنظر ظلما فزهت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها حذاراً ومن مسك لها في النوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها لما كان يرضى باجتماع الكواكب^(٢)

فهذه الأبيات التي بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور وقدره
على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة.

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق جيد الشعر، وكان يثيب على شعر
الشعراء^(٣) وكان شاور وولده الكامل وضرغام ممن ينشدون الشعر —
وستحدث عنهم جميعا بعد قليل — فمؤلاة الوزراء الشعراء استطاعوا أن
يكونوا لأنفسهم حاشية من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان
سلطانهم الفعلي، فكل الشعراء من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحهم.

فمن وفد على مصر الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليسي، وفد على بدر
الجمالي، ويقول عاقمة: قصدت بدر الجمالي فرأيت أشراف الناس وكبراهم

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٠.

(٢) ابن ميسر ص ٦٠.

(٣) الذكاة ص ٥٥.

وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم ، فلم يصلوا إليه ، فبينما أنا كذلك إذ خرج
بدر يريد الصيد فخرجت في أثره وأقت معه حتى رجعت من صيده ، فلما قاربني
وقفت على تل من الرمل ، وأومأت برقعة في يدي ، وأنشدت :

نحن التجار وهذه أعلقتنا در ، وجود يمينك المتباع
قلت قفتها بسمعك إنما هي جوهر تختاره الأسماع
كسد علينا بالشأم وكلنا قل النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها ومطيا الآمال والأطباع
حتى أناخوها ببابك والرجا = من دونك الثمار والبياع
فوهبت ما لم يسطه في دهره هرم ولا كعب ولا انقناع
يا بدر أقسم لوبك اعتم الورى ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا^(١)

الأفضل وشعراؤه

ويعد عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاهدها
مصر الإسلامية ، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء ، نذكر منهم مسعود
العله وأبا علي حسن بن زيد ، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب ، والناجي
المصري ، وسالم بن مفرج بن أبي حينة ، ومحمود بن نصر الإسكندراني ،
ومروان بن عثمان الكلي ، وابن البرقي ، وظافر الحداد ، وأميه بن أبي الصلت ،
وغيرهم من شعراء الخريدة . ومن الشعراء الذين ذكروا أميه في رسالته الموسومة
« بالرسالة المصرية » ، وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء ،
ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر . ولعل « الرسالة المصرية »
من أقدم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت
بمصر في عهد الأفضل ، ومؤلف هذه الرسالة هو أميه بن أبي الصلت .

أميه بن أبي الصلت ورسالته المصرية :

لم يكن أميه بن عبد العزيز بن أبي الصلت مصرية ، إنما هو أندلسي وقد على
مصر في عهد الأمر بأحكام الله ، واستطاع أميه أن يتصل بالأفضل ، وكان سببه

(١) ابن ميسرة ص ٣٠ .

هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالي - وكان في منزلة قريبة جداً من الوزير -
فاتصل به أمية مادما وقربه الأمير مختار، وكان أمية يجتهد أيضاً بصناعات الطب
والنجوم ، فأنس به تاج المعالي كما أنس منه العلم والفضل ، وكان جمهور المثقفين
من المصريين قد اتفقوا حول أمية يأخذون عنه العلم والآداب ، فقدمه تاج المعالي
إلى الوزير وأثنى عليه ، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء وإجماعهم على
قدمه وتميزه عن كتاب وقته واشتدت صلة أمية بالوزير ، ولكن الحساد من
الكتاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أمية بالأفضل ، فأخذوا
يتحينون الفرض للإيقاع بأمية حتى واتتهم الفرصة ، ذلك أن الوزير قلب ظهر
المجن لتاج المعالي واعتقله ، فوجد الكتاب السليل للنيل من أمية فوشوا به لبي
الأفضل فحبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر ، إلى أن شفح فيه بعض
وجوه المصريين ، فأطلق سراحه وسار إلى المغرب واتصل بالمرتضى أبي طاهر
يحيى بن تميم صاحب القيروان وحظى عنده وحسن حاله إلى أن توفي بالمهدية
سنة ٥٢٩هـ (١).

استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين ، وأن يعرف
أحوالهم وطبقاتهم وطبائهم ، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عرفت
بالرسالة المصرية ، وصف فيها مصر جغرافياً ، وعرض لبعض المدن المصرية ،
وتحدث عن النيل ومناجمه وزيادته وقصانه ، وروى شيئاً مما قيل في النيل من
شعر ، وما أنشد في مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه ، فستطيع أن
نعد هذه الرسالة القيمة من الكتب القليلة الممتعة التي وصلتنا عن هذا العصر ،
كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية في مصر أو من حفظ لهم شيئاً
من الشعر من المصريين . أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض
علماء أهل مصر في ذلك الوقت ، ولا سيما ممن كانوا يتعاملون صناعات الطب
والتنجيم ، بقول أمية عن المصريين : والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام
النجوم وتصديقاً لها وتمويلاً عليها وشغفاً بها وسكوتاً إليها ، حتى إنه بلغ من

(١) واجع ترجمته في هيون الأنبا ، ج ٢ ص ٥٢ . ومعجم الأعيان ، ج ٢ ص ٣٦٦ وابن خلكان

زيادة أمرهم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تنحصر
قوتها ولا تحصل أجزاءها وأنحاءها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا
تعدد ضرورها إلا في طوابع يختارونها^(١) . ويقول عن أطباء مصر في ذلك
العصر : « وأكثر أطباؤها المزبرقين نصارى أو يهود ، ، وفي ذلك
يقول بعضهم :

أقول للسليين طرا تبغون في طبها اشتاراً
هيات حارتم محالا كونوا إذن هودا ، أو نصارى^(٢) .

ويحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا بعيدين عن الحضرة فقال عن القاضي
علي أبي الحسن بن النضر ، المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب : ذو
الآدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد
الطولى ، والرتبة الأولى ، وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها الأفضل
تصرفاً وخدمة ، غاب فيه أمه ، وضاع رجائه ، فقال يعاتب الزمان :

بين التعزز والتذلل مسلك
فأسلك في كل المواطن واجتنب
ولقد جلبت من البضائع خيرها
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله
ظنا شبيها باليقين ولم أقل
ولعائبي بالحرص قول بين
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم
وإذا أبي الرزق القضاء على امرئ
ولعمرو عادية الخطوب وإن دمت
بأدى المنار لعين كل موقف
كبر الآبي وذلة المتعلق
لأجل مختار وأكرم متق
لا بد أن تفتت وإن لم تنفق
إن الزمان بما سقاني مشرق
لو كنت شمت سحابة لم تطرق
أصل الرجاء بحبل غير الأوثق
لم تكن فيه حيلة المستزق
خطى بهم تشقت وتفرق^(٣)

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدجرجاوى
المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد ، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل

(١) الرسالة المصرية نسخة جغرافية بدار الكتب المصرية . (٢) المصدر السابق .

(٣) الرسالة للمصرية

فوص وغيرهما ، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر أوائل القرن السادس للهجرة .

كان أمية أستاذاً لبعض المصريين ، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره أبو عبد الله العامي الذي ظل مخلصاً لاستاذه ، وكان يتردد عليه إبان نكبته وسجنه ، وينقل ياقوت عن أبي عبد الله الشامي : وكنت أختلف إليه إذ ذاك فدخلت إليه يوماً فصادفته مطرقاً ، فلم يرفع رأسه إليّ على العادة ، فسألته فلم يرد الجواب ، ثم قال بعد ساعة : اكتب . وأثبنتني :

وكان لي سبب قد كنت أحسبني أحظى به ، فإذا دأى هو السبب
فما مقام أظفاري سوى قلمي ولا كتاب أعدائي سوى كتي

فكتبت عنه رسالته فقال : إن فلانا تليذني قد طعن في عند الأمير الأفضل^(١) : ويرى ياقوت أيضاً أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن أخذ العلم عن أمية وروى عنه^(٢) ، وكان لأمية عدد من الأصدقاء وطلبيتهم ظافر الحداد الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية وحزن لسفره وبعده عن مصر ، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين ويذكر أمية بالأيام التي قضياها معاً ، والقصيدة هي :

ألا هل لدائي من فراقك إفراق هو الهم لكن في لقائك تزيق
فيا شمس فضل غربت ، ولضوئها على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد عهداً منك هم عهد بقلي عهد لا يضيع وميثاق
يمجده ذكرك بطيب كما شدت وربقاء كثرنا من الأيك أوراق
لك الخلق الجزل الرفيع طرازه وأكثر أخلاق الخليفة إخلاق
لقد ضاء لتي يا أبا الصلت مذناً ديارك عن داري هموم وأشواق
إذا عزني إطفائها بعمامعي جرت ولها ما بين جفني إحراق
سماي يمدوها زفير يجره خلال التراق والترائب تشهاق
وقد كان لي كنز من الصبر واسع قلى منه في صعب النوائب إنفاق

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٢٦٥ .

(١) ياقوت ج ٢ ص ٢٦١ .

وسيف إذا جردت بعض غرارة
إلى أن أبان البين أن غراره
أخى، سيدى، مولاي. دعوة من ص
لئن بعدت ما بيننا شقة النوى
ويدي إذا كلفتها العيس قصرت
فعدى لك الود الملازم مثل ما
ألا هل لا يانى بك الفر عودة
ليالى يديننا جواب أعادنا
وما بيننا من حسن لفظك روضة
حديث ، حديث كلما طال ، موجز
يرجيه بحر من علومك زاخر
معان كأطواد الشواخ جرة
به حكم مستنبطات غرائب
قلو عاش رمطاليس كن له بها
فيا واحد الفضل الذى العلم قوته
لئن قصرت كتي فلا غرو إنه
كتبت وآفات البحار تردما
بحار بأحكام الرياح فإنها
ومن لى أن أحظى إليك بنظرة

لجيش خطوب صدها منه إرهاق
غرور ، وأن الكنز قهر وإملاق
فما وليس له من رق ودك إعتاق
ومطرده طامى الغراب خفاق
طلائح أنضاهما زميل وإعتاق
يلازم أعناق الخائم أطواق
كعهدي ، وثقرا اثفرا أشنب براق
من القرب كالصنوبرين ضمها ساق
بها حسدت منا المسامع أحداق
مفيد إلى قاب المحدث سباق
له كل بحر فاقض الحج رقرق
تضمنها عذب من اللفظ غيداق
لأبكارها الفر الفلاسف عشاق
غرام وقلب دائم الفكر تواق
وأهلوه مفتاق يشم وذواق
لعاتق عند والمقادير أوهاق
فإن لم يكن رد على فإغراق
مفاتيح فى أبراهن وأغلاق
فيسكن مغلاق ويرقأ مهراق (١)

فهذه القصيدة التى بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبى الصلب إن
دلت على شىء. فإتاما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وقاء وإخلاص
وود ، وما كان عليه أمية من علم وفضل ، وما كان عليه الصديقان من
صناء ووقاء .

أما علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فيقول القفلى : ودخل

(١) عيون الأنبا. لابن أبى أمية ج ٢ ص ٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢ م) .

حصر في أيام أفضالها فلم ينل منها إفضالا ، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالا ، (١) ولكنني أشك في قول القفطي وأزعم أن الأفضل قرب إليه أمية ، وأهزل له العطاء ، فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل ، وكان الأفضل يهزل له النوال . فن شعر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدها يذكر تجريد الصاكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصنة ، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قوما من الأجناد وغيرهم أرادوا الفتك بالأفضل ، فوقع على خبرهم ، وقبض عليهم وقتلهم ، والقصيدة هي :

وهي الكتاب من أشياعها الظفر
سيفا تفل به الأحداث والغير
تنب عنه وتحميه وتقتصر
والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
فن منابرها الأكباد والقصر
في طولن لأعمار المداء قصر
من الحكمة إذا ما استنجدوا ابتدروا
شبهتها خلجا مرت بها غدر
فا يضر ظباها أنها بتر
كالشمس طالعة والليل معتكر
كأنما الدم راح والظبا زهر
قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
عقب النجاح ووعده الله ينتظر
بما يرك ساعات لها آخر
لك الحبول من الأيام والنور
والخيل تردى وقار الحرب تستر
هي الدخان وأطراف القنا شرر

هي العزائم من أنصارها القدر
جردت للدين والأسياف مضدة
وقت إذ قد الأملك كلهم
بالبيض تسقط فوق البيض أنجمها
بيض إذا خطبت بالنصر السنبا
وذبل من رماح الخط مشرعة
بغشها غمرات الموت أسد شرى
مستثمين إذا سلوا سيوفهم
قوم تطول بيض الهند أذرعهم
إذا اتضوها وذيل النقع فوقهم
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا
وإن هم نكصوا يوما فلا عجب
المود أحد والأيام ضامنة
وربما ساءت الأقدار ثم جرت
الله زان بك الأيام من ملك
فه بألك والألباب طائفة
والمعجاج على صم القنا ظلل

(١) أخبار الحكماء، ص ٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ هـ).

إذ يرجع السيف يدي خده علقا
وإذا تمد مد السيف منفردا
أما يهوك ما لاقيت من عدد
هي الساحة إلا أنها سرف
الله في الدين والدنيا فما لها
ورام كيدك أقوام وما حلوا
هيات أين من الميوق طالب
إن الأسود تأتي أن يروعها
أمر نووه ولو هموا به وقصوا
فأضرب بسيفك من نارك منتقا
ماكل حين ترى الأملاك صالحة
ومن ذوى البنى من لا يستهان به
إن الرماح غصون يستظل بها
ليس يصبح شمل الملك منتظا
والرأى رأيك فيما أنت فاعله
أخى شهنشاه غيئا للندى غدا
الطاعن الألف إلا أنها نسق
ملك تبوأ فوق النجم مقعده
يرجى نداء ويخشى عندي سطوته
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد
ولا بصرت بشمس قبل غرته
يا أيها الملك السامى الذى ايتهاجت
جاءتك من كلم الحاكى محبرة
هي اللآلى إلا أن ناظمها
تبق وتذهب أشعار ملفقة
ولم أظلمها لأنى جد معترف

كصفحة البكر أدمى خدما الخفر
ولا يصدك لا جبن ولا خور
سيان هندك قل القوم أو كثروا
هي الشجاعة إلا أنها غرر
سواك كهف ولا ركن ولا وذر
إن المني خطرات بعضها خطر
لو كان سد منته الفسك والنظر
وسط المرين ظباء الربوب العفر
كرقعة العبد لاورد ولا صدر
إن السيوف لأهل البنى تدخر
عن الجرائر تعفو حين تقدر
وفي الذنوب ذنوب ليس تغفر
وما لمن سوى هام العدا ثمر
إلا بحيث ترى الهامات تنتثر
وأنت أدرى بما تأتي وما تذر
كل البلاد إلى سقيا تغفر
والواهب الألف إلا أنها بدر
فكيف تطمع في غاياته البشر
كالحر يوجد فيه النفع والضرر
من قبله يهب الدنيا ويستدر
إذا تبجل سناها أغدق المطر
به الليالى وقر البدو والخضر
تطوى لبهجتها الأبراد والخبر
طى الضمير ومن غواصها الفسك
أولى بقاتلها من قولها الحصر
بأن كل مطيل فيه مختصر

بقيت للدين والدنيا ولا عدمت أجياد تلك المعالي هذه الدرر^(١)
ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو في سجنه بقصيدتين إلى الأفضل
يمدحه بهما . الأولى لامية مطلعها .

الشمس دونك في المحل والطيب ذكرك بل أجل
والثانية بائية مطلعها :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى بها غزلا لنا ونسبيا^(٢)
وفي هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل ، وأيادي
الأفضل عليه ، ومدائح أمية فيه ، ويعتذر إليه من أقوال الوشاة والحاسدين
الذين أغرو الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه ، فثل هذه الآيات
التي أنشدها أمية في الاعتذار عن وشاية الواشين ، تدل على أن صلة الوزير
بالشاعر كانت صلة قوية . وأن الشاعر كان مقربا للوزير فحده الناس ، وأن
الشاعر مدح الوزير فأعطاه الوزير صلات ، ومع ذلك ترى القفطي يدعى أن
الوزير لم يعط الشاعر شيئا ، ويحيل إلى أن القفطي اتهم الأفضل بذلك لأنه
حبس الشاعر مدة طويلة .

ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر ، اتصل فيها
بالحياة المصرية . وشارك المصريين في أعيادهم وحفلاتهم . وأنشد في ذلك شعرا
حفظ بعضه وضاع أكثره . فحافظ من ذلك قوله في النيل من قصيدة
كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا . لازلت تحيي السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدرا . فن رأى الماء خالط اللهبيا !!
كأنما النيل والشموع به . أفق سماء تألفت شهبيا
قد كان من فضة فصار سما . ونحسب النار فوقه ذهبيا^(٣)

وخرج إلى المنزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) طبقات ج ٢ ص ٥٢ . (٣) الرسالة المصرية .

والشعراء خاصة ، ووصف بعضها بالثمن وبالشعر . فن ذلك قوله في بركة
الحبش : فاقترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظلنا من دوحها بأوفي
رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس في خلع البدور ، ونجوم
بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق
بفحة الظللاء . فقال في ذلك بعضنا (ويقصد نفسه) :

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| فه يومى ببركة الحبش | والأفق بين الضياء والحبش |
| والنيل تحت الرياح مضطرب | كصارم في بعين مرتدش |
| قد نسجت يد الغمام لنا | فحنن من نسجها على فرش |
| ونحن في روضة مفوقة | ديج بالنور عطفها ووشى |
| فعاطى الراح إن تاركها | من سورة الهم غير منتعش |
| واسغى بالكبار مترعة | فهن أشقى أشدة المعش |
| فأقل الناس كلهم رجل | دعاه داعى الصبا فلم يطش (١) |

وبالرغم من هذه الآيات التي تدل على أن أمية نعم في مصر بطبيعتها
وطهوها ، وقدره المصريون لعله وأدبه ، لخطى بصداقة عدد كبير منهم ، فإنه
خرج من مصر غاضبا يهجو مصر والمصريين ، شأنه في ذلك شأن دعبيل الخزاعي ،
وأبي تمام والمتنبي وغيرهم من ذوى الأطلاع التي لا تقف عند حد ، فهؤلاء
الشعراء وفدوا على مصر لقصد النوال والمعطاء من أمراء مصر ، فأغدى هؤلاء
عليهم ما وسعهم ، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا المعطاء السخي ، وويل
لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مقامهم ، فما هو ذا أمية يهجو المصريين
جميعا بقوله :

| | |
|----------------------------|---------------------------------|
| وكم تمنيت أن ألقى بها أحدا | يسلى من الهم أو يعدى على النوب |
| فأوجدت سوى قوم إذا صدقوا | كانت مواعدهم كالآل في الكذب (٢) |

نعم هكذا زعم أمية ، كان زعم دعبيل وأبو تمام والمتنبي من قبل ، فصر

(١) الرسالة المصرية ، وخطط القرزى ج ٢ ص ١٥٥ ومجم الأدباء .

(٢) الفضل ص ٥٧ .

التي أكرمت هؤلاء الشعراء فدحوها هي مصر التي مجوها بعد أن رحلوا عنها .

أبو علي الأنصاري :

قلنا إن عددا كبيرا من شعراء مصر اتصل بالافضل بن بدر الجمالي ،
وأُنشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم ، فن هؤلاء الشعراء
أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي أثنى عليه القاضي الفاضل بقوله : « إنه
في قته لم يسمح الدهر بمثله (١) » ، ويقول عنه صاحب الخريدة : « وله قصيدته
في مدح أفضالهم بصفتهم الفرح . يدل إحسانه فيها على أن بحره طامى البهج ،
ودره نامى البهج ، واقتبس منها قوله :

وأبدت العجز منها هذه المهم
ويقظة ما تراه منك أم حلم ؟
تسرعوا على أفق السها الخيم
في مارن الدهر من زيه بها شيم
أن احتوتك وأنت الناس كلهم
حتى ليصر طبا أنها علم
أضحت تجاورها الآساد والأجم
لما تحقن منها أنها حرم
مصور ، وكلا الجيشين مزدحم
فقدم منهم فيها ومنهم
فليس تزع عنها الحزم واللجم
فكلمهم لغار الحرب مقتحم
قد تاملت الأسياف والقدم
لا يستطيل على أعمارهم هرم
للفرقدين وفي سمعتهما صمم
وقد همت فوقها من كفك الديم

جدا قد قصرت عن شأوك الأمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
حتى أتيت بها شماء شامقة
إن الدليل على تكوينها فلسكا
مد من في بلاد الصين ناظره
ترى الكناس وآرام الظباء بها
والطير قد لزمت فيها مواضعها
لديك جيش ، وجيش في جوانبها
إذا الصبا حركتها ماج موكبها
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها
علت أبطالها أن يقدموا أبدا
آمنتهم أن يخافوا سطوة ردى
كانها جنة ، فالقاطنون بها
علت نخلنا لها سرا تمدهه
إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب

(١) الخريدة ص ١١١ .

يا خيمة الفرح الميمون طائرهما . أصبحت فالأ به تستبشر الأمم
ومنها يقول في مدح الأفضل :
ما قال لاقط مذ شدت نمامه . وكم له نعم في طيبها نعم
لو كنت شاهد شعري حين أظلمه . إذن رأيت المعالي فيك تختصم
أزرتك اليوم من فكرى محبرة . في ناظر الشمس من لآلئها مقم
تري النجوم للفظى فيك حاسدة . تود لو أنها في المدح فتقام

ولكن هذا الشاعر النابه ، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات ، لثقافته
بسبب حمد الشعراء له ، ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن
ابن الحافظ ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصاري ودمها في رقاعه ثم سعى به إلى
ابن الحافظ ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري أمر بقتله ،
ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء ، ولا طول
خدمته في ديوان المكاتبات ، فإن هذه الأبيات التي رويناها له في وصف الخيمة
ومدح الأفضل إن دلت على شيء فإنما تدل على أن للشاعر خيالا علقا ومقدرة
مطاوعة لفريض مع حسن دياجة .

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء ، والويل كل
الويل للشاعر الذي لا يجعل شعر مدحه لهم ، فهو يبعد ولا يلتفت إليه ، مهما
ارتفع شعره وأجاد الشاعر ، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بأبن مكنسة
أبي طاهر إسماعيل بن محمد ، فقد اقتلع هذا الشاعر إلى مدح عامل من الأنصاري
يعرف بأبي ملبح ، وأكثر أشعاره فيه ، ولما توفى هذا العامل رثاه
الشاعر بقوله :

طويت سماء المكرمات . وكورت شمس المديح
ماذا أرحمى في حياتي . بعد موت أبي ملبح
ما كان بالنكس الذي . من الرجل ولا الشحيح
كفر الأنصاري بعد ما . عقدوا به دين المسيح

فلما ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به ،

ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكفنة في أبي مليح ، فلم يقبل مدائحهم ، حتى
ينس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول :

مثل بمصر وانت ملك يقال ذا شاعر قدير
عطاؤك الشمس ليس يخفى وإنما حتى الضرر

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذين مدحهم أمية بن أبي الصلت
في رسالته المصرية وأثنى عليه بقوله : « ومن شعرائها المشهورين أبو طاهر
إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكفنة ، شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ،
يفتن في نوعي جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وهزله ، (١) ، فع
ذلك كله لم يوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل ، فظل بعيدا عن
شراء الوزارة .

ولعل ابن مكفنة كان أحسن حظا من الشاعر علي بن عباد بن الإسكندري ،
فقد كان هذا الشاعر منقطعا لمدح الوزير أبي علي بن الأفضل عند ما كان هذا
الوزير مستبدا بالبلاد وبالخليفة ، بل حبس الخليفة الحافظ ، حتى بلغ استبداده
حدا لا يطاق ، واستطاع الحافظ أن يتكلم منه وأن يقتله في الميدان ، وتبع
كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم ومنهم هذا الشاعر ، ويروى
أنه مات في هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها : « تبسم الدهر لكن
بعد تعيين ، وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله .

وقد أعاد إليه الله غائبه فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (٢)

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله ، ويقول ابن ميسر : إن الحافظ أمر
بإحضار الشاعر ، فلما امتثل بين يديه قال له : أنشدني قصيدتك . فأخذ الشاعر
في إنشادها حتى قال منها في بيت :

« ولا ترضوا عن أنجس المناجيس ،

يعني الحافظ وآبائه ، فأمر حينئذ أن يلكه الغلمان حتى مات بين يديه (٣)

(١) الرسالة المصرية . (٢) المريدة ورقة ٩٨ . (٣) ابن ميسر ص ٨١ .

بل كانت هذه القصيدة سببا في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٥٣١ هـ ، فقد روى
أن القاضي عند ما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضيته
طربا ، فلما قتل الوزير صرف القاضي عن عمله وقتل (١) . وعن هذا الشاعر
يقول ابن فضل الله : « علي بن عباد الإسكندري ، شاعر كان يجلو غرر المدائح ،
وكانت من الوزراء تستعطف أئمة قصائده فيرد عليهم مسردها » (٢) .

وكان بين شعراء الأفضل من تهم عليه فهجاء ، ومن هؤلاء الشاعر الملقب
بالتاجي المصري الذي ذكره أمية في رسالته المصرية ، فقد هجا الأفضل بقوله :

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلقه
إن كنت قد فلتنا مراغمة فهي على الكلب بعدكم صدقه

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة للمقرب بن ماضي (٣) .

ظافر الحداد :

على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة
الشعراء وتفوقهم جميعا في هذا الفن ، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من
الثقافة والعلم ، وكان أكثرهم من كتاب الدواوين ، أما ظافر فكان حدادا
بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم واللوان المعرفة إلا بمقدار ، وبلغت به شاعريته
إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره ، واستطاع
بهمرة أن يجالس العلماء والشعراء وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ، ويأخذ
من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته ، فقد رأينا صديقا
لأمية بن أبي الصلت ، ويحدثنا ابن خلكان أن المحافظ أبا ظافر السليبي وغيره
من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد (٤) . وانصل ظافر برجال الدولة
فأعجبوا به وبشعره ، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من طامة الشعب
في حالة متواضعة من العيش . ويروي ابن خلكان قصة تدل على ذلك كله ، تلك
هي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسين الأمدى دخل على والي الإسكندرية

(١) ابن ميسر (٢) مسالك الأبحار ج ١٢ ص ٢١٨١ (مخطوط بدار الكتب

للمصر) . (٣) الحريصة ١١٣٠ (٤) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤١ .

الأمير السعيد بن ظفر فوجده يقطر دهنًا على خنصره ، فسأله القاضي عن سببه
فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه ، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم
قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فاستدعى ظافراً الحداد فقطع الحلقة ، وأنشد بين
يدي الوالي :

قصر عن أوصافك العالم وكثر النائر والناظم
من يكن البحر له راحة بضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر ووهب لظافر الحلقة وكانت من الذهب ويخيل إلى
أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر ، وأن ظافراً الحداد أدرك ما كان
يجول بخاطر الأمير ، فاعتنم فرصة وجود غزال مستأنس ، قد ربض بين يدي
الوالي وجعل رأسه في حجره ، فارتجمل ظافر :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخيل له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جائماً وكيف اطمان وأنت الأسد

فزاد الحاضرون في الاستحسان ، وكأني بظافر وقد طمع في أن يعترف
الحاضرون بسرعة بديته وقدرته على الارتجال ، فقد التفت حوله في قاعة
المجلس ، فوجد شيئاً كان على الباب لينع الطير من دخولها ، فأنشد :

رأيت بيا بك هذا المتيف شياكا فأدركني بعض شك
وفكر فيما رأى خاطري ققلت : البجار مكان الشبك (١)

فهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم
الشعر ، وأن شعره طبيعي لا تكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر بديته ، مما
يجعل الناس في عصره يحبونه ويعجبون به ، وما هو ذا الهاد الأصفهاني يحدثنا
عنه بقوله : « ظافر يحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ،
وشعره بوجه الرقة والملاسة سافر ، وما أكله لولا أنه من مداح المصري والله
له غافر ، حداد لو أصف لسي جوهرياً ، وكان باعترائه إلى نظم اللالي
حرياً ، أهدي بروي شعره الروي للقلوب الصادية رياً ، فياله ناظراً فصيحاً

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ .

مطلقاً جريباً (١) ، ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جمع في ديوان كبير ، ولكن هذا الديوان فقد ، ولم يبق من شعره إلا أبيات من فصلته من ذلك قوله :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| لو كان بالصبر الجليل ملاذه | ما سح وابل دمه ورذاذه |
| ما زال جيش الحب يمزو قلبه | حق وكفى وقطعت أئلاذه |
| لم يبق نفسه مع الغرام بقية | إلا رسيس يحتويه جذاذه |
| من كان يرغب في السلامة فليكن | أبدا من الحنق المراض عياده |
| لا تمدعنك بالفثور فإنه | نظير يضر بقلبك استلاذه |
| يأبى الرشا الذي من طرفه | سهم إلى حب القلوب نقاذه |
| در بلوح بفيك ، من نظامه | نخر به قد جال من نياذه؟ |
| وقناة ذلك لقد كيف قومت | وسنان ذلك اللحظ ، ما قولاده؟ |
| برقاً بجسمك لا يذوب فإني | أخشى بأن يحفو عليه لاده |
| هاروت يعجز عن مواقع سحره | وهو الإمام ، فن ترى أستاذه؟ |
| تالله ما عقلت محاسنك أمراً | إلا وعز على الورى استنقاذه |
| أغريت حبك بالقلوب فأذعنت | طوعاً وقد أودى بها استحواده |
| مالي أتيت اللحظ من أجوابه | جهدى فدام تقوره ولواده |
| إياك من طمع المنى فعزيزه | كذليله وغيبه شحاذه |

ومنها أيضاً :

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| دالية ابن دريد استهوى بها | قوم خداة نبت به بغداده |
| دانوا لوخرف قوله قفرقت | طمعاً بهم صرعاه أو جذاذه |
| من قدر الرزق السنى لك انما | قد كان ليس يضره إقناذه (٢) |

فن هذه الأبيات وغيرها بما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبيعي ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، وقد لاحظ العلماء أن ظافراً الحداد كان لحنة ، واستشهد بقصيدته الزائفة الشهيرة :

(١) الحريفة ورقة (١٦٠) .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ ومجمع الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٣١ (طبعة رطاعى)

حكم العيون على القلوب يجوز
كم نظرة نالت بطرف ذابل
فذار من تلك الواحظ غرة
ياليت شعري والأمانى ضلة
هل لي إلى زمن تصرم عهده
وأزور من ألف البعاد وحبه
ظلي يناسب في الملاحه شخصه
والبدر والشمس المنيرة دونه
لولا ثنى خصمه في رده
تجفو غلالته عليه لطاقة
من لي بدهر كان لي بوصاله
والعيش مخضر الجناب أنيقه
والماء يبدو في الخليج كأنه
والروض في حلل النبات كأنما
والزهر يوم ناظريه كأنما
فأقاحه ورق ، وساقط طله
وكأنما القمري ينشد مصرعا
وكأنما الدولار يزمر كلما
يارب غانية أضر بقولها
فأجبتها : ما عازني نيل الغنى
ما غاب من هضم التفضل ماله

فأخذ عليه العماد قوله «عازني» والصحيح «أعوزني» وأخذ عليه قوله
«تعوز» والصحيح «تعوز» وأخذ عليه قوله «عروز» والصواب «عروز» (١)

(١) المربدة ورقة ٨٧ وكتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب لشهاب الجبازي
ص ٧٥ (طبع بجاي الهند) .

ولكن نسي العهد أن الشاعر مصرى ، وقد ذكرنا في أدب مصر الإسلامية صورا من اللحن الذي وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها ، وقلنا : إن المصريين لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد ، ونحن لا نستطيع أن نؤاخذ ظافرا الحداد بهذه الألفاظ التي لم يراع فيها قواعد الصرف ، فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى القنوي مع معرفته ، إذا أنشد بيتا من الشعر لم يتم يا حرا به (١) . ومن يتتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث فيسجد عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التي هي من مقومات الشعر .

ومهما يكن من شيء فإن حياة ظافر الحداد غامضة ، لعدم وجود ما يكشف عنها ، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ .

شعراء بني رزبك حتى آخر الدولة الفاطمية

قتل الخليفة الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فكتب خدام القصر إلى طلائع بن رزبك وإلى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الخليفة ويستنجدونه على القاتل . وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه ، ولعب الشعر دورا هاما في دعوة طلائع للاخذ بثأر الخليفة فقد كانت قصيدة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحجاب المعروف بالجليس التي أرسلها إلى طلائع بن رزبك من أشد الرسائل التي وصلت إليه أثرا في نفسه ، فطلائع كان شاعرا مجيدا ، ويصفه ابن خلكان بقوله : « كان فاضلا سمحا في العطاء ، سهلا في اللقاء ، عجا لأهل الفضائل ، جيد الشعر ، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين (٢) » . ولذلك كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل .

فمن هذه القصيدة قول الجليس :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| دهتى دن نظم القريض عوادي | وشف فؤادي شجوه المتلادي |
| وأرق عيني والميون هوا جمع | مهموم أفضت مضجعي ووسادي |
| بمصرح أبناء الوصي وعذرة الذ | بي وآل الذاريات ، ودصاد ، |

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٨

(١) الفهرست لابن النديم ٧٩ .

قأين بنو رزيك عنهم ونصرهم
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى
لقد هد ركن الدين ليلة قتله
ندارك من الإيمان قبل دنوره
وقد كاد أن يطغى تألق نوره
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم
وما لهم من منة وذياد
وصم العدا من حاضرين وباد
بخير دليل للنجاة وهاد
حشاشة نفس آذنت بنفاد
على الحق عاد من بقية عاد
ومصرعهم لم تكتحل برقاد^(١)

جاء طلائع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة واستولى على الوزارة . وإذا قلنا الوزارة فإتاما نقصد أنه تولى الحكم الفعلى في البلاد ، ولذلك لقب بالملك الصالح . وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعلماء والشعر والشعراء ، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه ، ونقل العباد عن خطبة ديوان الصالح : « فقد نشرت أيامه مطوى المهتم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، وفهقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعد ما ركدت ، إذا لها الملوك بالقيان والمعاذف ، كان طوه بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخر والقر ، كانت أوقاته معصورة بالتهى والأمر^(٢) ، ووصفه عمارة اليمنى بقوله : « فكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف ، وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة ، وكان شاعرا يحب الأدب وأمله ويكرم جليسه ويبسط أنيسه^(٣) ، ويروى عمارة قصة وقوده على مصر أول مرة ، وكيف دخل متنكرا في زى رسول من قبله على الأجل أبو الهيجاء صهر الملك الصالح ، وطلب إليه أن يحمل عند مشوثة السجود عند السلام على الخليفة والوزير ، فسأله أبو الهيجاء عن عمارة فقال له : هو فقيه وعنده حلف من الأدب ، فقال : تعنى شاعرا قال : نعم . قال : هذه تقيصة في حقه فلما كان في اليوم التالى استدعى أبو الهيجاء للغداء عند الصالح ، فقال أبو الهيجاء : عندى رسول صاحب مكة ، وكنت أضنه عاقلا وإذا هو ناقص ، فقال له الصالح :

(٢) الحريرة ورقة ٣٢ ب

(١) النجوم ج ٥ ص ٢٩٢

(٣) النكت ص ٤٨

وبأى شيء عرفت قصه؟ قال : لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذى تعلمه
أنت والجليس وابن الزبير . قال الصالح : لعله شاعر ؛ قال : نعم . قال الصالح :
هاته ، هات الرجل ، ثم أنشد :

إن الذى تكرهون منه ذاك الذى يشبه قلبى (١)

فهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن
وزيك كان مولعاً بالشعر مقرباً للشعراء ؛ ومن عجب أن يجتمع فى بلاطه أكبر
أعيان أهل الأدب ، مثل : الجليس والموفق بن الخلال وابن قادوس والمهذب بن
الزبير والرشيد بن الزبير وغيرهم الذين وصفهم عمارة بقوله : «وما من هذه
الخلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر
نصيب ، وما زلت أحنو على طرائقهم ، وأعرض جذعنى فى سوابقهم ، حتى
أثبتونى فى جراتهم (٢) ، فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون فى مجلس الملك الصالح
يتناشدون الشعر ، ويتناظرون فى بعض المسائل العلمية والأدبية ، ويستمعون
إلى شعر الملك الصالح ، وفى ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة : «وجعل له
جلساً فى أكثر الليالى يحضره أهل الأدب ، ونظم هو شعراً ودوته ، وصار
الناس يهرعون إلى قهل شعره ، وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه ، يقال له : ابن
الزبير (٣) ، ويظهر أن الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة ، ولكنه
كان يعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير ، وعلى غير المهذب عن كان يتوسم
فيهم مقدرة وكفاية على تثفيف الشعر ، إذ يحدثنا عمارة العيني : «ودخلت إليه
ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين وخمسة مائة قبل أن يموت بثلاث
ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليته ، فأمرنى
بذهب ، وقال : لا تبرح . ودخل ثم خرج إلى وثى يده قرطاس قد كتب فيه
بيتين من شعره عملهما فى تلك الساعة ، وهما :

نحن فى عفة ونوم وللو ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا ليت شعرى متى يكون الحمام؟

(١) التكت من ١٢٢ - (٢) التكت من ٣٥ - (٣) النجوم ج ٥ ص ٣١٣ -

ثم قال لي : تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان (١) .
فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر في عصره لإصلاح شعره ، وليس في ذلك
ما ينقص من قدرته في الشعر ، والمؤرخون يحدوثونا أن بعض فحول شعراء
العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فروان بن أبي حفصة
شاعر هرون الرشيد الرسمى كان يعرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى
يعرض شعره على أبي تمام ، وكان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعي
أو غيره من اللغويين ، فإذا كان الملك الصالح جلائع بن رزبك قد استعان
بالمهذب أو بهارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره ، فإن ذلك
يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر ، فلم يستبح لنفسه أن يعرض
شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه ، ولمكن ياقوت
ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير : « وقيل : إن أكثر الشعر الذي
في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير (٢) ، ولا أدري من أين استقى
ياقوت هذا الخبر ، وربما اشتبه عليه الأمر فظان أن ابن الزبير هو صاحب
الشعر الذي في ديوان ابن رزبك بدلا من أنه كان يثقف هذا الشعر ، وقد
انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك
الصالح ، منها :

ولسار فطنته تريك لشعره عذبا يروى غلة الظنآن
وعقود در لو تجسم لفظها ما رصعت إلا على التيجان
وتزهت عن أن يرى أفوادها لحواضع الأقراط والآذان
من كل راققة الجمال زهت بها بين القصائد غرة السلطان
سيارة في الأرض لا يعتاقها في سيرها قيد من الأوزان (٣)

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات ، وإن كان ابن الزبير قد
غالى في وصفه له ، ولكنه كان يمدح صاحب الملك ، ومهما يكن من شيء فإن

(٢) معجم الأدباء، ج ٩ ص ٤٧

(١) النكت ص ٤٩

(٣) الخريدة ص ٤١

المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان أكثراً من قول الشعر ، حتى جمع شعره في ديوان من جزأين ، ولكن الذي بقي لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة ، من ذلك قوله يتنزل :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| ومبهف مثل القوام سرت إلى | أعطاه النشوات من عينه |
| ماضي اللماظ كأنما ملت يدي | سبى غداة الروح من جفنيه |
| قد قلت إذ خط المدار بمسكة | في خده أقبه لالاميه |
| ما الشعر دب بعارضيه وإنما | أهدابه تفضت على خديه |
| الناس طوع يدي وأمرى ناقد | فبهم وقلبي الآن طوع يديه |
| فأصعب لسطان يعم بعده | ويجور سلطان الغرام عليه |
| واقه لولا اسم الفرار وأنه | مستبح لغررت منه إليه (١) |

ويحدثنا العباد في الخبرية أن أبا الحسين علي بن قيسر أئند في الملك الصالح قصيدته التي أولها :

لا فرق بين خياله ووصاله
في سرد ما طله وفي تحقيقه
والتي منها :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| واقه ما الشمس في إشراقها | وضياء بهجة كبيض شروقه |
| لا تجعل المجران بعض عقوبتي | فكلف السلوان غير مطيقه |
| بلغ إلى المسلك الهام أمانة | تبليغها للحر من توفيقه |
| حتام حطى في الحضيض وإنه | في الفضل عند الناس في عيرقه |
| مثل بمصر وأنت مالك رقه | مثل العقاب مفرداً في نيقه |
| ولقد أشاع الناس أنك في الوردى | من ليس ينفق باطل في سوقه |
| أبطل بنور العقل سلطان الهوى | واعمل بكل الجهد في تطليقه |

فأجاب به الصالح بقصيدة منها :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| نقنق التأديب عندنا في سوقه | وبدا اليقين لنا بلع بروقه |
| أهدى لي القاضي الفقيه عرائسا | فيها بديع الوشى من تميمه |

فأجلب طرفي في بديع رياضه
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت
أدب سعى منه إلى غاياته
ولقد علمت بأن فضلك سابق
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان في
وأرى الزمان جرى على عادته
والشوق في قلبي تضرم وجهه
والدمع من عيني مسح ، فهل يرى
تزهت في بستان نظمك ناظري
أنت امرؤ من قال فيك مقالة
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي
وكذا الكريم فهل لاموره
هذا النجاح فكل ما قد رمته
من ورده وبهاره وشقيقه
يد عاشق تهوى إلى معشوقه
وأني فسد عليه مر طريقه
يعتد من جراه من مسبوقة
شأو امرئ أصبحت غير مطيقه
في جمه طوراً وفي تفريقه
فتى أراه يكف عن تحريفه
من بجره يوماً نجاة غريقه
فخطيت من زهر الربا بأنيقه
خالى فكل الخلق في تصديقه
من دون حاجاتي أقل حنوقه
لا مهمل أبداً أمور صديقه
قد هم قانظ منه في تحقيقه (١)

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التي بقيت لنا من شعر الصالح أن ندرك
أن الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني أكثر من عنايتهم باللفظ ،
وأنه لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات ، ولكن
التشبيهات تأتي في شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع ، ولم يكن الصالح
شاعراً لحسب ، بل كان من علماء المذهب ، ويقول المقرئ : إن له قصيدة سماها
الجمهرة في الرد على القدرية ، وإنه صنف كتاباً سماه الاعتقاد في الرد على أهل
الاعتقاد ، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه ، وهو كتاب يبحث في إمامة علي بن أبي
طالب والأحاديث النبوية التي وردت فيه (٢) . وتوفي الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ
وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيق بن الصالح وكان شاعراً مثل أبيه ،
ناقداً للشعر عارفاً بجيده من رديئه ، ويقول عمارة عنه : وأما فيه فكان يعرف
جيد الشعر ويستحبه وبشيب عليه (٣) .

(١) المخطوطة ورقة ٦٩ ب . (٢) خط ج ٤ ص ٨٢ . (٣) النكت ص ٥٥ .

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال :

لا يقولن جاهل بالقوافي ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع عليم بمقادير أهلن خبير (١)

ولكن عمارة أتى عليه الثناء كله ، لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل ، يقول عمارة : « ومن نحاسن أيامه وما يؤرخ عنها ، بل هي الحسنة التي لا توازي ، واليد البيضاء التي لا تجازي . خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيهقي إلى الباب واستخدامه . (٢) فكان دقة إحساس الملك الناصر ، وتذوقه للشعر والكتابة الفنية . ومعرفة للجيد من الشعر والنثر ، جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة ، ولولا ذلك لظل القاضي الفاضل مغموراً مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الخطوة . فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم . فلا غرو أن رأينا عمارة التي يرفع من شأن هذا الكشف ويعده ، الحسنة التي لا توازي واليد البيضاء التي لا تجازي ، ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له ، وموقف القاضي الفاضل منه ، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء ، وتلك الحسنة سيئة .

لم تمهل الأيام الملك الناصر إذ قتل سنة ٥٥٨ هـ . وعموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام . وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكي في أمر هذه المنازعات ، وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر ، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضي على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر . لم ينس الوزراء الشعر والشعراء . فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء ، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء . ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغاماً قصيدة منها :

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب دينا أبا حسن يبقى على الحقب

(١) المصدر نفسه ص ٥٣ .

(٢) الذبكت ص ٥٠ .

أيامك البيض لا تحصى ، وأفضلها يوم خصصت به في قاعة الذهب
وفيت للصالح الهادي وقد غدرت به الصنائع من ناء ومقرب
فقال ضرغام : لو قلت (بعدت) كان أصلح من (غدرت) . قلت : إنما
أردت مقابلة الوفاء بالهدر . قال : وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر (١) ولعل هذه
القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر ، ونفاذ بصيرته في قده . وفي هذه الأيام
العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفي كبار شعراء العصر . فالجلس توفي
سنة ٥٦١ هـ وفي هذه السنة عينها توفي المهدي بن الزبير ، وتوفي الرشيد بن الزبير
سنة ٥٦٢ هـ . ولم يعد الشعراء يتكبرون كما كانوا يتكبرون من قبل . فقد ذكر
عمارة أنه أشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبيس إبان
وزارته الثانية ، ومن هذه القصيدة :

أسمع بذنا الفتح المبين وأبصر
فتح أضاء به الزمان كأنه
فتح يذكرنا وإن لم نفسه
فتح تولد يسه من عصرة
حملت به الأيام إلا أنها
ويقول فيها :

قلقاء أول فارس إن أقدمت
هانت عليه النفس حتى إنه
ضجر الحديد من الحديد وشاور
حلف ، الزمان ليأتين بمثله
يا فاتحاً شرق البلاد وغربها
خيل ، وأول راجل في المسكر
باع الحياة فلم يجد من يشتري
في نصر آل محمد لم يضجر
حشت يمينك يا زمان فكفر
يهنيك أنك وارث الإسكندر

يقول عمارة : وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوت عزمي على
الاستعفاء من عمل الشعر ، لأن الناس فيما تقدم كانوا يظنون الشعراء بما ليس يفوقها
جودة . (٢) وبالفضل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاء عمارة من قول الشعر .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ وما بعدها .

(١) النكت ص ١٤٦ .

وأمر أن ينقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، لأن التكسب بالشعر والتظاهر به أصبح قبيحة في حقه . فسأله شاور : فما منعك أن تستعني في أيام الصالح وابنه ؟ قال عمارة : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليل بن الحباب وبابن الزبير الرشيد والمهذب ، وقد اقرض الجليل والنظراء ، قال : تعني ، ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائه (١) ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعراً في الحوادث التي كانت في هذه الأيام ، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، فقد أنشد عدة قصائد يهتف فيها بانتصاره على الصليبيين وينصره لآل بيت الرسول ، ويشبه جيوش صلاح الدين بأفكار النبي ﷺ فهو يقول مثلاً :

| | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| بل الشرف الراقى إلى قمة النصر | ذلك الحسب الباقي على عقب الدهر |
| بها المهمم العليا إلى شرف الذكر | كذا قليكن سعى الملوك إذا سعت |
| أقلتم بها الأندام من زلة العثر | تهضتم بأعباء الوزارة نهضة |
| كشفتهم بأنوار الغنى ظلمة الفقر | كشفتهم عن الإقليم غمته كما |
| جرينم لها مجرى الأمان من الذعر | حيتم من الإفرنج سرب خلاقه |
| ودائرة الأنصار أضيق من شبر | ولما استغاث ابن النبي بنصركم |
| وما اشتقت الأنصار إلا من النصر | جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجاً |
| وأولها بالنيل من شاطئ مصر | كتائب في جيرون منها أواخر |
| أضامت مكان الدين ليلاً بلا فجر | طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة |
| تراسلكم في كل يوم مع السفر | وآبت إليكم يا بن أيوب دولة |
| فككنتم بها الإسلام من ربة الأسر | حي الله فيكم عزيمة أسدية |
| وقلتم لا يدي الخيل مري على (مري) | أخذتم على الإفرنجي كل ثنية |
| عبرتم ببحر من حديد على الجسر | لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم |
| فقرتم بها والصخر يقرع بالصخر | طريق قارعتم عليها مع العدا |
| كما لم مهزوم من الليل بالفجر | وأزعجه من مصر خوف يسله |
| بسيبك لم ترك لصيرك من عندنا | وكم وقعة عذراء لما اقتضضتها |
| ولكنها بالجود جارة الكسر | وأيديكم بالبأس كاسرة العدا |

(١) للمصدر منه ص ٨٦ .

أبوك الذي أضى ذخيرة مجدك
ومن كنت معروفا له فاستغزه
توفره وسط الندى كرامة
وتخلفه حربا وسلبا خلافة
وكم قت في بأس وجود وربة
ولو أطلق الله الجسادات لم تم
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
بكم آمن الرحمن أعظم يثرب
ولو رجعت مصر إلى الكفر لاطوى
ولكن شددتم أزره بوزارة
فهنيتم فتحا تقدم حمله
وما بقيت في الشرك إلا بقية
وعند تمام الملك آتى مهنا
ولولا اعتقادي أن مدحك قرينة
لما قلت شعرا بعد إعفاء خاطري
فأوص بي الأيام خيرا فإنها
وجازتني : تسهيل إذني عليكم

وأنت له خير النفاث والذخر
بمثلك فيه فهو في أوسع العندر
وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
تؤلف أضدادا بمن الماء والبحر
بما سره في الخطب واللمت والشعر
لنعتمك بالمستحق من الشكر
لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
وآمن أركان الثنية والحجر
بساط الهدى من ساحة البر والبحر
غدا لفظها يشق من شدة الأزر
وبشر أن الكل يتلو على الإثر
تمتها في ذمة البيض والسر
وملتسا أجر الكهانة والزجر
أرجى بها نيل الثوبة والأجر
ولى سنوات منذ تبت عن الشعر
مصرفة بالنهى منك وبالامر
ومقاكم لي بالطلاقة والبشر^(١)

ولما قتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة وجدنا بعض
الشعراء يعرضون في أشعارهم بالوزير المقتول ، بل يهجوونه أقبح هجاء ، فالشاعر
حسان عرقلة - ولم يكن مضريا وإنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر وأنشد
شعرا في الحوادث التي جرت في هذه الأوقات - قال لما قتل شاور وتولى
شيركوه قال :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة له شيركوه العاضدى وزير
كان ابن شاذى والصلاح وسيفه على يديه شير وشجير

(١) كتاب الترويضين ج ١ ص ١٦٢ (طبعة مصر سنة ١٣٨٢) .

هو الأسد الضاري الذي جبل خطبه . وشاور كليب الرجال عفور
بني وطني حتى لقد قال قائل على مثلها كان اللعين بدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير
وقال في قصيدة أخرى :

إن أمير المؤمنين الذي مصر حماه وعليّ أبوه
نصر هلي شاور فرعونها ونصر موماها على شيركوه (١)

وما كانت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى أنبرى شعراء الأيوبيين يمدحون
ملوكهم ويقدمون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر ، وستحدث عن ذلك
في كتابنا عن الأيوبيين ، ويكفي أن تأتي الآن بمثال لهذه الأشعار ، فقد قال أحد
الشعراء يمدح الأيوبيين :

ألستم منزلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل
زنادقة سبجية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفرا ، يظهرون تشيحا ليستروا شيئا وعمهم الجهل (٢)

وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء ، فالشعراء كانوا يلتمسون
الأحداث ليمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم حتى دالت الدولة الفاطمية .

المهذب بن الزبير :

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المهذب ، كان من
أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان . وكان المهذب وأخوه
الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر ، وحلا من أسوان إلى القاهرة . وما زالوا
يرقيان في مناصب الدولة حتى باغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء . .
أما المهذب فقد قدمه القاضي الجليس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيق فخطب
عنده وحصل له من الملك مال جهم ، لم ينل غير المهذب منه أحد مثله ، وأوفد
المهذب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن ، وهناك أتاحت له فرصة جمع كتب
الأنساب ، اتخذها مصدرا لكتاب كبير صنفه في عشرين مجلدا هو كتاب

(١) الروضتين - ١ من ١٥٧ . (٢) المصدر نفسه - ج ١ من ٢٠٢ .

الأنساب ، اطلع ياقوت الخوى على بعض أجزاء منه فوصفه بقوله : فوجدته
مع تحقيق هذا العلم ، وبمضى عن كتبه ، غاية في معناه لا مزيد عليه ، يدل على
اجودة قريحة مؤلفه وكثرة اطلاعه ، إلا أنه هذا فيه حظو أحمد بن يحيى بن جابر
البلاذرى ، وأوجز في بعض أخباره عن البلاذرى ، إلا أنه إذا ذكر رجلا عن
يقتضى الكتاب ذكره لا يتركه حتى يعرفه بجهده ، من لم يراد شيء من شعره
وخبره ، (١) جمع ابن الزبير بين العلم والشعر . وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك
الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير لتقويمه وإصلاحه قبل عرضه على
الناس ، ووصف العباد شعره بقوله : يحكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من
أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه . . . ولم يكن في زمانه أشعر منه ، وله
شعر كثير ، ومحل في الفضائل أكثر ، (٢) ووصف المهذب شعره مرة وهو
يعرض باين الصياد الملقب بالمفيد الشاعر :

فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة ولكنها عن يده ليس تبرح
لهنك ، لا هنت ، أن قصائدي مع النجم تسرى أومع الريح تسرح
وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك ، وكان الوزير يعزى
الشعراء بعضهم ببعض ويمر للاستماع إلى نقائض الشعراء وأما جهم .

يا أيها الملك الذى أوصافه غرر تجلت الزمان الأسفح
لا قطع الشعراء في فائتي لو شئت لم أجبن ولم أنتخع
إن لم أكن ملء العيون فإني بالقول يا ابن الصيد ملء المسح
فلمسكوا عني فلو لا أني أتى على عرضي لذن لم أجزع
وأهم من هجرى لهم مدح الذى رفع القريض إلى المحل الأرفع
ولو أنه ناجى ضميرى في الكرى طيف الخيال برية لم أجمع
وإذا بدا لي الهجر لم أر شخصه وإذا يقال لي الخنا لم أسمع
والناس قد علوا بأني ليس لي مذكنت في أعراضهم من مطمع (٣)

(٢) الخريدة ورقة ١٣٨ .

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب .

فحن أمام شاعر عرف اللسان ، محترم لنفسه بابتعاده عما يعرضه إلى هجاء زملائه ، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنما يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية فن الشعر ، فقد كان المهذب شاعراً من لحول شعراء العربية . ولا أغالي إذا قلت إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربي ، لم تنجب من أبنائها شاعراً له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد وصلت إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله ، فن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي اليمن عند ما قبض على أخيه الرشيد ، بمدحه ويستعطفه ، حتى أطلق سراح أخيه ، ففيها يقول :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| يا ربيع أين ترى الأخبة يعموا | هل أنجدوا من بعدنا أم أتيموا |
| رحلوا وقد لاح الصباح وإنما | يسرى إذا جن الظلام الأعم |
| وتعوضت بالأنس زوحى وحشة | لا أوحش الله المنازل منهم |
| لولام ما بقيت بين ديارهم | حيران أستاذ الديار وأتم |
| أمنازل الأحباب؟ أين هم وأين | ن الصبر من بعد التفريق عنهم؟ |
| يا ساكني البلد الحرام وإنما | في الصدر مع شحط المزار مكتم |
| يا ليتي في النازلين عشية | بمني ، وقد جمع الرقاق للموسم |
| فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة | منكم إذا لبى المحجج وأحرموا |
| إني لأذكركم إذا ما أشرقت | شمس الضحى من نحوكم فأسلم |
| لا تبسوا لي في النسب تحية | إني أغار من النسب عليكم |
| إني أمرؤ قد بهت حظي راضيا | من هذه الدنيا بحظي منكم |
| فسلوت إلا عنكم وقمت إلا | منكم وزهدت إلا فيكم |
| ورأيت كل العالمين بمقالة | لو ينظر الحساد ما فطرت هموا |
| ماكن بعد أخى الذي فارقه | ليبوح إلا بالشكاية لي قم |
| هو ذلك لم يملك علاه ومالك ، | كلا ولا وجدى عليه . شمم ، |
| أقوت منانيه وعطل ربه | ولربما هجر العرين الضيغم |
| ودمت به الأهوال همه ماجد | كالسيف يحضى عزمه ويصم |
| يا راحلا بالمجد عنا والعلا | أزرى يكون لكم إلينا مقدم؟ |

يفديك قوم كنت واسط عقدم
لك في رقايم وإن هم أنكروا
جهلوا فظنوا أن بعدك مغم
فلقد أقر اللعين أن عداك قد
لم يعصم الله ابن معصوم من الآ
واعترضت بدم باكرم معشر
فلمر بجدك إن كرمت عليهم
أقبال بأس، خيز من حلوا القنا
متواضعون ولو ترى ناديمهم
وكفاهم شرقا وبجدا أنهم
هو بندر تم في سما. علام
ملك حماة جنة لغفاته
أثنى عليك بما منفت وأنت من
فانغفر لي التفسير فيه وعده
مع أنى سيرت فيك شواردا
تغدو وهوج الذاربات رواكد
وإذا المآثر عددت في مشهد
وإذا تلا الراون محكم آيا
ركنى برأى إمام صهرك ناقضا

ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم
من كاطواق الحمام وأنعم
لما رحلت وإنما هو مغرم
هلكوا بينهم وأنت مسلم
فات، واخترم اللعين الأخرم (١)
بدوا لك الفعل الجليل وتمموا
إن الكريم على الكرام مكرم
وملوك قحطان الذين هم هم
ما استطعت من إجلالهم تتكلم
قد أصبح الداعي المتوج منهم
وبنو آية بنو ربيع أنجم
لكنه للحاسدين جهنم
أوصاف بجدك يامليكا أعظم
مع ما تجود به على وتنعم
كالدر بل أبهى لدى من يفهم
وتيك تسرى والكواكب نوم
فيذكرها يبدأ المقال ويحتم
صلى عليك السامعون وسلوا
ما أحكم الأعداء فيك وأبرموا (٢)

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الوبير كان من الشعراء الذين
أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديباجته، وأنه كان من
الشعراء الذين لم يندعوا بهرج اللفظ، ولم تبهرهم زيبته، - حقيقة قد ألم ببعض
مقابلات بدعية ولكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا
بالصنعة البديعية، فأفرطوا فيها إفراطا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته

(١) الأخرم هو صاحب الدعوة الدرزية التي ظهرت أيام الحاكم ونادت بالكوفة.

(٢) نصح الأديب، ج ١ ص ٥٠

وسلامته ، وأخلوا بالمعنى في سبيل اللفظ ؛ ولناخذ مثلا آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك ، نستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن شعراء لحول الأمويين والعباسيين :

أقصر فديتك عن لومي وعن عدلي أو ، لا تخذ لي أمانا من يد القتل
من كل طرف مريض الجفن تنشدا الحاظه ، رب رام من بني نعل ،
إن كان فيه لنا ، وهو السقيم ، شفا فربما صحت الأجسام بالعمل ،
إن الذي في جفون البيض إذ نظرت تطريا في جفون البيض والحمل
كذاك لم يشبه في القول لفظهما = إلا كما اشتبها في الفعل والعمل
وقد وقفت على الأطلال أحسبها جسمي الذي بعد بعد الظاعنين بلي
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل عجبت من طلل يبكي على طلل
وكل بيضاء لومست أناملها فيص يوسف يوما قد من قبل
تغنى من الدر والياقوت لبستها لحسنا فلها حل من العطل
بالحد مثنى آثار الدموع كما = لها على الحد آثار من القبل
كان في سيف سيف الدين عن خجل من عزمه ما به من حرمة الخجل
هو الحسام الذي يسمو بحامله زهوا فيفتك بالأسياف والدول
إذا بدا عاريا من غمده خلعت غمد الدماء عليه فامة البطل
وإن تقلد بحرا من أنامله رأيت كيف اقتران الرزق بالأجل
من السيوف التي لاحت بوارقها في أمل هي سحب العارض المطل
ومنها :

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت أعداك غير صليل البيض في القتل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأ نصار لولاك لم ينطق ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد اتسعت فضاق منها عليه أوسع السبل
يرجوك في دفعها بعد الإبه وقد يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل
فأتحاف الردى نفس وكم رضيت بالعجز خوف الردى نفس فلم تبيل
لأن امرؤ قد قلت الدهر معرفة فما أبيت على بأس ولا أمل
إن يروم الصبا عودى فقد عجت من طروق الليالي عود مكتمل

تجاوزت في مدى الأشياخ تجرتي قدما وما جاوزت في سن مقتبل
وأول العمر خير من أواخره وأين ضوء الضحى من ظلة الأصل
دونى الذى ظن أنى دونه فله تعظم لينال المجد بالجبل
والبدر يعظم في الأبصار صورته ظنا ويصغر في الأفهام عن زحل
ما ضر شمرى أنى ما سبقت إلا أجلب دمعى وما الداعى سوى ظال
فإن مدحى لسيف الدين تاه به زهو اعلى مدح سيف الدولة البطل (١)
وأملك تلاحظ في هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر في البيت الثانى إشارة
امرى القيس إلى بنى ثعل وقول امرى القيس :

رب رام من بنى ثعل مخرج كفيه من ستره
وكيف ضمن ابن الزبير في البيت الثالث عجز بيت للدنتى من قوله :
لعل عتبك محمود عواقبه فر بما صحت الأجسام بالعلل
والشاعر في هذه القصيدة ، بل في كل قصائده التى وصلت إلينا من ديوانه
الذى فقد ، يظهر شاعرية حول الشعراء ، تلك الشاعرية الطبيعية التى يصدر عنها
هذا الشعر الجزل الرصين الذى لا تجذله مثيلا بين شعر مصر الفاطمية ، ولعل
ذلك يرجع إلى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ في القاهرة أو الفسطاط ، ولكنه
نشأ في أسوان ، وتطبع هناك بالبيئة التى أحاطت به ، فهى محافظة أكثر من
بيئة القاهرة ، وهى إلى البداوة أقرب ، لبعدها أولا عن بقية بلاد القطر ،
وليبتها الجغرافية التى جعلت منها بلدا يتميز بجو خاص ، وتربة هى مزيج
من أقسام صحراوية وأخرى صحيرية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون في هذا
البلد أو ينشأون فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضرة ، فلعل
هذا هو السبب في أن شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصين جزل لا نجد
فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولا نعومة شعر الأمير تميم
أو إبراهيم الرسى أو حيدرة العقيل ، ولا شعبية شعر ظافر الحداد .

أصيب هذا الشاعر في أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريثا منها
قد حبه شاور ظلما بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب

إبان حصار الإسكندرية ، فأخذ المهذب يستعطف شاور ، ويرسل إليه الأشعار في مدح ابنه الكامل بن شاور ، فن ذلك قوله :

إذا أحرقت في القلب موضع سكنها فن ذا الذي من بعد بكرم شواها
ولان نزلت ماء العيون بهجرها فن أي عين تأمل العيس سقياها
وما اللمع يوم البين إلا لآلـه على الرسم في رسم الديار ثراها
وما أطلع الزهر الريح وإنما رأى اللمع أجياد النصوص لثلاها
ولما أبان البين سر صدورنا وأمكن فيها الأعين النجل مرماها
عددنا دعوى العين لما تحدثت دروعا من الصبر الجميل نزعناها
ولما وقفنا الوداع وترجمت لعيني عما في الضائر عيناها
بنت صورة في هيكل فلواتنا ندين بأديان التنصاري عبدناها
وما طربا صفنا القريض وإنما جلا اليوم مرآة القرائح مرآها
ليالي كانت في ظلام شيبتي سراي وفي ليل النوائب مرأها
تأرجح أرواح الصبا كلما سرى بأقواس ريا آخر الليل رباها
ومهما أدركنا الكأس باتت جفوننا من الراح تبقيتنا الذي قد سقيناها
ومنها :

ولو لم يجد يوم الندى في يمينه لائله غير الشبية أعطاهما
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها سياسة من قاس الأمور وقاسها
ومن كلف الأيام ضد طباعها فعابن أهوال الخطوب فماتها
عسى فطرة تجلو بجلي ونظري صداه فإني دائما أتصداها (١)

فأطلقته هذه الأشعار من سجنه ، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه

وكان للمهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان ، ويتألم لأخلاق الناس حوله
فهم سواسية في التزم . وكان يتطلع إلى المجد ، فهو يفتخر بنفسه ، ويفخر
بشعره ، فهو يقول في إحدى قصائده :

تشابه الناس في خلق وفي خلق تشابه الناس والأصنام في الصور

ولم أبت قط من خلق على ثقة
لا تخدعني بمرئي ومستمع
وكيف آمن غيري عند فائبة
تأني المكارم والمجد المؤثر لي
لأنى لأشهر في أهل الفصاحة من
وسوف أرى بنفسى كل مهلكة
لإما العلا وإليها انتهى أمل
ويقول مرة أخرى .

ومن نكد الأيام أنى كما ترى
أمنت عدائى ثم خفت أحبى
وقد توفى هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ .

القاضي الرشيد بن الزبير :

أما تانى المهديين الأخوين الشاعرين فهو أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير
الضاني ، وكان الرشيد أعلم من أخيه . وأخوه أشعر منه ، فقد ضرب الرشيد
بهم وافر في الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب
والموسيقى والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها : كتاب « منية
الألمى ، وبلغة المدعى ، وكتاب المقامات . ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب
« جنان الجنان . وروضة الأذهان ، الذي تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ
عليها ، وجعله ذبلاً على بقيمة البحر للثعالبي ، وهو الكتاب الذي أخذ عنه
العماد الأصفهاني أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة . وللرشيد
عدة كتب أخرى منها كتاب « الهدايا والظرف ، وكتاب « شفاء الضلة في سمات
القبلة ، وجموعة رسائله ، وديوان شعره ، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد
المصريين وغيرهم . ومحدثنا العماد أن محمداً بن عيسى التتني أخذ عن الرشيد باليمن

علم الهندسة (١) ، ولكن الرشيد عرف بالشعر أكثر مما يعرف بهذه العلوم ،
حتى قيل : إن سبب تقدمه في الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر ،
وحضر المسائم مع الشعراء ، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التي مطلعها :

ما للرياض تميل سكرًا هل أسقيت بالمزن خمرًا
إلى أن وصل إلى قوله :

أفكر بلائًا بالعراق وكربلاء بمصر أخرى

فضع القصر بالبكاء ، واثالت عليه العطايا ، ومن ثم بدأت صلته بالقصر
والوزراء ، ثم أوفد مبعوثًا إلى اليمن ، ولا تدرى الأمر الذي من أجله أوفد
إليها ، وإن كان صاحب كتاب «الفترات والترايات» يشير إلى أن الرشيد لم يكن
رشيداً في بعثته ، ولعل هذه إشارة إلى ما روى أن الرشيد قلد قضاء اليمن
ولقب هناك «بقاضي قضاء اليمن وداعي دعاة الزمن» ، وأنه مكث هناك عامين
فقيل : إنه مدح الأمير علي بن حاتم الهمداني بقصيدة منها :

لقد أجديت أرض الصعيد وأقطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان
وقد كفلت لي مأرب بمأربي فلست على أسوان يوماً بأسوان
وإن جهلت حتى زعانف خندف فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فغسه داعي عدن وكتب بهذه الأبيات إلى مصر ، فكانت هذه الأبيات
سبباً في غضب أولى الأمر بمصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعبدن ، فأخذ
الرشيد وحبس ثم صفح عنه . وقيل : بل إن السبب غير ذلك ، وذلك أن نفسه
سمت إلى مرتبة الخلافة في اليمن فسعى فيها ، وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت
له السكة فنقش على وجهه «قل هو الله أحد» ، الله الصمد ، وعلى الوجه الآخر
«الإمام الأجدد أبو الحسن أحمد» ، فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلاً
ثم أفرج عنه . ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية ، فإن الرشيد وقد علنا
ما كان عليه من علم وحقل ، لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعى الإمامة في الوقت الذي
أنكرت فيه إمامة الحافظ والقاهر والظاهر والعاقد ، ودعى فيه للإمام

المستور وقيام القيامة ، ثم إن مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الأمر بأحكام الله ، فكيف يدعى الرشيد الإمامة في اليمن ، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة وأهمها : أن يكون الإمام من نسل النبي ، وأن يكون الإمام قبله قد نص عليه ، ولعل القائلين بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من النبأ والبله لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعي ، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر نعصياً للذهب والإمامة ، لهذا كله أرى أن الرشيد إنما أمسك وسجن بسبب حقد داعي عدن عليه . وقد رأينا قصيدة أخيه المهذب التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد ، فلم نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة ، وقد علم الرشيد بأمر هذه القصيدة فأجاب أخاه بقصيدة هي :

| | |
|---|-------------------------------|
| ياربع ، أين ترى الأحبة يعموا | ورحلوا ، فلا خلت المنازل منهم |
| وسروا ، وقد كتموا الغداة سيرهم | وضياء نور الشمس مالا يكتم |
| وتبدلوا أرض العقيق من الحى | روت جفوني أى أرض يعموا |
| نزلوا العذيب ، وإنما في مهجتي | نزلوا ، وفي قلب المقيم خيموا |
| ما ضرم ، لو ودعوا من أودعوا | نار الغرام ، وسلوا من أسلوا |
| هم في الحشا إن أعرقوا أو أشاموا | أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا |
| وهم مجال الفكر من قلبي ، وإن | بعد المزار فصفو عيشي معهم |
| أحبابنا ، ما كان أعظم هجركم | عندي ، ولكن التفرق أعظم |
| غبتم فلا والله ما طرق الكرى | جفتي ولكن سح بعدكم الدم |
| وزعمتم أنى صبور بعدكم | هيات لا تقسيم ما قلم |
| وإذا سلت بمن أهم صباة | قلت : الذين هم الذين هم هم |
| النازلين بمهجتي وبمغفلي | وسط السويداء والسواد الأكرم |
| لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى | أنى حفظت العهد لما ختم |
| فاقت حين ظعنتم ، وعدلت لما جرتم ، وسهرت لما نتم | |
| يا محرقة قلبي بنار صدودهم | رفقا ففيه نار شوق تضرم |
| أسعرتهم فيه هيب صباة | لا تعلق إلا بهرب منكم |

يا ساكنى أرض العذيب سقيم
 بعنت منازلكم وشط منازلكم
 لا لوم للأحباب فيم قد جنوا
 أحباب قلبى أعمروه بذكركم
 واستخبروا ربح الصبا تبخركم
 كم تظلبونا قادرين ، وما لنا
 ورحلتكم ، وبصدتكم ، وظلمتم
 هيات لا أسلوكم أبداً . وهل
 وأنا الذى واصلت حين قطعتم
 جلا الزمان على لما جرتكم
 وغدوت بعد فراقكم ، وكأننى
 ونزلت مقهور الفؤاد بيلة
 فى معشر خلقوا شخوص بهائم
 إن كورموا ، لم يكرموا ، أوعدوا
 لا تنفق الآداب عندهم ولا الإ
 سم عن المعروف حتى يسمعوا
 فاقه يفتى عنهم ، ويزيد فى
 دعى إذا ضن الغمام المرزم
 وصهودكم محفوظة منذ غبتهم
 حكمتهم فى مهجتي قتحكموا
 فلعالمنا حفظ الوداد المسلم
 عن بعض ما يلقى الفؤاد المغرم
 جرم ولا سبب ، لمن تنظلم ؟
 ونأيتم ، وقطعتم ، وهجرتكم
 ينلو عن البيت الحرام المحرم ؟
 وحفظت أسباب الهوى إذ ختمتم
 ظلماً ، ومال الدهر لما علمتم
 هدف يمر بجانبه الأسهم
 قل الصديق بها وقل الدم
 يهدا بها فكر الليب ويهم
 لم يعلوا ، أو خوطبوا لم يفهموا
 حسان يعرف فى كثير منهم
 هجر الكلام فيقدموا ويقدموا
 زهدى لم ، ويفك أسرى منهم (١)

فهذه القصيدة التى أجاب بها عن قصيدة أخيه ، والى قالها الرشيد وهو أسير
 فى اليمن ، توريد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه ، إنما هى قصة
 موضوعة ، فالرشيد لم يشر إليها ولم يعتد عنها ، وإنما يتحدث عن أعدائه
 الذين لم يقدروا شعره ، فلم تنفق الآداب عندهم ، ولم يقدروا لإحصائه إليهم ،
 فهم سم عن المعروف ، وهم « شخوص بهائم » . فالرشيد لم يكن بالرجل الذى
 يطلب الإمامة لنفسه ، ثم يقول مثل هذا القول .

كان الرشيد كما وصفه باقوت : على جلالته وفضله ومنزله من العلم والنسب

فيصح المنظر أسود المجلدة بهم الوجه سمج الحلقة ذا شفة غليظة وأقف مبسوط
تكلفة الزوج قصيرا^(١) فكان ذلك سبباً في تهكم شعراء مصر به ، فقد قيل : إن
الرشيد ولي على المطبخ ، فقال الشريف الأخص يخاطب الملك الصالح بن رزيك :

يولي على الشيء أشكاله فيصبح هذا لهذا أما

أقام على المطبخ ابن الزبير فولى على المطبخ المطبخنا^(٢)

ومما يروى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء
والفضلاء ، فألقى الصالح مسألة في اللغة فلم يجب عنها بالإصواب سوى الرشيد .
فأعجب به الصالح ، فقال الرشيد : ما سألت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد
فيها فأرتجل الشاعر ابن قادوس :

إن قلت : من نار خلقت ، وقتت كل الناس فيها

قلنا : صدقت ، فالذي أطفاك حتى صرت لنا

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله :

يا شبه لقمان بلا حكمة وخاسر في العلم لا راسخا

سلخت أشعار أورى كلها فصرت تدعى الأسود السالخا

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت نقش
صورة الشيطان على الخاتم . ولعل بواده ودماسته وقصره كانت من الأسباب
التي جعلته يكثر من ذم الدهر والناس ، وأن يظهر في شعره سمة حزن لعدم
وفاء الإخوان وغدرهم به ، فقد أنشد وهو في اليمن :

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما ظننت بأني قد ظفرت بمنصف

فإنك قد قلدي كل منة ملكك بها شكوى لدى كل موقف

لأنك قد حذرتي كل صاحب وأعلتني أن ليس في الأرض من يني^(٣)

وأنشد مرة أخرى وهو في مصر :

(٢) الخريدة .

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٨ .

(٣) الخريدة ورقة ٢٦ ب .

نواصي على ظلي الأنام بأسرم وأظلم من لاقيت أهلي وجيران
لكل امرئ شيطان جن يكيد بسوء، ولى دون الوردى ألف شيطان (١)
انصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه ، ولى سنة
٥٥٩ هـ النظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية ، ثم انصل بصلاح الدين
الأيوب أثناء محاصرته الإسكندرية ، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه ،
فاختفى الرشيد بالإسكندرية ، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلايس
هذه الأبيات :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| تدانيك دارا والوصول نسوع | تفلك ذو الورد الوصول قطوع |
| حجبت ولم تحجب محاسنك التي | تألق منها يا غمام ربيع |
| وضعت في صون فضعت وهكذا | بمان قيت المسك وهو يعزوع |
| ولئك والبيت الذي قد عمرته | لكالقلب قد ضمت عليه ضلوع |
| وما أنت إلا العصب لازم جفنه | لينضى بكف إذ يروق يروع |
| سيفتق عن زهر بديع كامة | فاذاك من صنع الإله بديع |
| وتسفر عن صبح شرق دجنة | ولاسيا قد كان منه طلوع |
| كأن بها يا بن الكرام مغيرة | لها فوق هاتيك الربوع ربوع |
| بحيث تربك البر كالبحر ذبل | ويبيض ، ويبيض أشرفت ودروع |
| وفرسان حرب لا البعيد عليهم | بعيد ، ولا العالى الرفيع رفيع |
| بنلك لا تعجب ، فإن قاتل | ولئك في الشهر الأصم سميع (٢) |

وظل الرشيد محتفياً إلى أن قبض عليه، وأشهر على جمل ، وعلى رأسه طرطور
ووراءه من ينال منه ، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :

إن كان عندك يا زمان بقية بما تهين به الكرام فهاها
ثم صلب شتقا ودفن حيث شئتق . وهن غريب الاتفاق أن يدفن شاور
بعد أيام قليلة في نفس المكان الذي دفن فيه الرشيد . وروى المجلس بن الحباب
صديقه الرشيد بقوله :

(١) الحريفة .

(٢) ديوان ابن قلايس ص ٦٥ .

ثروة المكرمات بعدك فقر . وعجل الملا بعدك فقر
بك تجلى إذا حلت الدياجي وتمر الأيام حيث تمر
أذنب الدهر في مسيرك ذبا ليس منه سوى إيابك عذرا (١)

القاضي الجليس :

هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي الجليس
السعدي ولقب بأمين الدين (٢) ، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقتدى
بهم عمارة اليمني في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيق ، والاثنان الآخران هم
أبنا الزبير المهذب والرشيدي ، ولكن يُخيل إلى أن الجليس كان أقل الثلاثة جودة
في الشعر ، وأقلهم إنتاجا في القريض ، وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع
الموفق بن الخلال أيام الفائر (٣) ، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام زميله أبي الزبير .
وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر
الخليفة الظافر ، والقدماء يذكررون أن الجليس له المعاني المبدعة في شعره .
ومثلوا لذلك بقوله :

ومن عجب أن الصوارم في الوغى تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج نارا والأكف بحور (٤)

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتت بها في البيت
الأول ، فإن لا أعجب بها كما أعجاب القدماء ، وإن كنت أعجب بالبيت الثاني
ومن مقطوعاته التي حفظت لنا قوله يتكهم بطيب :

وأصل بليتي من قد غزائي من السقم الملح بمسكرين
طيب طبه كغراب بين يفرق بين عاقبتى وبينى
أنى الحمى وقد شاخبت وباخت فعاد لها الشباب بنسختين

(١) ابن خلسكان ج ١ ص ٥١ .

(٢) مسالك الأبحار لابن فضل الله ج ١٢ ص ٢١٨٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٣) نوات الوفيات ج ١ ص ٢٧٨ (٤) للنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧١

ودبرها بتدبير لطيف
وكانت نوبة في كل يوم

حكاه عن سنان أو حين
فصيرها بمخوق نوبتين^(١)

ثم قوله في مدح طيب :

يا وارثا عن أب وجد
وحاملا رد كل نفس
أقسم لو قد طببت دهرنا
لعاد كونا بلا فساد^(٢)

فضيلة الطب والسداد

همت عن الجسم بالبعد

لعاد كونا بلا فساد^(٢)

وكان المجلس من كبار رجال الدولة ، ولقب بالجلس لأنه كان جلس الخلفاء.
مقربا إليهم ، فلا غرو أن رأينا شعره جصره يلوذون به وينشدونه مدائحهم
فيه ، فقد مدحه ابن قلاص بعدة قصائد منها قوله :

عفا طريقي إلى عاقى الرسوم
وكنت أبا المنازل والفيافي
أميل إلى سلافة بنت حكرم
هدتنا للسرور نجوم راح
وكف الصبح يلقط ما تبدي
فإن توجت راحي كأس راح
ولما أقفرت أوكلر وفري
إلى القاضي المجلس استجدتها
فقال لها لسان الدهر : هذا
تقسم بين شمس ضحى وبحر
وجلى ظلمتى خطب وجدب
وسلك حاسديه لجاذبه
عجت لوجهه وراحتيه
ومطلب مداه كبا قلنا

فلا روى الغمام ربي الفصيح

فصرت أبا المدامنة والتديم

وأدنو من سوائف أم ريم

بها قذفت شياطين المهوم

بجيد الليل من درر النجوم

فشرب الإثم أول بالائيم

صرت بعزمتي أكوار كوى

أزفة نجدة وحداء خيم

تمام الفضل أودع في نعيم

هداية قاصد ، وغنى عديم

برأى مجرب وندى عميم

خلاتقه إلى الطبع الكريم

سنا شمس ندى في غيوم

ألم العيش أولى بالذيم

(٢) المصدر منه .

(١) فوات ج ١ ص ٣٧٨

(٣) الخطط ج ٢ ص ٤٢٦ .

وقافية أهر بها إذا ما فطقت معاطف الطرب الرصيم
تسير وإن أقام بها تناء وأعجب ما ترى سفر المقيم^(١)
ومدحه رضى الدولة أبو سليمان داود بن مقدم الذى أنشد قصيدة
في وصف حاله ومدح فيها المجلس ، ومنها :

وقد بكرت لوم على خمولى كأن الرزق يجلبه خيالى
تهدر أتى بالحرص أحوى الـ ثراء وذاكم عين المحال
تقول إذا برأت إرشاد قولى هبت الا تهب إلى المعالى
ومن لم يمشق الدنيا قديما ولكن لاسيل إلى الوصال
ولو أدليت دلوك فى دلا . متحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلل يرد على قذالى
ولا أنا بالكفاف التزر راض ولا أنا عن طلاب الكترسال
ولكن ذاك من قبل اعتلدى على عبد العزيز أبى المعالى^(٢)

كما مدحه الشاعر عمارة اليمنى بعدة قصائد .

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان
مولماً بهجاء القاضى المجلس ، كثير التهم بأتفه الكبير ، حتى قيل : إن ابن
الصياد أنشد أكثر من ألف مقطورة فى ألف المجلس^(٣) ، إلى أن اقتصر له
الشاعر أبو الفتح بن قادوس الذى هجا ابن الصياد بقوله :

يا من يبيع أنوقا الك م التى ليست تعاب
الأف خفة ربنا وقرونك الشم اكساب^(٤)

وتوفى المجلس سنة ٥٩١ هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد ، وقيل : إنه
لما مات ابن الحباب ثمت به المهذب ، ومشى فى جنازته بثياب منجبة ، فاستبح
الناس فعله وقصر بهذا السب^(٥) . ورث المجلس عدد من الشعراء منهم ابن
كلافس ، فن قوله يرثى المجلس ومدح ابنه .

(١) ديوان ابن كلافس ص ١٠٠ (٢) الحريدة ورقة ٩٩ ب
(٣) نوات الرقيات ج ١ ص ٧ (٤) المصدر نفسه (٥) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

فيا حسنات الدهر عدن مساويا
فأعوزنا لما عدنا موازيا
ولم تنتصر فيها الكفا العواليا
فأيقنت لكنى خدعت قواديا
تقاص عن يأسى جناح رجائيا
فلا بد أن يلقى بشيراً وناعيا
ولم أستطع عقراً عقرت القوافيا
شوائد بالذکر الجميل شواديا
وما كن إلا قاضب الحد قاضيا
فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا
وبالبرق ملطوما وبالغيث باكيا
إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
نخف حتى الرى فى الماء صاديا
لراح كمال لا يشتهى عنه شاكيا
وشد على عادى وشداد عاديا
أقاما زمانا يشربان التصافيا
لفقدك فاسمع صالحات بواقيا
فوا أسفاً كيف استحالتم نعازيا
حلاك ملأت الخافقين مراثيا
وأعلاق قلبى باقيات كما هيا
وإن كن يسقى الراتحات العواديا
تسيل بأسراب الدماء المآقيا^(١)

علنا ، وقد مات الكمال ، التساويا
وقنا زجى فى المصاب مواسيا
وما شجا أن المعالى تجددت
سألت ، فقالوا : مصرع لو علمته
فحين احتوت كف المنون على المنى
ومن يسأل الركبان عن كل غائب
ولما سرى بنى نحوه الوجد قاعداً
وسيرت منها بالتوادى نواديا
وعضب جدال قتل الدهر حده
ونور هدى أسرى به خابط الهوى
لمناه قام الرعد بالجو نائما
وأسلبت الظلماء نور غدائر
تخرمه الدهر الخاتل صائدا
ولو دامه شاكى السلاح محسدا
وهيات جر الدهر من قبل جرمها
وكدر قدمانى «جذيمة» بمسدا
جلس أمير المؤمنين أقتها
وقد كنت أجلوها عليك تهاثا
ولولا سبيلك اللذان توارثا
هما ألبسانى عنك ثوب تصبر
سقى الراح الغادى ضريحك صوبه
ولا برحت فىك القلوب عقيرة

همارة النبى :

هو الشاعر الذى يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمى . بالرغم

(١) ديوان ابن قلافس ص ١١٥ .

من أنه لم يكن مصريا . ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم ، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة . وأنشد قصيدته التي مطلعها :

الحمد للعيسر بعد العزم والمهم جدا يقوم بما أولت من النعم
فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بتصيدته .
فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم ، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه
الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس ، وابن الخلال صاحب
ديوان الإنشاء ، وابن قادوس ، والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ومكث عمارة بمصر
حتى شوال سنة ٥٥٥ هـ ثم عاد إلى مكة ، ومنها رحل في صفر سنة ٥٥٦ هـ إلى
وطنه الأصلي اليمن ، وفي هذه السنة ذهب لتأدية فريضة الحج ، فطلب
منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى ، فجهأ إلى مصر حيث
أمضى ما بقى من سقى حياته .

اتصل عمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح
طلائع ابن رزيق حتى انقضت الدولة الفاطمية ، لصاحبه الوثيقة برجال الدولة
إبان هذه الحقبة من الزمان . ويعد شعر عمارة من السجلات والوثائق التي
تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة ، التي أدت إلى زوال الدولة
الفاطمية . فإن الجزء الذي بقى لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد في كل حادثة
ألمت بمصر في هذه السنين ، فقد كان يمدح الوزراء الذين كان يبدعهم مقاليد
الأمور ، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة ، فوجد من الحوادث
مناسبات لهذه المدائح ، كما أنه وجد منها مادة لكتابة النكت المصرية
في أخبار الوزراء المصرية ، وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام
مصر الفاطمية ، كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام
المواسم . ونحن نعلم أن عمارة كان سنى المنصب ، بل كان متعصبا لمنصبه ، ولم
يتحول عن هذا المذهب ، بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يستق
مذهب الفاطميين ، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثر بما كان يجري في مصر ، وأسهم
مع غيره من شعراء مصر في الإشادة ببقاء الفاطميين ، وقد ذكرنا طرفا

من ذلك فيما قبل . ونستشهد الآن بقصيدته النونية التي قالها في رثاء أهل البيت
في عاشوراء ، وختمها مدحا للملك الصالح ، وهي القصيدة التي أوطأ :

شأن الغرام أجل أن يلحاني فيه ، وإن كنت الشفيق الحاني
أنا ذلك الصب الذي قطعت به صلة الغرام مطامع السلوان
ملئت ذجاجة صدره بضميره فبدت خفية شأنه الشاني
بغدت بموقها الدموع فنادت سرى أميرا في يد الإعلان
عنفت أجناتي فقام بعذرها وجد يبيع ودائع الأجنان
وفيها يقول عمارة :

يا ضاحي وفي مجانبه الهوى رأى الرشاد ، فالذي تريان ؟
قبضت على كف الصباية سلو تهي النهى عن طاعة العصيان
أمسى وقلبي بين صبر خاذل وتجلد قصر وهم دان
قد سهلت حزن الكلام لتأدب آل الرسول نواعب الأحزان
فأبذل مشايبة اللسان ونصره إن فات نصر مهتد رستان
واجمل حديث بني الوصي وظلمهم تشيب شكوى الدهر والخذلان
غصبت أمية إرث آل محمد ، سفها وشنت غارة الشنان
وغدت تخالف في الخلافة أهلها وتقابل البرهان باليهتان
لم تقتنع أحلامها بركوبها ظهر النفاق وغارب العدوان
وقودهم في رتبة نبوية لم بينا لهم ، أبو سفيان ،
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم أخذوا بأر الكفر في الإيمان
فأني ، زياد ، في التبيح زيادة تركت ، يزيد ، يزيد في نقصان
حرب ، بنو حرب ، أقاموا سوقها وتشبعت بهم بنو مروان ،
لحق على الثغر الذين أكفهم نحيث الوردى ومعوة اليهان
أشلائهم منق بكل نفية وجسومهم صرعى بكل مكان
مالت عليهم بالتماني أمة باعت جزيل الربح بالخسران
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم بالنصر فيه شواهد القرآن
ما كلف أولام به لو أبدوا بالصالح المختار من غسان ،

أنسام المختار صدق ولاءه كم أول أربي عليه الثاني (١)
فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جرى القوم في عاداتهم -
وفي أشعارهم ، فهو لم يتشيع ، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء
مصر في رثاء أهل البيت في أيام ماتهم ، وشارك المصريين في احتفالاتهم ، فله
عدة قصائد في كسر الخليج ، من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسة
في مدح العاصد :

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النمل والنحل والحجر
وفيها يقول :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| تمل أمير المؤمنين مواسما | تزورك من صوم شريف ومن فطر |
| يوصلها سعد بجمدك مقبل | فعام إلى عام وشهر إلى شهر |
| ركبت إلى كسر الخليج وإنما | ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر |
| ولما رأيت البر بجرأ من الظبا | تعجبت من بحر يسير إلى نهر |
| غدوت بفتح السد في زحف أوعن | يسد هبوب الريح بالأمل السر |
| يرد ظلام النقع لجرا كأنما | أسقه مضبوغة بسنا الفجر |
| كان على البيداء منه صحيفة | كتائبها سطر يضاف إلى سطر |
| إذا خفت أعلامه وبنوده | رأيت عليها غرة العز والنعر |
| وقد خلع التأييد فوقك حلة | تطرز بالإحسان والعدل والبر |
| أوارث مجد الحافظ بن محمد | وحافظ حكم الله في محكم الذكر |
| إذا ما استجاب الله صالح دعوة | فتعك الرحمن بالناصر النخر (٢) |

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر
الفاطمي ، وأن يتأثر بمقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره ، بل بلغ به تأثره
بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم في الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين
ونمت بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة ، فعمارة اليمنى السني المذهب
كان وفياً لهم الوفاء كله ، فأشده قصيدته التي مطلعها :

(١) النسك ص ٣٦٣ وما بعدها (٢) المصدر نفسه ص ٢٣٥ .
(١٧ - أدب مصر)

وميت يادهر كف المجد بالشلل . وجيده بعد حسن الخلى بالمعال
وفها يقول ، بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشأتهم :
واقه لافاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب الله غير ولى
ولاسق الماء من حر ومن ظمأ من كف خير البرايا خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت من خان عهد الإمام العاضدين على
أتمى وهداتى والذخيرة لى إذا ارتهنت بما قدنت من عمل
تافه لم أوقهم فى المدح حقهم لأن فضلهم كالوابل المطل
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت ما كنت فيهم بحمد الله بالتحجل
باب النجاة هم دنيا ، وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى وعمل الفيت إن ربت الأنواء فى المحل
أئمة خلقوا نوراً فتورهم من محض خالص نور الله لم يقل
واقه ما زلت عن حى لهم أبدا ما أخرج الله لى فى مدة الأجل (١)

فكانت هذه القصيدة، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين
لإعادة ملكهم، بتولية ابن العاضد سبياً فى القبض عليه معهم وصلبه
سنة تسع وستين وخمسة، واتهمه الفقهاء بالكفر، وقال فيه تاج للدين
الكندى الشاعر :

عمارة فى الإسلام أبى خيانة وباع فيها بعة وصلبها
فأمر شريك الشرك فى بغض أحد فأصبح فى حب الصليب صليبها
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجدد منه عودا فى النفاق صليبها
سيلقى غذا ما كان يسمى لأجله ويسقى صدايدا فى لظى وصلبها (٢)
وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه إبان موالمهم وعطاياهم
وأكرموا الإكرام كله ، فقابل ذلك كله بوقاء الوفى الأمين .

ابن قلافس :

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلافس

الذمي الإسكندري ، ولقب بالقاضي الأعز ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٥٢٢ هـ .
وبها نشأ وتثقف فأخذ عن المحافظ أبي طاهر السلفي وعن غيره ، ثم رحل عن
مصر إلى اليمن فدخل عدن سنة ٥٦٣ هـ متكبياً بشعره فمدح بها ياسر بن بلال ،
ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥ هـ ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر ، وصنف
باسمه كتاباً سماه : الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم ، وشاء العودة إلى مصر
وتوفي بعيناب سنة ٥٦٧ هـ (١) . فالشاعر كان يتجر بشعره ويرحل إلى المدروحين
بقصد الكسب ، مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نوالهم . مدح
الخليفة الفاطمي بقوله :

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| في مرتقى الوحي تعلو مرتقى الأمل | فأفسح رجاءك واطلب فسحة الأجل |
| لا تتسجع للأمانى بعده دولا | فقد تأملت منه واهب الدول |
| وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت | للناس أيامه عن صفوة الرسل |
| لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته | لعاد واهى قرون الرأس كلوعه (٢) |

ومدح الوزير شاور ، وعرض بشيركوه بقوله :

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| عارض الصفع في يدك الصفاحا | ورأى البأس أن تطيح السماحا |
| خرفعت الجناح عن جدم الذ | نب بعفو خفضت منه الجناحا |
| ووضعت السلاح حين أراك ال | هزم والرأى إن وضعت السلاحا |
| تأى نثر سما إليه أبو الفة | ح قلم يبتدر إليه اقتاحا |
| يخيول طارت بأجنحة الله | مر فراحت بها تبارى الرياحا |
| وكأه غرق قد اقتطموا اللي | ل وضاقوه في العجاج صياحا |
| ورماح تبحى فتجنيك في الحر | ب شقيقا ما كان قبل أاقا |
| وظي تقطع الترائب مهما | أقحت بالضراب حيا لقاحا |
| شاركت شيركوه في النفس والما | ل وصاحت به فصاحا فصاحا |
| طلب الأمن فاستجيب وما به | رف منك الطلاب إلا النجاحا |
| بعد ما ضيق الحمام عليه | سبلا غودرت لديه فصاحا |

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢١٦ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ديوان ابن قلافس ص ٨٨ .

وأقامته كالجنود . حماة ضربت بالقنا عليه القداما
قليل بعدما الفخار قد را ح طليقا ليضكم حيث واحا
يامل للظبا البواتر ضربا ترك الحمد والمصالي صحاحا
فيك لله والخليفة سر أوغصاء لمصر لإضاحا
ذاك أعطاك آية النصر نصر بما ، وهذا أعطاك ما كان سراجا (١)

ومدح الكامل بن شاور والقاضي المجلس والقاضي بن خليف والحافظ
السلقي وابن مصال والقاضي الفاضل وغيرهم من رجال مصر ، فن مدائح
الكامل ابن شاور قوله :

حمد المرى من كنت ونجه مباحه من بعد ذم غدره ورواحه
ورأى النجاح مؤمل ألقته من حسن وأيك فيه ظل جناحه
وأما وهزمك وهو أنهض قاتك لقد انبرى والصفح تلو صفاحه
وبديع مدحك وهو أبقى متجر لقد اغتدى والعز من أرباحه
فالخر بسين فريده وغرندة متقلد بنجاده ووشاحه
بأس تورد في حدود شقيقه وندى تبسم و ثغور أفاقه
والكامل المسود في آفاته بدر جلا الإساء عن إصباحه
بمناقب سمى النجوم ليلها فستخدمتها في رهوس رماحه
ومواهب طان السحاب ممينها ففتفرقت في بحور سماحه
يا آل شاور أتم دون التورى لللك كالأرواح في أشباحه
ولك معاليكم إشارة خرسه وعلى أياديكم تناء فصاحه
لم لا يكون الشكر عندك متيجا ونداك قوام بأمر لقاحه (٢)

ولكنه كان مولماً بالأسفار وركوب البحر ، ولنلك يقول :

والناس كثر ولكن لا يقدر لي إلا مراة الملاح والحادي (٣)

ويقول : في مدح ياسر بن بلال الداهي بمدينة عدن ، وكان قد فارقه ،

(١) ديوان ابن قلاش ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧ .

حولكن سفينة غرقت فعاد إليه مرة أخرى وأثدده هذه القصيدة يصف فيها
غرقه ، ويتحدث عن ولعه بالأسفار :

سافر إذا ما شئت قدرا سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ماجرى طيباً ويخبث ما استقرا
وبنقلة الدرر النقي به بدلت بالبحر نحرا
وصلا إذا امتلات يداك فإن مما خلنا فنجرا
فالبدر أنفق نوره لما بدا ثم استقرا
حركات عيسك ما أودت مهاد عيشك أن يقرأ
إما تريني شاحب الـ وجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخرج أهلها شعثا وغبرا
مدت إلى الأربعين يدا وقد قهرت عشرا
واستحدثت في لمتي تقطا فهلا كن حجرا
ما قلت أف فإنها شرر بأف يعود حجرا
وكفاك أنى إن نظر ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الفرض لا فاستنار الشيب حجرا
ولئن قلب بي الزمان ن كما اشتهى بطنا وظهرا
فبما قلت صروفه وقتله جلدنا وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما الفدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى عرفا ، وليس تراه نكرا
خلق جرى من آدم في نسه وهم حجرا
ومررعى بالبحر يحسب أنتى أرتاع بحرا
أو ما درى أنى بقسـ هيل المصاعب منه أدرى
أصعدت نظرة ، ياسر ، نحوى وسوف تعود يسرا
من صرف الأقدار في أيامه كسرا وجبرا
واستخدم الأيام في أحكامه نهبنا وأمرا
واتاشنى في نظرة أولى سوتجها بأخرى

قالسحب ترشح إذ جرت في إثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جامدا أقماسه تصبا وبهرا
غرس الصنائع في الرقا ب فأنبقت حمدا وشكرا
يقظان ابن نهته عمرا أو استنجبت عمرا
ولرب طرة معرك سوداء أعدته طرا
أسرى إلى أبطالها فأبادم قتل وأسرى
من كل متشح على نهر الدلاص الرصف نهرا
جروا النوائب والنوا بل خلفهم بيضا وسهرا
قالسيف يفرح بينهم بثقيفه ، والضيف يفرى
باراويا عن شخصه خيرا ولم يعرفه خيرا
والم بنان يمينه وقل السلام عليك بحرا
وغلطت في تشييبها بالبحر ، اللهم غفرا
أو لست قلت هذا ندى جما ، ونلت بذاك قفرا
بنواقد ترنو الريا ح لها بطرف المحقد شورا
لا زال ينظر عودها بندا لنن اللتن ففرا(١)

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البدئية في شعره .
بخلاف بعض الشعراء الذين عاصروه أمثال المهذب والرشيد والجليس وغيرهم ،
وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألموا بالمحسنات البدئية ، ولكنهم لم يعتمدوها كما
تعهدنا ابن قلائس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه
المقابلات والتوريات وغيرها من ألوان الرينة الفظية .

• • •

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعر ،
في العصر الفاطمي ، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم ويأخذون
عطاياهم ، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء أنفسهم إبان سلطوتهم وقوة ملكهم ،

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ١٥٧ وديوان ابن قلائس ص ٣٨ .

ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع المتفرقة أو القصائد الناقصة ، ومع ذلك فالذي بقي لنا من الشعر يدلنا على أن نهضة الشعر كانت قوية ، وأن تياره كان جارفاً ، وأن عدد الشعراء المجيدين تضاعف بحيث يخيّل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينشد الشعر ، وأن كتاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء ، ويكفي أن نلقى نظرة على مجاميع الشعر ، أمثال اليتيمة والدمية والحريفة ، أو كتب التراجم ، لنذكر أن عدداً كبيراً جداً من المصريين أنشد الشعر ، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر أن تبرز غيرها في مضمار القريض .

الفصل الرابع

الشعر والحرب الصليبية

يخيل لكل من يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن ، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة ولين ، ألم يتحدث المؤرخون عن النعم الذي كان في العصر الفاطمي ، والترف الذي كان يرقل فيه المصريون ، والحياة الناعمة اللينة التي كان يجيهاها الناس ؟ ولكن المؤرخين أنفسهم تحدثوا أيضا عن لون آخر من الحياة ، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا ، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب ، ويتحينون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت لتشل عرش العباسيين في المشرق والامويين في المغرب ، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين المتيد - أعنى الروم - ودول جنوب أوروبا التي كان يهددها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشقون في حروب صعبة المراس ، هي التي عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية . أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية في مصر وفي ممتلكاتها ، وحروب بين الأمراء لتولى الوزارة ، فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ، وسجل الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم ، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بالله عندما هزم هفتكين الشرايين التركي - مولى معز الدولة البويهى - في دمشق ، ثم طلب العفو من العزيز ، فوصف تميم هذا الحادث بقوله :

وإنا لنعوم نروع الزمان ولنا نراع إذا ما سطا
ومنا الإمام العزيز الذي به عاد سيف الهدى متحنى

سعى للشام وقد أصبحت
فكشفت من ليها ما سجا
ولما قابلت الجحفلان
ولم يبق في الصف من قائل :
وقد ولت في الصدور الرماح
وغنت على البيض بيض الذكور
كان الرماح سكارى تجو
فلولا الإمام العزيز الذي
فسكن عارض شؤبوجها
بدا لهم دارعا في العجاج
يكر وييسم في موقف
ولم يخذل السيف منه يدا
يعود إلى الحرب من جنده
قلو فدت الحرب قوما ، إذن
فلم تصد الرح حتى اثني
ولم يحمل الموت حتى حملت
فا اقترجت عنك إلا وأنت
لجاءك منهم ملوك الرجال
ولاذوا بعفوك مستأمنين
ولما رأى فتحها هفتكين
تولى لينجسو لخت به
ولو طلب العفو قبل الهروب
ولكنه اعتاد فيها الإباق
ورام الخلاص وكيف الخلاص
ولم يك كفؤك في حربه
وقد هزم الأسد حتى انتهاك

بها الحرب نزاعة لشوى
وقوم من زينها ما التوى
وعاد كجبح الظلام الضحى
هل ، ولا من مجيب . أنا
وصلت لبيض السيوف الطلى
غشاء يعيد الفرادى حتى
ل بها الخيل في النقع قب الكلا
تداركها وهي لا تصطل
وأمدك من سجله ما انوى
كصبج بدا طالما في الدجى
عبوس الكفاة به قد بدا
ولم يسكن الروح منه حشا
أسود رجال كأسد الثرى
لفدتك صارخة بالعدا
ولم تعتمد السيف حتى انفرى
ولولاك ما غاب ذاك الغنى
بها الفارس الملك المتقى
وقدتك منهم ذوات السى
ولم يجدوا غيره ملجأ
عليه وأخلفه ما رجا
جيوشك واستوقفته الربا
لكنك له ظفراً ما مضى
وليس الفنى كل يوم حتى
وقد بلغ الماء أعلى الوبى
وإن كان في بأسه المنتهى
فلا رآك غدا لا يرى

فراح وحشو حشاء أسي وقد ملئت مقلناه عمي
أريتهم وقعات تزيد على وقعات النهور الألى
بيخداد من ذكره جولة تذود عن المارقين الكرى
فأنصر ديلها تغدى وتمسى على مثل جمر الغضا
إذا سمعوا بالإمام العزيز أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة تدور عليهم يقطب الرحي
ينادى ، بويه ، بنيه بها ويندبهم وهو رهن البلى (١)

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون وأن نمر بالأشعار التي أنشدتها شعراؤهم في وصف تلك المعارك ، لتتحدث عن شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون ، وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي ، ووقفت أمام مسيحي أوروبا تكافع وتناضل طوال هذه القرون ، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوربيين ، وجعلت آمالهم وأحلامهم قصورا بنيت في الهواء .

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ في عهد المستعل ووزيره الأفضل ابن بند الجبالى ، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية ، ونكتفي بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة في أول الأمر ، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تخاذله وتهاونه ، يد أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعرة النعمان سنة ٤٩١ هـ وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس ، فاضطر حينئذ إلى أن يعيى جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر ، ولكن جيوشه هزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بجوار بيت المقدس ، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان ثم إلى العودة إلى مصر . على أن شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين ، بل سببها ثورة بعض الجنود

(١) ديوان الأمير نجم .

أعلى الأفضل وتأمروهم للفتك به ، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يمتدرون عن الأفضل وعن انهزامه في هذه الحرب الصليبية الأولى . وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود ، كما أن الشاعر بصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالنبوءة عن الدين ونصرة المسلمين ، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي دهمهم ، فهو يقول :

جردت للدين ، والأسياف مضعدة سيفنا تفل به الأحداث والغير
وبعد أن تحدث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب ، أخذ في الاعتذار عن هزيمته ، وتوعد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم والانتصار عليهم :

وإن هم نكصوا يوماً ، فلا عجب قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد والأيام ضامنة عني النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت بما يسرك ساعات لها آخر
وقل المقرئ عن ابن الطوير : أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج ، فوصل إلى عسقلان ، ورحف عليها بذلك العسكر ، فخذل من جهة صكره ، وهي نوبة النصبة ، وعلم أن السبب في ذلك من جنده ، وكان عند الفرنج شاعر متجع إليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح فله دوك من صنجل
وما سمع الناس فيما روه بأفبح من كسرة الأفضل
فوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر (١) .

وعاد الأفضل إليهم ، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكورة ، ولكنه لم يياس من الظفر ، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولي الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج ، فكان يتصرحينا وينهزم حيناً آخر ، وسجل شعرائه هذه الحروب ، فن ذلك قول شرف

(١) للقرئبي ج ٢ ص ٣١٠ .

الدولة ابن جرير أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المعارك التي خاضها ابن
رزيك ضد الفرنج :

أطفي ابن رزيك لهيب ضرامه والبيض تخطب في الروم قسيع
وكتائب للشرك كنت إزاءها متعرضاً فانفض ذلك المجمع
ولكم صرعت من الفرنج سيدنا بلقاته لك قيل : أنت سيدع (١).

وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزيك ، ولم يذكر المعاد الواقعة التي
كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها :

وتلقى العر منه بليث غاب وتخال سيوفه إما اتضامها
وتحسب خيله عقبان دجن وإذا قدحت بمنح الليل أورت
وإن صبحت مع الإصباح عدواً كأن الشمس حين تشر قعما
وما كسفت بدور الأفق إلا وما اضطربت رماح الخط إلا
وما تندق يوم الروع حتى عجت لها تصافح من يديه
ويوردها ولا تحظي برى وهل يشق لها أبداً غليل
إذا لقيت عيون الروم زرقاً تخال البحر مد به خليج
غدت سمر الرماح له عرينا جداول والرماح لها غصونا
يرحن مع الظلام ويفتدينا سنا يعشى عيون الناظرينا
أثارت المعجاج به دجوناً تحاذر من سطاء أن تبينا
أبى إذ أبصرت منه الجبيننا مخافة أن يحطمها ميننا
يدق بها الكوامل والمتونا وتوصف بالظلم ، بجرأ معيننا
فظافاً من دموع الدارعيننا وقد شربت دماء الكافرينا
حسبت نصالها تلك الميونا إذا ما مد بالقضب اليميننا (٢)

ومرة أخرى ذكر المعاد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣ هـ
لحرب الصليبيين ، واتصر الأسطول ، فأندى المهذب بمدح الصالح ويصف
الأسطول . ومن هذه القصيدة فدرك أن الواقعة كانت بالقرب من العريش :

(٢) الخريدة ص ٣٨ .

(١) الخريدة ١٢ .

أعلت حين تجاوز البليان
لما أبوا ما في الجفان قريتهم
ونظت في يوم العريش عروشهم
الجماتهم لبحر لما أن جرى
مدح الوري بالباس إذ خضبوا الغلبا
ولانت تخضب كل بحر زاخر
حتى يرى دمهم وخضرة مائه
وكان بحر الروم خلق وجهه
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما
أحب إلى بها شواني أصبحت
شبهن بالفريان في ألوانها
وقرنتها عدد القتال فقد غدت
حرب عوان حكمتك من العدا
وأعدت رسل ابن القسيم إليه في
والفأل يشهد باسمه أن سوف
وأراك من بعد الشهيد أباه
وهو الذي مازال يفعل في العدا
قتل البرنس ومن عماء أعانه
وأدى البرية حين عاد برأسه
فليته أن فاز منك بسيد

أن القلوب موافد النيران
بصوارم سلت من الأجنان
بشبا ضراب صادق وطعان
منه ومن دمهم معا بحران
في يوم حربهم من الأقران
عن تجاوز بالنجيع الفاني
كشقاتي ثرت على الرمحان
وظفت عليه منابت المرجان
لم يأت في حين من الأحيان
من قسكها ولها العداة شواني
وقمن فعل حكواسر العقبان
فيها لقنا عوضا من الأشطان
في كل بكر ضدنم وعوان
شعبان كيا يلام الشعبان
يندو الفمام وهو عليك قسيان
وجهك من أقرب الإخوان
ما لم يكن ليعمد في الإمكان
لما صا في البني والعدوان
مر الجنا يبدو على المران
أدق برتبه على كيوان^(١)

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون في كتبهم، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين، تلك هي علاقة الملك الصالح بن رزيق بنور الدين زنكي بإبان الحروب الصليبية، فالشاعر هنا يذكر نور الدين، مرة يذكره (بابن القسيم) أي ابن قسيم الدولة أتابك زنكي،

وبذكرة مرة ثانية باللقب الذي عرف به وهو (الشهيد) ، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذي كان بين الملك الصالح وبين نور الدين ، ويقضى هذا الاتفاق على أن يواصل الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام ، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين ، هذا الاتفاق الذي أشار إليه المهذب في هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين ، ويغاب على ظني أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التي كانت بين الشاعر والملك الصالح لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذي كان بين العاملين .

وفي عهد الملك الصالح طلائع بن رزيق ، كان الصليبيون يمحنون في شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان ، ووردت الأنباء بأن عسكر المصريين استولوا على عسقلان ، وقتلوا ما بها من عسكر الفرنج ، وسر المصريون بذلك الانتصار سرورا عظيما نلح أثره في قصيدة الملك الصالح التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر ، وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين :

| | |
|--|--------------------------------|
| وتتضى لدى الحرب السيوف الصوارم | ألا هكذا في الله تمضى العزائم |
| وليس سوى سمر الرماح سلام | وتستزل الأعداء من طول عزم |
| ويوطأ حماها والأنوف رواغم | وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها |
| وإن بدلت قنبا النفوس الكرائم | ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم |
| شي حتى ^{أنتى} ^{أنتى} وهو غام | فذرنا مسير الجيش في صفر فإ أنه |
| مفازز، وخذ العيسر فيمن دائم | بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا |
| عزيمته جهدا عظيما والنجائم | فما هاله بمد الديار ولا شئ |
| إذا هي ما ^{انقضت} ^{انقضت} نيور ^{قشاعم} ^{قشاعم} | يبارى خيولا ما توان كأنه شاع |
| وما يصحب الضرغام إلا الضراغم | يسير بها وضرغام ، في كل مازق |
| تهون على الشجعان فيها الهزائم | وواجههم جمع الفرنج بحملة |
| إذا ما تلاقى العسكر المتضام | وما زالت الحرب العوان أشدما |
| ردوس وحزت للفرنج غلاصم | وعادوا إلى عز السيوف فقطعت |
| ولا قيل : هذا وجهه اليوم سالم | قلم ينج منهم يوم ذاك غنبر |

فقولوا « لنور الدين » لا قل حده
تجهز إلى أرض العدو ولا تمن
فامثلها تبسدي احتفالا به ولا
فمنك من العطف ربك ما به
أعادك حيا بعد ما زعم الوردى
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر
فتم واشكر الله الكريم بنهضة
فمن على ما قد عهدت نروعهم
وعاداتنا ليست تفر عنهم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا

ولا حكمت فيه الليالي الفواشم
وتظهر فتورا إن مضت منك (حارم)
يعض عليها للوك الأباثم
علنا يقينا أنه بسك راحم
بأنك قد لاقت ما الله حاتم
وحلت بها تلك الدواهي العظام
فسيقت سبايا واستطعت عارم
إليهم ففكر الله للخلق لازم
وتخلف جهدا أتانا لانسلم
وليس ينجي القوم منا الهزائم
إليهم فلا حصن لهم منه عاصم^(١)

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة :

ياسيدا يسمو به
أنت الصديق وإن بعد
يمنيك أن جيوشنا
سارت إلى الأعداء من
تغير هذى بكرة
فالويل منها للفرنج
جاءت رءوسهم تلوح
ته إلى الرقب العلية
ت وصاحب الشيم الرضية
فعلت فمال الجاهلية
أبطالها ماتا سرية
وتعاود الأخرى عشية
فقد لقوا جهد البلية
على رؤوس السميرية^(٢)

وفي قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعه بين الملك الصالح
والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سماه ابن الصياد « بارناط »
واسمه الصحيح « رينولد » Renauld .

قال ابن الصياد :

عن سيف دين الله سل « أرناط » حيث المنية كأسها يتماطى

(٢) الروضين ج ١ ص ١١٦ .

(١) الروضين ج ١ ص ١١٥ .

والشرفية قد حكت في جيشه . في العمل والنهل القضا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا أشنى وطاين مخلصا عطايا
هرملير جيش العدا في الحرب من حلل النجيع مجاسدا ورباطا
لجياده تشكو مزاحمة القنا وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أثار من الأسته أنجما لما أثار من العجاج عطايا
قتاله ملكا رمى بشبابه في الروح شيطان الحروب فشاطا (١)

ويحدثنا عمارة النبي في النكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون
مصر ووصلوا إلى إقليم الحوف ، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل
الناصر خلفهم وطاردهم إلى أبي عروق من إقليم فلسطين ، وعاد بجيوشه منتصراً
إلى بليس ، ففرق في الجيش مالا كثيراً ، وخلع على الأعيان . ويذكر عمارة
أن له ولغيره من شعراء مصر شعرا في هذه الواقعة ، ولكن لم يصل إلينا
من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لهارة منها قوله :

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره عليه إن جل خطب أوطرا وطرا
متوج تشرق الدنيا بطلته وتنجل الشمس مهاباح والقمر
إذا أقامت على نعر صوارمه قلنواب عن سكاكه سفر
ومنها قوله :

أغاث أحمال ، بليس ، وأمنها من بعد ما غاها الإشفاق والحذر
وحين أبليت عندا في الحاق بهم والنصر يقسم لا فاتوك والظفر
وقال : هزمك لما أن أخ ولم تلح له منهم عين ولا أثر
إن ينج منها ، أبو نصر ، فمن قدر نجما ، وكم قدرة قد عاقها القدر
وعدت نحو مقر العزم في عصب يفتى بها الأكران : الرمل والمطر
والصوارم في أجنانها أسف تكاد من حره الأجنان تستمر (٢)

(١) المرمنة ورقة ٦٧ .

(٢) النكت ص ٥٤ وما بعدها و ص ٢٤٧ .

هذا الشاعر الذي مدح الوزير باتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجما من هذه الموقعة (عن قدر) ، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يقتل فيها ابن الوزير ، ولكن التقدر فقط هو الذي أنجاه من خطر محقق . ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة في مدح الملك الصالح ، وفيها ذكر لهذه الموقعة ، منها قوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد . ديارهم لم ينجهم منك مهرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعا . لجاهتك ياليت الشرى تغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم . ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب
وذلك قال صادق أن عزم . بسيفك ياسيف الهدى سوف يسلب (١)

وهذه الموقعة هي إحدى الغلطات الثلاث التي كان يعدها الصالح نفسه ، إذ يروي ابن خلكان أن تلك هذه الغلطات خروج الملك الصالح إلى بلبيس بالعاكر ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار ، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويستأصل شأفة الفرنج (٢) . وفي هذه الموقعة نفسها قال عمارة أيضا في مدح الملك الناصر بن الصالح :

رأيتك لم تقنع بمنصبك الذي . علا فنجوم الأفق عنه سفال
فباشرت مكروه الوغى في مواطن . حرام المتايا بينهن حلال
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه . وإن راق منه جوهر وصقال
كأنك خلت السلم تقصا على العلا . وليس لها غير القتال كال
ولما تشكى الحوف حيفا على الهدى . وكاد الهوى يسطو عليه ضلال
نهضت إلى الإفرنج تزجي كتابها . تغل بها أغناقم وتقال
فولوا وقد أبت عليهم نفوسهم . سباب حالك دونهم ورمال
رأتبعتم ركضا على كل سابع . إذا الريح كلت لم يصبه كلال (٣)

(١) النكت ص ١٧٦ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

(٣) النكت ص ٣٠٧ .

والمؤرخون يذكرون قصة شاور واستنجاهه بالصليبيين ضد أعد الدين
شركوه وصلاح الدين ، ففي موقعة بليس التي انتصر فيها شاور والفرنج قال
عمارة يمدح شاور ويعرض بالغزو :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| و لقد دفعت إلى ثلاث نواب | كادت قشيب لحوها ولدانها |
| من معشر تغدو الساحة والندى | فيا حوت أجفانها وجفانها |
| فحصابة غزية فادرتها | وأهل ما نرجوه منك أمانها |
| وعصابة رومية عاشرتها | فتأدبت وتهذبت أذنانها |
| وعصابة مصرية بك أصبحت | فوق البرية راجعا ميزانها |
| وقداركت بليس منك عواطف | يسع الإيمان وأهله غفرانها |
| أقسمت لولا حسن رأيك لا غتدى | الناقوس في بليس وهو أذنانها |
| بلد لو انهدمت قواعد سور | يد النصارى لم يعسد بنيانها |
| أبقيتها للسليين وإنه | ليعز بعد خرابها عمرانها (١) |

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين ، ولولا هذا الاتفاق لاستولى
الفرنج على بليس ، ولدثر الدين في هذا البلد ، وقلتك لم يهج الصليبيين في هذا
الشعر وإن كان عرض بهم تعريضا خفيفا ، ونستطيع أن نعرف رأى عمارة
في الإفرنج إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير ، بل هي أبيات
صادرة عن عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والتكبات التي جرت بها سياسة شاور
على البلاد ، فهو يقول :

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| يارب إنى أرى مصرا قد اتبعت | لها عيون الأعادي بعد رقدتها |
| فاجعل بها ملة الإسلام باقية | واحرس بقود الهدى من حل عقدتها |
| وهب لنا منك عوننا نستجير به | من قنة يتلظى جمر وقتها (٢) |

وفي مديحه لصلاح الدين وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على
الصليبيين بقيادة مري ، يقول عمارة :

حي الله منكم عزيمة أسدية فكفتم بها الإسلام من رفة الكفر

(١) النكت ص ٢٦٩ .

(٢) النكت ص ١٩٠ .

لأن نصبوا في البر جبرا فإنكم
طريق قارعتم عليها مع العدا
عبرتم بيجر من حديد على الجسر
ففتتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على ر كل ثنية
وأزعجه من مصر خوف يلزه
كما لمهزوم من الليل بالفجر (١)

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم
الإسلامي عدة قرون، ولم ير العصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن
فقط، ومع ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعاراً
حماسية يمدحون شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من
فلسطين، على حين بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة عدم
إكتراث، وقد سجل المصريون في هذه الحروب جهوداً كثيرة سجلها
الشعراء الفاطميون في شعرهم، كما سجلها شعراء الأيوبيين وشعراء الفاطميين
في شعرهم، كما سجلها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك في العصور التالية
لهذا العصر الذي تؤرخه الآن.

الفصل الخامس

في الغزل

لا أكاد أعرف شاعراً من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد في الغزل ، لجميع الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون ؛ سواء أكلن هذا الغزل في المؤنث أم في الذكر ، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الاقطار الأخرى ، فكان شعراء المدح - الذين ألخوا بالعقائد المذهبية في شعرهم - يتبعون سنة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل . ولما أراد الهاد الأصمباني أن يروي شيئاً من شعرهم ، اكتفى بالمقدمات الغزلية التي افتتحوا بها قصائدهم وأبى أن يروي شيئاً من مدح الأئمة .

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي رددما الشعراء من قبل في صفات المرأة وما تمتاز به المعشوقة من قننة ودلال وسحر ، ولكن الثوب الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية ، انظر مثلاً إلى قول أبي الحسن التنيسي الملقب برضى الدولة :

| | |
|------------------------|------------------------|
| راح من خر الصبا معتبقا | تملا ، أحسن شيء خلقا |
| تفعل النشوة في أعطافه | فعل عينه بأرباب التقى |
| رشاً قد أقسمت الحياض | فيريقت دما من عشقا |
| من عذيري من غزال كلا | سئل الرحمة أبدى حنقا |
| ورأيت الرجس الغض وقد | أنجل الورد بما قد أحدا |
| ينهب الناهب من زهرته | ويذود اللبس عما بسقا |
| كم أناديه وذلي شافى | وقوادى يتلظى حرقا |

هكذا يجزى بكم من عشقا لا عجا يسرى وقلبا موبقا (١)

فالمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة والتي قدم بها للبدح ليست بجديدة في الشعر العربي ، إنما الجديد في هذه الآيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها هذه المعاني القديمة .

والنظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل ، وقد أتى بمعان لم يطرقها القدماء في نزلهم :

نظري إليك يزيد في نظري فسلام تحبيني عن النظر
يا جملة الحسن التي اقتسمت منها المحاسن جملة البشر
لهواك بين جوانحي كتب قد عنونت بالدمع والسهر (٢)

فهذه المعاني التي ألم بها الشاعر في هذه الآيات لم يطرقها — فيما أعرف — شاعر عربي من قبل . وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر ، ولكن الشاعر المصري جعل لهوى المحبوب في نفسه كتباً عنوانها الدمع والسهر . ويتناول الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري ، فيقول في مقدمة إحدى قصائده :

ومهتف طالت ذواتب فرعه كالليل قاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لي مهجة عن حبه لم تقتصر
وسنان كحل السحر حشو جفونه ففتورها عن مهجتي لم يفتر
املك القلوب بدر سحلي لؤلؤ عنب اللي في خنج طرف أحور
وبوجنة رقم الجمال رياضها يبتفسح من فوق ورد أحر
كتب العذار على صحيفة خده هذا بداية حيرة المتحير
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت فن العقول وروض غير المبحر (٣)

ويقول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى :

وإني لأهوى رشاً ساحرا أعار قنور العيون الغلبا

(١) الحريدة ورقة ٩ .

(٢) الحريدة ورقة ١٣ .

(٣) الحريدة ورقة ٢٩ .

إذا ما نثني فنصن قفا . وبدد جلا شعره غيبا
وزانت عيساء خيلانه . كما يتبع الكوكب الكوكبا
وفي أسمر ناسيته القنا . يروقك خدا جلا مذهبا
سقى روض خديه ماء الشبا . ب ففتح زهرا به معجبا
تقلد من لحظه صارما . أسال النفوس وما ذنبا
وملك من حسنه دوا . اعتمها كل قلب صبا (١)

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الآيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء ، ولكنها صور متحضرة ، لا يذكر الشاعر جزءا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه ، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله والحياة التي يحياها ، فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفا واقعيا — إن صح هذا التعبير — وإنما كان يتحدث دائما عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية ، وهنا نرى فرقا كبيرا بين شعراء العرب القدماء ، وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان ماديا في وصفه ، والشاعر المصري كان عاطفيا ، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية ورفق عاطفة المصريين برقى حياتهم .

ناحية أخرى نراها فيما بقي لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية ، تلك أن المصريين بدءوا يتركون الأوزان الطويلة ، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة وإما منهوكة ، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب التي لا يزال أثرها باقيا في مصر إلى اليوم . انظر إلى قول الشاعر طلائع الأمرى :

ملك الشوق مهجتي حيدا من تملكا
قد رماني بحبه ونهاني عن البكا
لأنها راحة المحب إذا أن أوشكا
ما أرى السلو عنقه ، وإن جاز . مملكا (٢)

(٢) صدر نفسه .

(١) الصدوقه ورقة ٢٨ .

فهذا الشاعر الدقيق الحس ، الرقيق الشعور ، وصف حالة المحب المضنى ، وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى ، بالرغم من أن المحب نهان من البكاء ، فآخذ هذا الوزن الخفيف ، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد تكون من ألفاظ الشعب ، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلاً لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير . ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الأمرى أيضاً :

| | |
|--------------------|-----------------------|
| أنعموا لى بالوصال | واذموا ورقة جالى |
| لا تذيبوا مهجتي بي | ن التجنى والدلال |
| ليس عندي في هواكم | قد بدا لى قد بدا لى |
| إنما قصدي رضاكم | قد حلا لى قد حلا لى |
| وان اخترتم عذابي | لا أبالي لا أبالي (١) |

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصرى منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة ، ولكن الشاعر هنا كان شاعراً مصرياً قبل كل شيء . كان يتغزل ، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة .

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذى رأيناه عند طلائع الأمرى ، فقد كان للمصريين لونا من شعر الغزل ، اللون الأول الذى يختار فيه الشاعر ألفاظاً جزلة ووزناً قوياً طويلاً ، أما اللون الآخر فهو الذى يترك الشاعر فيه نفسه على سجيته بلا تصنع ، فلا يتقى الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجرى به لسانه وما تمليه عاطفته ، وقد رأينا طلائع الأمرى فى المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثانى من ألوان الغزل ، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه ولكن فى صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له ، فهو يقول :

| | |
|---------------------------------|------------------------------|
| تريد الهوى صبراً من الضر والبلى | لمعرك ما هذى قضية من حوى |
| إذ لم يكن طرف المحب مسهداً | وأدمعه تجرى ، فهذى هي المعوى |

(١) المريلة ورقة ٢٩

ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى ألد من المن المنزل والسلوى
وحق ترى القلب القريح من الهوى يمانه الصبر الجميل من السلوى
وصى الله من أعطى المحبة حقها وإن لم يكن فيها من الأمر ما يقوى (١)
فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عن ما جاء به في مقطوعته الأولى .
فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل ؛ على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى
إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة ، فالشاعر مروان
ابن عثمان الكلي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة
الحب ، حين يقول مثلاً .

ما بال قلبك يستلين أبه غرام أم جنون
برح الخفاء بما يحن فأذهب الشك اليقين
حق متى بين الجوا نح والصلوح هوى دفين
وإلى متى قلبي المتيسم في يد البلوى رهين
يا ما طلي بديون قلبي -آن أن تقضى الديون
شخصت له فيك العيون وتقسمت فيك الظنون
وسليت ألباب الوردى بلواحظ فيها فنون
وقوام أغصان الريا ض وأين تدركك الغصون ؟
الحسن في الأغصان فن وهو في هذا فنون
من أين للأغصان ذا ك الفنج والسحر المبين ؟
أم ذلك الورد الجنى بخسده والياسمين (٢) ؟

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان الكلي التي تظهر فيها
عاطفة الشاعر في أسلوب أهل مصر الآن ولا سيما في البيت الثالث :

تمكن مني السقم حق كأتق توهم معنى في خفي سؤال
ولو ساحت عيناه عيني في الكرى لأشك من طيف الخيال خيالي
سمعت بروحي وهي عندي عزيزة وجددت بدعوى وهو عندي غالي

(١) الحريدقورة ٣٠ .

(٢) الحريدة ورقة ١٢٩ .

وقد خفت أن تقضى على منيق ولم أفض أوطارى بيوم وصال
وهون ما ألقى من الوجد أنه صدود دلال لا صدود ملال (١)

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائى يتغزل :

يا حبيب العمر عطفاً فإني بهواكم على لظى أهلى
إن وصلتكم ، وصلتكم مستهاماً عن هواكم وحبكم ما تخلى
هو عبد الهوى . وليس يباغى عتقه فى هوى ولومات قتلا (٢)
ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطى :

يا هذه ، رقى على صب دقف مسيره الهجر إلى حد التلف
رقى عليه ، وصلى حباله فإنه عن حبكم لا ينصرف (٣)

وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن عرام كان من إقليم أسوان
فإن غزله كان متأزراً بالحياة اللينة التى عرفت بها مصر ، ولا سيما أنه وفد
على القاهرة ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة ، فأسهم مع غيره
من شعراء مصر فى التغزل فى الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية،
فهو الذى يقول :

من معينى على اقتناص غزال نافر عن جوائى رواع
قلبه قسوة كجلود صخر خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبل فاه لدغتنى عقارب الأصداغ
وقوله أيضاً :

لدغتنى عقارب الصدغ منه فسلوه من ريقه درياقا
إننى عاشق له ، وهو مذكا ن ظلوم لا يرحم العشاقا (٤)
وقوله :

يا لائى فى غزال قلبى رهين يديه
لا تظمن فى سلوى فلا سبيل إليه

(٢) الحريرة ورقة ٢٥ .

(٤) الحريرة ورقة ١٨١ .

(١) الحريرة ورقة ٧١ .

(٣) الحريرة ورقة ٢٥ .

كم لامنى فيه قوم وعنفونى عليه
حتى إذا أبصروه خروا سجوداً لديه
فاحفظ فؤادك فالسوت فى ظبا مقلتيه (١)

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للصريين بعض المعانى المتكررة ، من
ذلك قول الأخفش فى العذار :

وكان العذار فى حمرة الخد على حن خدك المنعوت
صولجان من الزمرد معطوف على أكرة من الياقوت (٢)
ولكن الهاد أخذ على الشاعر أنه ذكر (الخد) مرتين فى البيت الأول ،
مع اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه .

وكذلك قال القدماء : إن قول أبى النضر الأسناوى فى العذار من المعانى
المتكررة .

وغزال خلعت قلبى عليه فهو باد لأعين النظار
قد أرانا بنفسج الشعر بدرا طالما من منابت الجناتار
وقنت نار خده ، فسواد الله مر فيه دخان تلك النار (٣)
وقول أبى النضر الأسناوى أيضاً :

وغزال أبدى لنا الله من بته ان خديه فى الحياة الجناتا
قد أرانا قدا ، وخدا وصدغا ، وعذاراً ، وناظراً فتانا
غصناً يحمل البنفسج ؛ والنر جس والجناتار والريحاننا (٤)

وقول ابن حيدرة العقيل أيضاً وفيه لحن من غنائه :

وعذول كان من قولى له لبست أستحسن أجفوا الحسنات
قال : لو كنت أنا أنت لما رضيت نفسى لجسى بالفضا

(٢) الحريضة ورقة ١٣١

(١) الحريضة ورقة ١٨١

(٣) الحريضة ورقة ١٣٠ .

(٤) المصدر نفسه .

قلت : دعني عنك ، واصنع ما تشاء ما أنا أنت ولا أنت أنا (١)

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها القديما من رواة شعر مصر ، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية ، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه المقطوعات .

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند رؤية الحبيب ؛ أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته وما يفعله ذلك كله في نفوسهم ، إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو فارقهم إلى مكان آخر ، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء مصر الفاطمية ، وفي حديثهم عن الفراق نرى لوعة الحب الذي أضناه البعاد وخشينا عليه من الهلاك .

وما هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد

قنت بفاتن الحيدق - وزاد بهجره أرقى

إذا ناديت من جزع - أخذت القلب في طلق

رويدك سوف تنقاني - بلا قلب ولا رمق (٢)

وأشد ابن مغيد الإسكندري .

يا حادي الركب رفقا بالحبيب قد - طار الفؤاد وقل الصبر والجلد

لعل حبي يرى ذلي فبرحمي - بنظرة عليها تشقني الذي أجسد

يا ويح من ظعننت أحبابه وغدا - مخلقا بدم أكباده قد (٣)

وقال محمد بن وهب :

ولا تنادوا بالرحيكل رأيتني - أكفك دمع العين من كل جانب

وأسأل ربي أن تدم ركابهم - عن السير حتى أشتق بجبابي

(٢) الحرينة ورقة ٩

(١) للفرد س ٨٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٢

فلم تك إلا جاعة سار وركبهم
فلم أر يوم البين أعظم حسرة
وأشد طلائع الأمرى :

ما قلبني من لوعة البين راق
عزجة لم تدع لجفني دمعاً
أطعموني حتى إذا أسروني
واستلذوا الفراق حتى كان لم
في سبيل الهوى نفوس أقامت
وقال طلائع أيضاً :

ما أودعوك مع الغرام وودعوا
قف فاستلم إثر المطى تعللاً
وتنح عن دعوى هواك فإنه
إن لم تمت يوم الفراق تفاق (٣)

وإذن فالغزل في شعر مصر الفاطمية صورة أخرى من صور الحياة
المصرية والعاطفة المصرية التي سميت فجمدت عن المادية التي عرفناها عند الشعراء
الأقدمين ، وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية .

(١) الخريطة ورقة ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه .

الفصل السادس

أغراض أخرى في الشعر

التصوف والزهد :

تحدثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية ، ولكن هناك بعض أغراض أخرى ، لا تقل خطراً في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر ، عن هذه الأغراض التي تحدثنا عنها من قبل ، فقد ذكرنا شيئاً عن هذه الحياة المأجنة التي طفت على مصر حتى خيل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش ، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة المأجنة اللاهية ، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا ، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطر إلى أن يعيش لوفين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض ، فهو يعبت في حياته ويمجن ويمزح ماشاء له العبث والمجون والمزاح ، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكر في آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ، ويظهر استمساكاً بالدين وفرائضه وآدابه ، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجنون ، أما الزهد والتقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضاً ، حتى إن شعراء المجنون أنفسهم كانوا يفتشون الشعر في الحث على الزهد والتمسك بأهداب الدين وطلب سعادة الآخرة ، وما هو ذا الأمير تميم الذي عرف بمجونه حتى حرم ولاية إمامة الدعوة يقول في الزهد :

أقنيت دهرك تتق في الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الرحن فيما أنت راكب
لأمنت من نار الجحيم ، وفي الحياة ، من المعاييب
إن لم تراقب من له حكم عليك ، فن تراقب (١)؟

(١) ديوان الأمير تميم .

ويقول مرة أخرى :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا في غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أقدمهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي أصيب في تميزه بالشتات
يحيبهم بعد الليل مثل ما أخرجهم من عدم الحياة (١)

فثل هذه الآيات لا تصدر من شاعر عرف عنه أنه من أشد الشعراء بحونا
وعبثا ، ولكن طبيعة عصر اضطرته إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة
بعد الموت .

وها هو ذا الشاعر ابن حيدرة العقيلي الذي ذكرنا أنه شاعر الخريف في العصر
الفاطمي ، وأحد شعراء الجور ، ينشد في الزهد ويدعو إلى التقى والورع .

قد لاح في فودك المشيب ورث من عمرك القشيب
فكن لداعي التقى عجبيا من قبل تدعى فلا نجيب (٢)

ونرى القاضي المعروف بالأديب أبي النضر ينشد .

النفس أكرم موصفا من أن تدنس بالذنوب
ما لذة الدنيا لها ثمنا وإن مزجت بطيب
فاسبق إلى إعداد زنا ذك هجمة الأجل اقريب
والتق الإله على التقى والحرف مزروء الجيوب (٣)

ويقول مرة أخرى بحث على الزهد وجهاد النفس :

جهاد النفس مفترض فخذها بأداب القناعة والزهادة
فإن جنحت لذلك واستجابت وغالفت الهوى فهو الإرادة
وإن جمعت بها الشهوات فأكبح شكيمتها بمقعدة العباده
عساك تحملها درج المعالي وترفعها إلى رتب السعاده (٤)

وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنباً إلى جنب مع عاطفة حب المجون
والشعر المصري ملوّه بالعاطفتين معا .

(١) ديوان الأمير تميم

(٢) المغرب ص ٥٥

(٣) الخريدة ورقة ١٢٦ .

(٤) الخريدة ورقة ١٢٧

وقد ذكرنا في كتاب «أدب مصر الإسلامية» ، أن مصر عرفت التصوف ووجدت فرقة عرفت بالصوفية كان لها أثر في الحياة السياسية في العصر العباسي وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي ، وكان الأئمة الفاطميون يراعون هذه الفرقة ، ويحدثنا المقرئ : أن الأمر الفاطمي جدد قصر القزاقة و جعل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية ، والحمام بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فرقها بسط ، ومدت لهم الأسطة التي عليها كل نوع لذيد ولون شهي من الأطعمة والحلوى ، أصنافاً مصنفة . وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ ومزق مرقته و فرقت على العادة خرقاً ، وسأل الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرئ خرقاً منها ووضعها على رأسه ، فقال الخليفة الأمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : يا شيخ أبا إسحق . قال : لبيك يا مولانا . قال : أين خرقتي ؟ فقال محبوباً له في الحال : ها هي على رأسي يا أمير المؤمنين . فاستحسن الأمر ذلك ، فأمر في الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية . ففرقت على الحاضرين وعلى قراء القزاقة ، وثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار (١) .

ووفد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي : حدث بالمراق ودمشق وصور ، ثم توجه إلى مصر فحظل بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ وكان أديباً شاعراً على طريقة الصوفية ، ولكن شعره فقد ولم يبق منه سوى قوله :

إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تك محبوباً بها فتحول
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما تكون ولو في قعر بيت مقفل (٢)

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عرفت بفرقة الكيرانية ، نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكيراني الفقيه الشافعي الواعظ ذكره العماد في خريدته ووصفه بقوله : فقيه

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٣

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٧٩

واعظ مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ونظمه
هندوبة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ،
مشهود له بالسنة القبول ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية
ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالتقديم مكنون الحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة
ضل بها اعتقاده ، وزل في مزلقها سداه ، وادعى أن أفعال العباد قديمة ، إلى
إلى أن قال : « أعاذنا الله من ضلة الحلم ووزلة العلم وعة الفهم . واعتقد أن التنزيه
في التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب وفيل فيه ، (١) وتوفى ابن
الكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ ودفن عند قبر الإمام الشافعي ،
واستمرت معالم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين ، فقد ذكر العباد : « والطائفة
الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة ، (٢) . وظهور هذه الفرقة
في مصر واشتار أمرها على النحو الذي تحدث به العباد وابن سعيد في كتابه
المغرب يدلنا على مدى الضعف الذي طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر ، فإننا
رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن تشبيهه أو التجسيم ، وهذه العقيدة
هي أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم ، ورأينا الدعوة يكفرون كل من دان
بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم
وقالت بالتشبيه ، والتف عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن
يعتبرا بسلطان الفاطميين وعقائدهم التي اقتشرت في مصر زهاء قرنين .

كان ابن الكيزاني شاعراً من شعراء الصوفية بمصر ، ولكنه كان ضعيف
الشعر ، حتى قال عنه ابن سعيد : « ورفقت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ،
قريب من أفهام العامة ، غير مرضى عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص
الكلام وفرسان النظام ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه . ولم أكتب من
ديوانه شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً
ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا يعرف معاني الشعراء
المستحسنين وألفاظه المستبدعة يحضن على الوقوف عليه ، فلما وقعت عليه أنشدني

(٢) المصدر نفسه .

(١) الحريصة ورقة ٨٩ وما بعدها

مثلاً: أنا الميبدى فاشمع بي ولا ترقى. (١) ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن الكيزاني على هذا النحو ، بالرغم مما ذهب إليه الهاد الأصفهاني من الإعجاب بشعر ابن الكيزاني ، فإن المقطوعات التي رويت في الحريدة من شعر ابن الكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في الشعر ، إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهوروا بمصر في الصور التي تلت العصر الفاطمي مثل ابن الفارض وعيينة ، وغيرهم من الأندلسيين الذين عاشروهم ورواها . كان سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنه كان يوظف في طلب التصيب والدهاء ، فكان يفتقر إلى اصطلاح اللغة التي يفهمها الشعب وتقرّب إلى نفوسهم . فأثر ذلك في أسلوبه ولقته ، فإذا بهما يتقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعب ، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني .

وهو في بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفاً . انظر إليه يقول :

إذا سمعت كثير المدح عن رجل فانظر بأى لسان ظل عدوياً
فإن رأى ذاك أهل الفضل فادرس لهم ما قيل فيه ، وخذ بالقول تصحيحاً
أولاً ، فما مدح أهل الجهل رافعه وربما كان ذاك المدح مجروحاً (٢)

وهو في بعض شعره متصوف يتحدث عن العشق ، ويجرى في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذين نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي ، فإن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين ، وله في ذلك عدة مقطوعات ، منها قوله :

سواء أن تلوما أو تريحما رأيت القلب لا يهوى نصيحما
أما لو ذقنا صرف الليالي إذن لعندنا القلب التريحما
وكانت فرقة الأحباب ظناً فأصبح بينهم خبراً صريحما
ولو لم ينزلوا سلطات نجد لما استنشقت بالسلات ريحما
ولا أهديت الأسماح يوماً غناء من حاشمها نصيحما
وما أنا قد سمحت بدمع عيني وكنت بدمعها أبدأ شحيمما

(٢) الحريدة ورقة ٩٠

(١) المغرب ص ٩٣ وما بعدها

وأمكنك المحبة من قيادي
وقد سكن الجوى قلبا صحيفا
وقوله أيضا :

أسكان هذا الحى من آل مالك
ألم تعدونا أن تزوروا نكرما
وحلم عن الوعد الجميل ملاءة
وإنا لنستيق المودة والموى
ولا تعبوا العتي عليكم توجما
رضينا ، رضينا أن نبيع قفوسنا
كذلك الهوى ، هذا حبيب معوز
ووجد وشوق وإرتياح ولوعة
دواعى الهوى محترمة قاصطرها
علنا بوشك العين أول حاله
إذا ما طمنا أن تفر ديارهم

مسألة ما يفتا وجميل
فا بال ميعاد الوصال طويل
وأتم هل قضى العهد نزول
شيد لنا إذ ليس عنه نزول
فيقطع واث أو يلح عنول
وما عاشق منا بذاك بجميل
وهذا عب في هواه ذليل
ومهر وحقم دلم ونحول
وإن جرد بين أو جفاك خليل
وما حشرتنا لوداع عقول
تداركهم بعد الرحيل رحيل^(١)

قلنا إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمي ، وكان لها أثر قوى في الصوفية الذين ظهروا بعد اقراض الدولة الفاطمية ، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني فكان له تأثير قوى في شعراء الصوفية الذين كانوا في عصر الأيوبيين ، ففي شعر ابن الفارض مثلا بعض المعاني التي في شعر ابن الكيزاني ، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزاني ، وسأترك المقارنة بين هذين الشاعرين الصوفيين إلى البحث الذي سيكون في كتابنا القادم « أدب مصر في عهد الأيوبيين والمماليك » .

الوصف :

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر في العصر الفاطمي هو عندي أقرب
أغراض الشعر إلى التصوف ، ذلك هو وصف الطبيعة ، فكلا الغرضين ضرب .

(١) المربعة

(٢) المربعة دولة ٩٣ .

من ضروب التأمل فيما خلقه الله، فكثيرا ما يؤدي بشعراء الوصف إلى التصوف، ولكن شعراء مصر لم يسيروا في هذا المجرى، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم، فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسي يفتشون شعرا في الخمر والمجون والطبيعة معا، وكيف كانوا يؤثرون الشراب في الرياض والمتزهات، ويمزجون وصف الجسر بوصف الرياض والمتزهات أو بوصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المتزهات المختلفة التي كثرت في هذا العصر، ينعمون بطيب هوائها ويمتعون أبصارهم بتناسيقها وجمال أزهارها المتنوعة التي عجب الرحالة ناصري خسرو من وجود عدد كبير منها في وقت واحد، فهو يقول: « رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر والنيلوفر، والنرجس والترنج والتارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكي والسفرجل والزمان والسكرى والبطيخ والعطر والماوز والزيتون والبابيج (الإهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر... » إلى أن قال:

« وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا،^(١) » ويقول دن بساتين القاهرة: وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح خصارت متزهات^(٢)، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل، والأمثال العامية التي يصطنعها الشعب المصرى الآن، والتي نقلت إلينا عبرة عن قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم، وهم يتأملون طبيعة مصر، ويتحدثون عنها، وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم في الطبيعة، على أن الشعراء المصريين في العصر الفاطمى لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية ولم يتحدثوا عنها حديثا يؤدي بهم إلى معرفة الخالق، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمى وإلى الفلاسفة. واتخذوا

(١) سفر نامه، ص ٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب)

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠

لأنفسهم مذهبا قنيا غالبا مصدره جمال الطبيعة ، فإذا بهم يسبقون على المناظر التي وصفوها ألوان الحياة التي يأنفونها من ملابس وما أكل ومسكن ، ويحاولون أن ينتزعوا من الطبيعة صوراً هي أقرب إلى صور الحياة التي اعتادوها وألوان الزينة التي كان يزين بها المصريون في العصر الفاطمي ، وما هو ذا ابن حيدرة العقيلي يصور منظراً رآه في إحدى المترهات :

النسيم بين زهر وحلل والتطر بين مسرح ومسلل
والقضب بين مطرط ومطوق ومدملج ومثوج ومككل
والنبت بين مزهر ومسك ومخلوق ومعبر ومصندل
ومدح ومطرز ومصنف وممرض ومرصع ومثقل
فاشرب على حلل لو أمكن لبسها كانت تكون من الطراز الأول (١)

ويقول مرة أخرى :

أمهات الثمار بين الروابي تائمات بلبس خضر الثياب
وبنات الكروم تجلي بما قد صاغه الماء من عقود الحجاب
قاله مادام التحقيق خلوق تنشر السحب فيه مسك ضباب (٢)

ويقول في وصف الرياح وقد شبهها بفرش المجالس :

عراس القضب تجلي على كراسي : الروابي
ومجلس الروض فيه فرش من العتابي

فابن حيدرة العقيلي وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف الطبيعة ، كان يتخذ صورته في الوصف بما كان يدور حوله في الحياة اليومية ، وهذه الظاهرة ليست في شعر ابن حيدرة لحسب ، بل تراها عند كثير من شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر تميم بن المعز وهو أحد شعراء الطبيعة وصف بركة الحبش وخليج بني وائل قال :

كان البركة الغشا إذا ما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى ، مرآة قين قد انفطت ، ومقبضها الخليج

(١) المغرب ص ٧٤ .

(٢) المغرب ص ٥٦ .

تري قر الديجي ، قرا حذاء طلوعا ما له فيها بروج^(١)
ووصف روضة على شاطئ النيل فقال :
ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل
لهدي روضة عالت رباها كرومها
أعلل نفسي فيه بالمراح مع صهي
وجاد عليها النيل من مائه العذب
لجالت به فيها الرياح مع الترب
بين طلي خيل مؤتلة شهب
متون سيوف لحن مصقولة القضب
قواريرما يفترن من قلق اللهب^(٢)
وقال ابن عباد أحد شعراء الخربدة :
كأنما الأرض من زبرجدة
والأفحوانة هيفا وهي ضاحكة
كأنما شمس من فضة حرست
وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير :
أرأيت برقا بالأبارق قد بدا
كيف اكتفى ثوب السحاب ممسكا
فكأنه في الجو كأس ، كذا
أر مرهف كشفت مداوس صيقل
فما عجب إلى ودق اللجين يسيل من
ولؤلؤ للفيك يأخذه الثرى
وقال ظافر الحداد في يوم برد :
ويوم برد عتسوده برد
ينثره الجو ثم ينظم منه الأرض
فهو يحاكي الحبيب في اللون واللفظ
قالنيم يكي والزهر يضحك والبروق
بدت إليك على غب من السحب
عن واضح غير ذي ظلم ولا شنب
خوف الوقوع بمسار من الذهب
في أفقه متبها متوقدا
وإغاله شنف الرداء موردا
قانت نيم البرق صاح وعربدا
عن متنه هدا ، لسكى يروي الصدا
أفق أحالته البوارق عسجدا
فيعيده نبتا يخال زبرجدا^(٣)
لها سلوك من هيدب المطر
بالزهر كل منتشر
وعذب الرضاب والخصر
تبدي ابتسام ذي خفر^(٤)

(١) ديوان الأمير تميم

(٣) الخربدة ورقة ٢٢

(٢) المصدر نفسه

(٤) الخربدة ورقة ٨٥

ويقول ظافر أيضا في متزهاة خليج الإسكندرية :

وعشية أهدت لعينك منظرا جاء السرور به قلبك وافدا
روض كخضر العذار وجدول تقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزيذت وابن من أثمارهن قلائدا (١)

ولشمراء المصريين جولات في وصف النجوم ، وفي الحديث عن النهار
والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة ، فن ذلك منظومة ابن وكيع
التنيسي التي أوردها الثعالبي في القيمة ، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه
وشعوره نحو فصول السنة وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات ، ويقول
في مطلعها :

يا سائل عن أطيب الدهور وقعت في ذاك على الخبير
سألني أي الزمان أحلى وأيه بالقصف عندي أولى
عندي في وصف الفصول الأربعة مقالة تغني اليب مقننه
أما المصيف فاستمع يا فيه من فطن يفهم سامعيه
فصل من الدهر إذا قيل حضر أذكرنا بجره نار سقر
تجر فيه التبت مقشعرا والأرض تشكو حره المضرا
نهاره مقسم بين قسم جميعها يعاب عندي وينم
أوله فيه ندى مبيض كأنه على القلوب يقبض
ينشق منه الجسم بالثياب وتعلق الأذيال بالستراب
ويقول في الخريف :

حتى إذا زال أتى الخريف فصل بكل سومة معروف
أهوية تسرع في كل الجسد وهو كطبع الموت يسا ويرد
يمشى على الأجسام من آفاته فأرضه قرعاء من نباته
ومنها في الشتاء :

حتى إذا ما أقبل الشتاء جهلك منه غمة غما
أقبل منه أسد مزير له وعيد وله تحذير

(١) صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٠٥ .

لو أنه روح لكان قدما
يأتيك في إبانه رياح
أما عن الربيع فقال :

جاء إلينا زمن الربيع
لبرده وحره مقدار
عدل في أوزانه حتى اعتدل
نهاره من أحسن النهار
تضحك فيه الشمس من غير عجب
ليدره فضل على البدور
كجامة البلور في صفائها
وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة .

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد :

كان نجوم الليل لما تبلجت
حكى فوق تمتد الحجره شكها
وقال محمد بن عاصم :

ككف سدوسي بدا فيه درم
وأزرارها منها شمال ومرزم (٢)
وقال المهذب بن الزبير :

وترى الحجره والنجوم كأنها
لو لم يكن نهراً لما عامت به
وقال ابن وكيع التنيسي :

قم فاسقني صافية
أما ترى الصبح بدا
تمتلك جنح الفسق
في ثوب ليل خلق

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣

(٤) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٦

(١) بنية الدهر ج ١ ص ٢٨٥

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤

أما ترى جوزاء كأنها في الأفق
منطقة من ذهب فوق قبـاء أزرق (١)

وقال تميم بن المعز في الصباح :

وكان الصباح في الأفق باز والدجى بين مخليه غراب (٢)

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح :

غرد الطير فبه من نس وأدر كأسك فالعيش خلس
سل سيف الفجر من غمد الدجى وتعمري الصبح من ثوب الغلس
وانجلى في حيلة فضية ما بها من ظلة الليل دنس (٣)

أما نيل مصر فكان له شأن مع شقراء مصر الفاطمية ، فإنهم كانوا
يكثرون من ذكره في شعرهم ، ويفيضون عليه صورهم كلما قاض عليهم بمائه ،
وها هو ذا الأمير تميم يقول :

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تجرى كالخيول بنا صعدا وجيش الماء منحدر
وكأنما أمواجه عكن وكأنما داراته سرر

ويقول مرة أخرى :

أما ترى الرعد بكى واشتكى والبرق قد أومض واستضحكا
فاشرب على غيم بصنع الدجى يضحك وجه الأرض لما بكى
وانظر لما النيل في مده كأنما صندل أو مسكا (٤)

ويقول تميم عند زيادة النيل :

انظر إلى النيل قد عبا عساكره من المياه لجئات وهي تستبق
كان خلجاناه والماء يأخذها مدائن قمت فاختارها الفرق
كان تياره ملك رأى ظفرا ففكر إثر الأماذي محنق نرق
كان ماء سواقيه لناظرها شهب الخيول إذا ما حثها العنق

(١) نهاية الأرب

(٢) الصدرة

(٣) ج ١ ص ٤٤١

(٤) خطط القرظي ج ١ ص ١٠١ .

فاشرب مهي فإن الهو منبسط واطرب ولذ ، فهذا منظر أنتق
ويقول ابن قلاقر :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وألقت شعاعا منه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الفرق
وللهلال قول وافي لينقدها في إثرها زورق قد صيغ من ورق^(١)
ولم ينس الشعراء أهرام مصر ، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر
المهاجر المتوفى سنة ٣٨٧ قال في وصف الأهرام :

انظر إلى الهرمين إذ برذا للعين في علو وفي صعد
وكأنما الأرض العريضة قد ظمئت لطول حرارة الكبد
حسرت عن الثديين بارزة تدعو الإله لفسقة الولد
فأجابها بالنيل يشبهها ديا وينقدها من الكد
لكرامة المولى المقيم بها خير الأنام مقوم الأود^(٢)
ويقول ظافر الحداد :

أمل بنية الهرمين وانظر وبينهما أبو الهون العجيب
كعمارتين على رحيل لمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتها دموع وصوت الريح عندهما نجيب^(٣)
وقول عمارة اليني :

خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في إقامتها هوى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها ولم يتنزه في المراد بها فكري^(٤)

أما منشآت الفاطميين ومبانيهم فقد ذكرها الشعراء في أشعارهم، ومنها هذه
القصيدة التي أنشدها عمارة اليني بعد أن دالت دولتهم والتي تحدثنا عنها من قبل ،
وقد جناعت أكثر هذه الأشعار ، ولم يبق إلا عدة مقطوعات قليلة في وصف
مباني المصريين

(١) ديوان ابن قلاقر ص ٧٥ . (٢) خطاط القريري ج ١ ص ١٩٥

(٣) المرينة ورقة ٨٥ . (٤) خطاط القريري ج ١ ص ١٩٥

قول علي بن يوسف الإيادي يذكر داراً بناها المعز العبيدي بمصر ، سماها
العروسين :

بني منظرأ يسمى والعروسين، رفعة كأن الثريا عرمت في قبابه
إذا الليل أخفاه بجلجة لونه بدا ضوءه كالبدر تحت سحابه
تمكن من سعد السعود عمله فأضحى ومفتاح الفنى فتح بابه
ولو شاده عزم المعز ورأيه على قدره في ملكه ونصابه
لكان حصى الياقوت والتبر مفرغاً على المسك من آجره وتراجه (١)

وقال أمية في وصف قصر بناه الأمير علي بن الأمير تميم بن المعز :

قد مجلسك المنيف فبابه يموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المحبة تلتقى فيه الجوارى بالجوار الكناس
تقابل الأنوار في جنباته فالليل فيه كالنهار المشمس
عظفت حناياه دوين سمائه عطف الأهله والحواجب والقسي
واستشرفت عمد الرخام وظهورت بأجل من زهر الريح وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف وقراره من كل خد أملس
فلك تحسیر فيه كل منجم وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر وغدا لطيب العيش خير معرض
فاطلع به قرأ ، إذا ما أطلعت شمس الحدود عليك شمرا الأكواس
قالناس أجمع دون قبدك رتبة والأرض أجمع دون هذا المجلس (٢)

ووصف الشاعر علي بن محمد النيل باب زويلة فقال :

يا صاح لو أبصرت باب زويلة لعلت قدر محله بنيانا
باب تآزر بالهجرة وارتدى الشمري ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعوناً رآه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا (٣)

على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة في تفخيم
المباني والمنشآت .

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٢٠٧ (٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٢١١

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٠٥ .

وهكذا نستطيع أن نتبع هذه العصور المختلفة التي صور بها شعراء مصر
الفاطمية مارأوه في الطبيعة وفي المنزهات ، وهي صور من الحياة المصرية
التي كانت تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم ، بل ذكر الشعراء الزينات
المختلفة التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومنتزهاتهم ويغالون في إظهارها
إمعانا في الترف والبذخ ، وهاهو ذا ابن قلاص يصف نخلة عليها زيتة من
أنوار السرج ، كالذي يتخذها المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخل لولا هذه باسقات بثار الذهب
مطل الغيث لها من فضة فهي في قنوانها من ذهب
تلمب السرج على حاقاتها وتحاكي أنمسل المرتعب
ولقد أحسبها السنة هزما للسكر خمر الطرب^(١)

ونرى المصريين يصفون في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم ، فوصفوا
الشمعة مثلا ، كما في قول المهذب بن الزبير :

ومصفرة لآعن هوى غير أنها تحوز صفات المستهام المعب
شجوننا وسقا واصطبارا وأدعما وخفقا وتسبيدا وفرط تلمب
إذا جشتها الريح كانت كعصم يرد سلاما بالبنان الخضب^(٢)

ويقول آخر في الشمعة أيضا :

وصحيفة يضاء تطلع في الدجا صبغا وتنشئ الناظرين بدائها
شابت دوابها أوان شبابها وأسود مفرقتها أوان قتائها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها^(٣)

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل — أمير شعراء

المستنصر — القلم والريح بقوله :

يراطن هذا يملأ الطرس حكمة وذاك يذيق الختف ليشأ غضنفرها
وإن ظمنا ظمناهما يردا على نفوس العدا من غير إذن ويصدرا

(١) ديوان ابن قلاص ص ١٨ ، ٢١ الحريفة وردة ١٩ (٢) المستنصر ص ٩٣٩

فيشرب هذا أسود الليل حالكا ويشرب هذا قاني الدم أحرا (١)
ويصف طلائع الأسرى الخيل بقوله :
جنائب إن قيت فأسد وإن عدت بأبطالها فهي الصبا والجنائب
أثارت بأكناف المصلى بحاجة دجت وبت البيض منها الكواكب (٢)
ويقول ابن الضيف في عدد الفرس :
كم ساج أعدته فوجدته عند الكربة وهو نسر طائر
لم يرم قط بطرفه في غاية إلا وسابقه إليها الخافر (٣)
ويطول في الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية ، فهم لم يتركوا
شيئا دون أن يتحدثوا عنه في أشعارهم ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه
من رقة الشعور ودقة الحس ومقدرة على الفريض .

(٢) المصدر نفسه ٣٥ .

(١) الخريفة ورقة ٢٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ٣٧ .

خاتمة القول في الشعر

رأينا صوراً مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي ، وعرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة ، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله : إلى أي حد وفق شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعرهم ؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى ؟ قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة نرى أن نتحدث أولاً عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته منذ عرف الشعر العربي إلى الآن ، بل نستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي ، وهذه الخصائص هي التي تجعله - مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره - وحدة يشبه بعضها بعضاً ، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي نشد الشعر بالعربية ، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة ولم تختلف باختلاف الأقاليم ، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص ، بل ظلت مثلاً علياً للشعراء جميعاً دون أن يصيبها تغيير جوهري .

فثلاً نجد الشعراء جميعاً منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهل إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالرقّة والعذوبة والجزالة والسلاسة ، إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية ، فلا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية اصطنع ألفاظاً توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون ، حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتطرف في الشعر باستعمال بعض ألفاظ أجنبية ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن ذلك كان قليلاً جداً بحيث لا نستطيع أن ندعي أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي ، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب ، وإذن فقد اشترك الشعراء جميعاً في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم ، فلا نستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار

التي أنشئت بالعربية من شعر قطر آخر ، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء
العربية جميعا ، لم يصيبها تغيير ولن يصيبها تغيير .
كذلك نقول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسبابها ،
والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم ، فشعراء العربية لم يعدلوا عن
الأوزان التي عرفها القدماء ، وأغلب الظن أن شعراء العربية لم يعدلوا عن هذه
الأوزان مابعدهم الزمن عن الشعر القديم ، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة .
ورب معترض يقول : إن الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال ، وإن
المصريين اخترعوا البليق ، وأدخل شعراء الفرس أندوبيت والرابعيات في الشعر
العربي . وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء ولكن أتى بها المولدون ، فكيف
تكون الأوزان إذن مثلا من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل
البيئات ؟ فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات
القديمة . ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل
اختراع هذه الألوان من الشعر ، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيروا
بعض أشكال الشعر ، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية ، أي
أنهم لم يجددوا هذا لم يستطعوا أن يحددوا عن المثل القديمة في الشعر العربي .
ومع ذلك كله فلو ذهبنا - جدلا - إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري
والدرية الفارسية مجدد في الوزن العربي - مع أننا لا نوافق على هذا
الرأي - فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءا يسيرا جدا بجانب الشعر
الآخر الذي خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس ، والذي حافظ فيه
الشعراء على الأوزان القديمة ، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا
لشعراء العربية جميعا لم يصبه تغيير إلى الآن .

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية ، فهذه كلها مثل
من مثل الشعر العربي التي انبعا الشعراء في كل العصور والبيئات وحافظ
عليها الشعراء أشد المحافظة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين تزعم أنهم أسرفوا
في التجديد ، فالشاعر أبو نواس مثلا الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها
لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير ، وكذلك نقول عن
عجودين اللفظيين من أصحاب البديع الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي واستخدام

أثران الزينة الابدعية ، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر القديم ، فلم يتكروا قافية غير النافية التي نهج عليها القدماء ، ولا تعديلات غير التي حرقتها حوار العروض ، ولم يستخدموا ألفاظا غير عربية .

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلا لشعراء ، فلا نستطيع إذن أن نقول : إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، أو إن المصريين قلوا العباسيين واتخذوهم مثلا لهم لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة ، وكذلك لا نستطيع أن نقول : إن الأندلس أظهرت شخصيتها بأن أوجدت المرشحات ، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلا عليا لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربي حتى إدراكه ، وظهروا إلى الشعر نظرة عاطفة قروهموا أن العباسيين كانوا مثلا لشعر العربي . ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هانئ الأندلسي كان يقلد المتنبي حتى قلب بمتنبي الغرب ؟ ألم يقل القدماء أيضا : إن الأمير نجم بن الجوز كان يقلد بن المعتز وينهج نهجه ؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس ، فلم لا يذهب هؤلاء أيضا إلى أن العباسيين كانوا مثلا عليا لشعر العربي ؟ الواقع أن العباسيين أقسم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه ، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات ، فلم يكن العباسيون مثلا عليا لغريم من شعراء الأقاليم العربية .

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعا في هذه الخصائص فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، فمتنن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر في الشعر ، فمتنن لانجدها في الأوزان ولا في العراق ولا في اللفظ ولا في أساليب الشعر ، بل نجدها في المعاني التي ذكرها الشعراء وفي الأخبية الشعرية ، وهنا فقط نستطيع أن نقول : إن الشعر المصري صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل . بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا نستطيع أن ننسب إلى قطر غير مصر .

من ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلا للأحداث التي جرت في هذا العصر ، حقيقة صاع حل هذا الشعر السياسي ، ولكننا نستطيع

أن نحكم على ذلك بما بقي لنا من آثار هذا الشعر ، وقد ذكرنا شيئاً عن شعراء
التصحر وشعراء الوزراء ، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان البوالة في مثل هذه
الأحداث السياسية وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون
الخليفة أو الوزير ، ومن البديهي أن ما كان ينشد من الشعر السياسي هو صورة
لحياة مصر السياسية دون غيرها من الأقطار الأخرى .

ورأينا جانباً من الشعر المصري في العهد والدين بجانب الشعر المصري
في الجون والإباحة ، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصري يدلان دلالة
صريحة على ناحية هامة من نواحي الحياة في الشعب المصري ؛ فقد ذكرنا
أن الشعب المصري شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين . وأنه شعب يعمل
لآخوته ، ولكننا في الوقت نفسه نراه شعباً يميل إلى الجون في حياته وأنه
شعب يميل لدنياه فيأخذ بنصيب من متاع الدنيا ، فصر على هذا النحو متناقضة
مضطربة بين متاع النفس ومتاع الجسد ، وإذا الشعر المصري يضطرب أيضاً
فينثل الناحيتين من حياة هذا الشعب ، ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة إلى
اليوم في حياة المصريين وفي شعر المصريين ، والذين درسوا الشعب المصري
عجبوا الفكاهة والنعابة المصرية ، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو
الفكاهة ، والنادرة بعد النادرة ، وهم يضحكون على مسمع هذه الفكاهات
والنوادير بأصوات عالية ، وذكر الكتاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق
المصريين وسرعة بديهتهم وعلى وعى شديد في تذوقها ، وزعم بعض الكتاب
أن المصريين أكثر الشعوب حبا للفكاهة وكلما بإطلاقها وسماها ، وأن الفكاهة
تجري في دم كل مصري . ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها في الحديث
عن الناحية الجنسية ، وهي تتناول بعض أعضاء الجسم ، حتى إن أشد ألوان
الفكاهة المصرية إضحاً كما هي هذه الفكاهات التي تتحدث عن العلاقة الجنسية
أو أعضاء الجسم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة
لونا يميلون فيه إلى الجون ولونا آخر يميلون فيه إلى الدين ، فإذا الشعر المصري
في كل عصوره يمثل هذين اللونين ، وقد رأينا صوراً لها في الشعر المصري
في العصر الفاطمي .

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذي تكاد تنفرد به ، وأرض خصبة تروى في أوقات منتظمة جعلت المصريين شعبا يميل إلى الهدوء واللين في كل شيء ، وظهر أثر ذلك في التفكير عند المصريين ، فنحن لا نكاد نجد عند المصريين عمقا في تفكيرهم وفي دراساتهم المختلفة ، ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد فيلسوفا مصرية نالنا نجد فلسفة مصرية لها أثرها في تاريخ الفكر البشري ، ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذي استطاع أن يهضم كل المدنيات التي ظهرت ، وعرف كل الدراسات المتنوعة ، بل استطاع أن يحصر الشعوب التي وفدت على مصر ، ومع هذه القوة الكامنة في مصر لم ينتج المصريون فلسفة خاصة بهم ، ورب معترض يقول : إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفة تبين الفلسفة الهلينية بعض التباين ، ولكن قاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية لم يكونوا من المصريين بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم على أساتذة مدرسة الإسكندرية ، وقد ذهب بعض مؤرخي مدرسة الإسكندرية إلى أن أفلوطين من صعيد مصر ، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية ، وظهر ذلك في آرائه التي حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية ، ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها في مصر ، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٢٢ وأقام إحدى عشرة سنة في الاستماع إلى الفلسفة اليونانية ، ثم رحل عن مصر إلى سوريا والعراق ، وفي سنة ٢٤٥ م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سني حياته إلى أن توفي سنة ٢٧٠ م . فأراه أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية ، ولكنها كانت بتأثير هذه الرحلات التي قام بها ، فمدرسة الإسكندرية على الرغم من استمرارها في مصر عدة قرون لم تؤثر في المصريين تأثيراً له خطره ، والذي قبله المصريون من دروسها هو شيء قريب إلى عقلية الشعب المصري التي تميل إلى كل شيء بسيط لين ، ولذلك لم تتمكن مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلاً عقب الفتح العربي ، إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين ، إلى أن أطاد الفاطميون تعاليم المدرسة الإسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ثم خرجت هذه التعاليم من مصر باقراض الدولة الفاطمية . ولم تعد إليها إلى الآن ، وأغلب الظن أنها لن تعود مرة أخرى إلى مصر ، وفي تاريخ الحياة الصوفية في مصر لم نجد صوفيا له فكرة متميزة به ، وإذا قلنا : إن ذا النون

المصري كان من أوائل الصوفية الذين لهم رأى في وحدة الوجود فإن تعاليمه لم تزدهر في مصر ، وإنما الذين حملوا آراءه كانوا من غير المصريين ، وذلك كله لأن المصريين شغب يميل إلى الهدوء واللين في حياتهم وفي تفكيرهم ، وذلك من تأثير البيئة المصرية .

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء فزاهم هادئين في تفكيرهم ، وفي ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التي تلائم طبيعتهم ، وظهر في وصفهم للطبيعة تلك الصور الهادئة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة ولا عمق المفكرين ، وإنما كانت صورهم هي صور الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون .

والمصري عرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة ، وإذا غلب عن بيئته فهو يحزن إليها حيناً شديداً جداً ولا يلبث أن يعود إليها ، وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون بتصوير هذه البيئة ، ولم يحاول الشاعر المصري أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله ، ومن هنا كان تصوير الشعر المصري للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حمية ، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر ، ولا يصور الشاعر شعباً غير شعب مصر ، فليطمنن الذين زعموا أن مصر لم تنتج أدباً ، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصري في العصر الفاطمي ، ثم العصور التي ولت هذا العصر ، وأن الشعر المصري يصور حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل .

أما أخيلة المصريين في التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم ، فهي أخيلة مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم أيضاً ، فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية ، فاستعمال الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمي بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية ، وأن توسع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمخالاة في استخدامها هي ضرورة اضطرتهم إليها حياة العصر الفاطمي نفسه ، حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمي هذه الألوان الحسية في شعرهم

وقد تحدثنا عنها في كتابنا وأدب مصر الإسلامية، وأوردنا شيئاً من شعر شعراء هذا العصر، بما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية، ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالعلو في كل شيء، فقد رأينا علو الفاطميين في الدين، وعلوهم في اللهو، وعلوهم في التزين والتجمل، وعلوهم في الملابس والمسكن: علو في أعياد فرحهم، وعلو في ذكريات ماتمهم. فظهر هذا العلو في فن الشعر ظهوره في خواصي الحياة المختلفة: فأسرف الشعراء في العصر الفاطمي في استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلامس أشرف الفاطميين في حياتهم، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان الحسية عن الزينة. ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البديعية أو أنهم لم يعرفوا في استخدامها، بل كانت الزينة البديعية في الشعر العربي أقدم عهداً من الفاطميين، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين في مصر، فقد فتنت الزينة البديعية الناس جميعاً في كل البلاد العربية، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني، وإرضاء الجمهور الذي فتن بها، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي، ولم يتخلفوا عنه، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعية، فسبقوا غيرهم في مضماره، وذلك لما في المصريين من دقة الحس ورقة الشعور وميل إلى الفكاهة وخفة الروح، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي يظهر عند غير المصريين من الشعراء، ولا تلبس جهد الشاعر في الحصول على هذه الصورة الفنية التي ابتدعها في شعره، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها ما يشاءون دون جهد فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تعليلها، وهي صور مصرية وتعليلات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية.

وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضاً إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضاً، لم يقبوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية، وهكذا ظهرت شخصية مصر في الشعر بارزة واضحة.

الباب الثاني

في النثر

الفصل الأول

ازدهار النثر

رأينا في كتابنا ، أدب مصر الإسلامية ، كيف أسس ديوان الإفتاء بمصر في عهد أحمد بن طولون ، وأن أول من ولي هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبد كلن الكاتب ، وعرفنا كيف استدر تلاميذ ابن عبد كلن يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين ، فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر ، حتى إن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طب طب المحرد وابن عبد كلن الكاتب ، ويقولون : بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلها (١) وكثر عدد الكتاب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلى بن أحمد المادرائي وابن الهادي وإسحق بن نصير العبادي وإبراهيم بن عبد الله النجيري ومحمد بن كلاو الروزباري وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فنًا يتكسبون به ، ومؤهلًا لتعيين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد ، فكثرت تنافس الكتاب في تجويد الكتابة وإتقان الصناعة حتى علا منارها وعظم شأنها .

تولى الفاطميون أمر مصر ، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة ، فتضاعفت

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ١٧ .

هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولاً بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد ، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة وفي مصر الفاطمية على وجه خاص ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل . ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معا ، فقد عني الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء . بل لا أغالي إذا قلت : إن عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء . ذلك أن انصاع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرنهم إلى أن يوجهوا همهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم . ويحدثنا المؤرخون عني هذه الدواوين وعن الكتاب الذين تولوها والتشريف الذي كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمي . من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك (١) ويذكر المقرئ أن أبا البركات بن أبي الليث متولى ديوان المجلس سنة ٥١٧ هـ كان له باسمه مياومة إدرارا من بيت المال والخزائن ودار التعمية والمطابخ وشون الحطب الشيء الكثير ، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار ومن الضأن رأس واحد ومن الحيوان ثلاثة أطيار ومن الحطب حملة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلاً ومن الخبز عشرون وظيفة ، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصر يتان وشمامة ، كما كان له في كل يوم اثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص وصحن من الأرائل وخمسة وعشرون وغيفاً من الخبز الماقدسي والسמיד ، وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسطة مثل ذلك ، وفي كل يوم سبت وثلاثاء من أسطة الركوبات خروف مشوي وجام حلوى ورباعي عنب ، وكان يحضر إليه في كل يوم من الاصطبلات بغلة بمركوب محلي ، وبغلة يرسم الراجل وفراشين يرسم خدمته ؛ ولم يقتصر الأمر عليه وحده بل جعلوا لولده جلوباً كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال دقيق وراتباً عشرة دنائير . (٢)

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٩ .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٦ .

ويقول المقرئ أيضاً عن ديوان التحقيق : إنه كان لا يتولاها إلا كاتب خبير وله الخلق المرتبة والحاجب (١) ، أما صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم ، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والخناد والمسند والدواة ، وهي من أخص النوى ويحملها أستاذي الخليفة (٢) ، ويحدثنا ياقوت : أن رزق ابن خيزان كاتب الإنشاء في عهد المستنصر ، كان ثلاثة آلاف دينار في السنة ، وكان له عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شيء (٣) . فهذا التشريف الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة في هذا العصر ، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذي رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب وإقبال الناس على التعليم وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين ، فكثرت عدد الكتاب وأصبح على المتأدب أن يأخذ عن الكتاب طرائقهم وفنهم . ويحدثنا القاضي الفاضل : أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن الكتابة ، قال القاضي الفاضل : كان فن الكتابة بمصر في زمن بنو عبيد غضا طريفاً ، وكان لا يتعلم ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقوم لسلطانه بقله سلطاناً ، وكان من العادة أن كلام أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع ، فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بغير عسقلان إلى الديار المصرية في أيام المحافظ ، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجل ، يقال له : ابن الحلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبت رجب بي وسهل ، ثم قال : ما الذي أعددتك لفن الكتابة من الآلات ؟ قلت : ليس عندي شيء سوى أني أخفظ القرآن العزيز وكتاب الحامسة . فقال : وفي هذا بلاغ . ثم أمرني بملازمته ، فترددت .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٢ (٢) مصدر فقه ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ (طبعة رفاعي)

عليه وتدرجت بين يديه ، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحاسة فخلته من أوله إلى آخره ، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فخلته (١) .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة ، فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عند الكاتب في هذا العصر ، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عرف بعد ذلك بالقاضي الفاضل أن ينثر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحاسة تهية له في الدخول في سلك الكتاب . ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتباً ، بل كان لابد له من آلات - على نحو ما عبر ابن الخلال - وهذه الآلات هي علوم العربية ، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية ، فلا يقع في لمن نحوى أو لغوى ، أو يبتعد الكاتب عن سنن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم . ولم يفتح الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب سليمة صحيحة ، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك ، بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية ، فلا غرو أن يقول القاضي الفاضل : « إذ فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد كان غصنا طريا ، وأن تصبر نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتباً من كتاب الدواوين .

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في مصر الفاطمي أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتاب ، وكانوا يصلون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجرائى واليازورى والبايلى وبنو المغربى وابن المدبر وابن الأنبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب ، وقد بلغوا مرتبة الوزارة ، حتى إن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام ، وأن وزراء الدور الثانى كانوا

من أصحاب السيف . وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني ، أو أن الكتاب أصبحوا في مكاة تقل عن مكاتهم الأولى ، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول ، ومنهم من جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مملكته ، ومنهم من القضاة والدعاة . وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة ، فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكاتهم للمنازة ، والنعم العميمة ، والمطايا الجزيلة ، فلا غرابة إذن أن يقبل الناس على الكتابة ، وأن تزدهر في هذا العصر .

أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشد العوامل على ازدهار الكتابة ، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان ، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول ، فيه الحضر على قوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الخفيف ، ثم الإشارة إلى المنصب الذي سيعين فيه الموظف ، وما يتطلبه ذلك المنصب من مهل ، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب ومشورة في تصريف العمل . وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك . وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا ، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخا للعصر الفاطمي كله . وكان الكتاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفايتهم في صياغة هذه السجلات ، ويتنافسون في هذا الفن . بلغت هذه السجلات الفاطمية صوراً رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل .

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي ، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلوا بطن الكتابة ، حتى أصبحوا كتابا في دواوين الفاطميين . وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وقرب ونعم .

النثر والأدب :

وكان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر ، فقد كان الأئمة

يلقون الخطب الدينية في المسجد الجامع . ويقرونها ما يعرضه عليهم الندوة
من مجالس المحكة ، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس . فن خطبة
المزدين الله في عيد الاضحى سنة ١٣٤١ هـ .

• الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الاعز الأقدس ، الخالق
المدير ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد الصمد ، الفرد
المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات
والارض بالقدرة ، ومالكها بالعزة ، ومديرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها
من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذي كل شيء من موات وحى
متوجه بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالتوحيد ، والتعظيم والتحميد ،
فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله ، وانهاؤها إلى الغايات
دليل على أن لا غاية له ، وإحاطته بحدودها منبئ بأن لا أحد له ، فالضعف
والعجز والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد
للخالق وحده - جل ثناؤه - بالإلهية والفرديّة والقدرة والربوبية والتمام
والكمال والأزل والدوام . تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شيء خلقه ،
وكفل لكل حي رزقه . ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ، ووجبت طاعته ،
والكتب والرسل الذين تمت بهم حكته . فصلى الله عليهم أجمعين ، وعلى
محمد سيد المرسلين ، الذي رفع ذكره وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه
بكل فضيلة ، وأبتعثه هاديا للعباد ونورا في البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى
به من الضل ، وكثر به من القل ، وأعز به من الذل ، فألف به بعد الشتات ،
ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وآله المهديين الاخيار الطيبين .
يا أيها الناس إن الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يجعلكم سدى ، ولم يجعل عليكم
في الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صنفا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته
وطاعة رسوله أسركم ، وجعل للطاعة أعلاما منصوبة ، وفروضا مكتوبة ،
ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق بموا
إبراهيم خليل الله ، وقبة محمد رسول الله ، فتقربوا إلى الله بما أمركم به ورتقكم
لرباه من بهيمة الأنعام ، مقتدين بسنة محمد نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله

التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، فبالتقوى قبل الأفعال ويبدك الأمل ، وكبروا الله على ما هداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدى الإبل ، وخير الإبل إنائها ، وكذلك من القرشم الفحول من الضأن ، وسلامة الضجايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، فسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه . »

وجلس ثم قام في الثانية ينعي المنصور ويعلم موته ، بعد أن كان موته قد ظل مستورا عدة أشهر :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر شانا ، وأعظم سلطانا ، وأوضح آيات وبرهانا ، عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما ، الفرد الصمد ، الواحد الأحد الذي لا شريك له ولانده ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، الزاقد قضاؤه ، الكائن ما يشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الموسع كل شيء رزقا ، المحيط بكل شيء علما . أحده وأستبينه وأستغفره وأستهديه وأفوض إليه ، وأنوكل في كل الأمور عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً خيره من عباده ، ونبيه من يرثه ، وصفوته من المتعلمين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين ، ليبلغ حجة الرب ويوضع محجة الحق . فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله . وصبر على الكبار من مكر الكفار ، إلى أن أدال الله للحق على الباطل . والهدى على الأضائل . محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكها ، وأكملها وأتمها . وأخطأها وأبقاها ، وعلى الأئمة المهديين : من عترته الكرام الأبرين ، الذين اختارهم للخلافة . وارتضاهم للإمامة . وأكد بوصية الرجل حجبتهم . وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلى أفضل الوصيين . وعلى من أمه سيدة النساء ، خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم . وعلى أميرى المؤمنين . المهدي بالله والقائم بأمر الله

سیدی الوری ، و إمامی الھدی ، اللذین أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأخلق
بهما الإیمان والمؤمنین ، وأقام بهما دعوة الدین ، وأزهق بمحتمهما باطل المدعیین
وأکذیب المتخرضین ، وقطع بسیوفهما دابر الظالمین ، صلوات الله ورحمته
وبرکاته ورضوانه وتحیاته علیهما . اللهم اخصص الإمام الفاضل ، والوصی
العادل ، والبر الفاضل . والنعیک الوابل . ذا الآیات المعجزات . والمعزائم
الناقذات . الباذل نفسه الکریمة فی حین الازل والکربیات . الصابر فی البأساء
والضراء حتی طهر الارض من جبابرة الأعداء . عبدک وولیک ونجیبک
وصفیک أبا الطاهر ، المنصور بک والمتوکل علیک ، والمفوض إلیک ، العامل
بما یرضیک ویقرب إلیک ویزلف لیدیک . الذی لجعتنا بفقدہ ، وأوحدتنا
ببعده ، وأفردتنا منه وأوحشتنا ، فقبلت دعاءہ ، وأجبت نداءہ ، وجفت
بینہ وبین أحبته فی مستقر جنتک وسعة رحمتک . إن التلق وشدة الحرق
علیک یا أبتاه یاسیداه یا إسماعیلاه یا أبا الطاهره ، یا بحر علوم الأئمة
الطاهرین ، الهداة المہدیین ، یا بقیة أبناء الرسول ، وأبناء الوصی والطاهرة
البتول ، یا إمام الأمة ، ومفتاح باب الرحمة ، یا سراج الھدی وشمس الوری ،
وجلی الطخیاء ، یا غصوصا من الله بتعجیل الكرامة ، عظم والله علینا
المصاب بک وحل البلاء وعدم العزاء لفقدک ، وقصرت الألسن عز إدراک
إحصاء شمائلک وتعداد مناقبک ، فوحد الذی اختصک بکرامته وحباک
بجزیل عطائه ، وشرفک بأبوة رسوله ، لولا ما أوعزت إلی به وأكدته علی
من القیام بحق الله ، والذب عن أمة جدک رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة
الجهالة وبحار الضلالة ، وهماوی الفتن ومعاطب المحن ، وما قرر عندی ورسخ
فی صدری من الجزاء بمقدار الوفاء لله ورسوله ولأئمة الھدی ، لضربت علی
وجهی سائما فی البلاد قالیاً للهاد ، راضیا بیلغة من الزاد ، إلی أن یلحقنی
الموت سریعا بک ، فأفوز بقربک ورحمة ربک ؛ لکنی فکرت ونظرت
وتدبرت . فلم أر لی وجهاً أستوجب به درجتک ، والحق بشرفک ، سوى الصبر
والاحتساب فتجلدت ، وصبرتی ربی فصبرت ، وغلب علی الیقین فأمسکت ،
فأقول . إنا لله وإلیه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلی العظیم

الرحمن الرحيم له الحمد على ما أبلى ، والشكر على ما أولى . . . الخ (١)
وأكتفى بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي وردت في كتاب «سيرة
الأستاذ جوذر» ، ولعلك تلاحظ أن المعز قد أتى في خطبته هذه ببعض العقائد
الفاطمية ، من السهل الآن على القارئ أن يدركها ، والمهم الآن أن نلاحظ
هذه الصنعة الفنية في أسلوب الخطبة ، فالجمل قصيرة ، وتكاد الجملة تكون على
وزن وطول الجملة التي تليها ، والسجع ظاهر فيها . وبتنقل المعز من معنى
إلى آخر انتقالا طبيعيا لا تكلف فيه .

وإذا قرأنا توقيعات المعز التي ضمنها القاضي النعمان بن محمد كتابه «المجالس
والمسايرات» وتوقيعاته التي أرسلها إلى وليه الأستاذ جوذر التي جمعها صاحب
«سيرة جوذر» رأينا أن هذه الصنعة الفنية في الكتابة لا تلازم الإمام
المعز في توقيعاته ، فقل أن نجد السجع ، ولا هذا التكلف الذي رأيناه
في خطبته ، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادي الذي يتحدث به أمام الناس
في الشؤون المختلفة مع سلامة أسلوبه وفصيح عبارته ، مثل توقيعه
إلى جوذر رداً على رقعة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد
كتابه : «وقفنا على رقعتك ، ومحل محمد محل مثله بمن صدقت نيته ،
وقدمت في الجليل صحبته ، ونحن نحب أن يسبح الله نعمنا على من لم يعرفنا ،
فكيف من لم يعرف إلا بنا ، ونحن نسمف جعفرأ لسؤالك ما سأل فيه
إن شاء الله» (٢) .

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز ، فقد كانوا على ثقافة
واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردى .
بل تنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تنسب إلى المستنصر
الفاطمي والتي عرفت «بالرسائل المستنصرية» (٣) . والتي قيل : إنها الرسائل

(١) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبي) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة الفنون العرفية بلندن .

التي تبودلت بين المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن ، فؤرخو
الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه ، ولكنى -
بعد أن اطلعت على هذه الرسائل - أستطيع أن أقول إن أسلوبها أقرب إلى
أسلوب المؤيد في الدين داعي الدعوة .

وكذلك قول عن رسالة الهداية الأمرية ، (١) التي ينسبها للإسماعيلية
إلى الإمام الأمر بأحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيظنى فاشتر هذه الرسالة
في نسبتها إلى الإمام الأمر ، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين
كانوا في عصر الأمر .

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار
الحياة المصرية في ذلك العصر ، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل عن
منابعه التي كثرت ، وتمددت ألوانها وفنونها : وتطور الكتابة يتبع دائماً تطور
الحياة العملية ، فإذا ارتفعت العلوم تبعها رقى في الكتابة ، وإذا انحطت العلوم
انحطت الكتابة .

(١) الرسالة الموسومة بالهداية الأمرية في إبطال دعوى الغزالية تحليق الأستاذ آصف على
صخر فيظنى (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند) .

الفصل الثاني

كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي : ولما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي : (١) هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ، ولا غرو في ذلك إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة (٢) ، ولما كانته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف (٣) كما كان الخليفة يستشيره في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه مني قصد المثل بين يديه (٤) ، وقد تحدث ابن منجب الصيرفي — أحد كتابهم — عن الصفات التي يجب أن يتحل بها رئيس ديوان الإنشاء ، فنلخص أهمها فيما يأتي :

- ١ - أن يكون ذا دين وورع وأمانة .
- ٢ - أن يكون دينه الإسلام .
- ٣ - أن يكون على مذهب الملك .
- ٤ - أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسن منزلة ، وبجيت لا يوجد أحد في عصره يضوقه في هذا الفن .
- ٥ - أن يكون مضطلعا بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .
- ٦ - أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى ، وحافظاً للأشعار راوياً للكثير منها .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .

(٢) خطاط القريري ج ٢ ص ٢٤٤ وصبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق (٤) المصدر السابق .

v - أن يكون أصيلاً في قومه ، رفيعاً في حربه (١) .
هذه أهم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء ،
فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان ؟
يوسفى أن أقول : إن الفاطميين لم يأبهوا بهذه الشروط والصفات التي اقترحها
أحد كتابهم في كتاب قدمه لوزير من وزراءهم ، ولكن ابن منجب كان من
كتاب القرن السادس للهجرة في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وفرة أعدائهم ،
ولا سيما قوة الصليبيين ، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام
دين رئيس الديوان ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسرارهم من
يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو خذله الله وأباده ، (٢) . فإن وجود
الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر إلى أن
يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلماً . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ
قامت دولة الفواطم في مصر ، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة ،
كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا
الديوان من أهل الذمة ، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز
والرئيس قهد ، كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودي في عهد
الحافظ . معنى هذا أن الفاطميين لم يأبهوا بمنصب الكاتب أو دينه ، بل لا أغالى
إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيراً ما يستعينون بالذميين في دولتهم ، وهذه
ظاهرة سجاجها المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية ، ولكن ليس معنى ذلك
أن الفاطميين أبعدوا المسلمين عن الدواوين ، فإن الكثرة الساحقة من كتاب
الدواوين كانوا من المسلمين ، فإذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي
لموردت في صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين ، فقد جاء في هذا
الكتاب : « فكتب للعزيز بالله بن المعز ، أبو المنصور بن نسطوروس النصراني ،
ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ، فكتب للحاكم ، القاضي أبو الطاهر
النهركي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب للمستنصر ، القاضي ولي الدين

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ، ص ٩٥ .

ابن خيران، ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدى، وكتب للأمر والحافظ، الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي، إلى أن توفى سنة اثنتين وخمسين وخمسة، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى في أيام الحافظ. وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي، والقاضي كافي القضاة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قادوس وابن أبي الدم اليهودي، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره. القاضي الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد، وبه تخرج القاضي الفاضل البيهقي، ثم أشرك العاضد مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، القاضي جلال الملك محمود الأنصاري، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١).

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى، ليست عرضاً لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله، كما أن الذي نراه في كتب التراجم وفي المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى، إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهري القائد كان يلي ديوان الإنشاء في عهد العزيز (٢) وأنه ظل في منصبه إلى أيام الحاكم، ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري، ثم جاء بعده الكافي بن عبدون النصراني، ثم صرف وقرر بدله أحمد بن محمد القشوري الكاتب، ثم زرعة بن عيسى بن فسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافعي، وبعدة حسين بن طاهر الوزان (٣). ونقهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك ابن سعيد الفاروق كان له النظر أيضاً في المكاتبات في عصر الحاكم (٤)، وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (٥)، ويذكر المؤيد في الدين

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ . (٢) خطط المبريزي ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) أتماظ الحنفا ص ٣٠٠ وما بعدها (٤) الولاة والقضاة ص ٦٠٦ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨ .

لهبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣هـ (١) ،
ويذهب المقرئ إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف
عن الوزارة (٢) وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدي الحسني كان على رأس ديوان
الإنشاء في عهد الأمر (٣) ؛ وهكذا نستطيع أن نعرف عدداً آخر من الكتاب
الذين ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندي ، كما نستطيع أن نستخرج
أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء ، ولكننا
لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في الكتابة ، لأن آثارهم فقدت ولم يبق لنا
إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكون رأياً صحيحاً عن كل كاتب
من هؤلاء الكتاب ، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا
المصر ، بحيث نستطيع أن نلصقها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من
كتاباتهم ، فأول خصلة من هذه الخصال ، هي أن الكتاب جميعاً التزموا السجع
في كتاباتهم ، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض
صلاح الدين الأيوبي أركانها . نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي (٤) ،
وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى ، وهذه الرسالة كانت من إنشاء
يعقوب بن كلس (٥) وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم (٦) وفي
رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وفي كتابات ابن خيران ، ونستمر
في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن
الشيخياء ، ثم في رسائل الفاضل الفاضل .

١ - وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب ، وهي الاقتباس من القرآن
الكريم ، فكانوا أحياناً يضمون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن ،

(١) السيرة المؤيدية (من مطبوعات دار الكتاب الحرى) .

(٢) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٥٧ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

(٤) انماظ المنقاس ٢٥١ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٦) الخطط ج ٣ ص ٣٣ .

أو يقتبسون بعض معاني القرآن ، متأثرين بهذا كله تأثراً واضحاً في جميع ما خلف لهم من كتابات .

وخصلة ثالثة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم ، فهم يفرقون في المبالغة حين يحاولون تهنيط المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النقيض : فإذا بك تجد كتاباتهم تتألف من جمل قصيرة في الغالب ، والجمل تتبع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها ، ويتنقل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعذوبة ، فلا يتنقل بك انتقالاً فجائياً ، مما يدل على فطنة الكاتب ، ومهارته ، كما يدل أيضاً على أن الصنعة الفنية كانت تستهوي جميع الكتاب على أن هذه الخصال التي عرفت في العصر الفاطمي عرفت أيضاً في رسائل ابن عبد كان ، فلا غرابة إذا قلنا : إن أثر ابن عبد كان في كتاب مصر كان قوياً شديداً ، وإن فنه الذي عرف به في العصر الطولوني قد ظهر واضحاً في العصر الفاطمي ، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله مبالغتهم في كل شيء في حياتهم . كما أن هذه الخصال نفسها هي التي عرفت بها كتابات القاضي الفاضل ، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، والمعجب حقاً أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهباً خاصاً عرف به في الكتابة ، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية ، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضي الفاضل ، ونحن نلمس لهؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا ، لأنهم كانوا تبعاً في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل ، وتناسوا أساقفته وخصائص مذهبهم التي أخذوا عنهم ، وجاء المحدثون يتبعون القدماء في أحكامهم دون درس وبحث .

وخصلة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين ، ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم ، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعتم عقيدتهم الدينية ومذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم

وسجلاتهم بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والآئمة من أهل البيت ، ويتمدون دائماً أن يذكروا أن عمداً جدد الآئمة ، فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم ، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيداً ما حاول خصومهم نفيه ، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين ، بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والآئمة ، كانوا يختمون هذه الكتابات والسجلات ، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتابهم . ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في رسائلهم . والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان أي ملك في عصرنا الحديث ، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطرات الإمام الفاطمي ، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان ، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل ، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا ، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة .

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثراً يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة ، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلون بالعقائد ، ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم فأويلا يتفق مع منهمم الفاطمي ، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد ، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تصب على ولاية علي بن أبي طالب والآئمة المنصوص عليهم من بعده ، وسجل ماتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال ، وسجل رؤية رمضان في ذكر ضيعة

الفاطيين في هلال رمضان ، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المنصب .

ولعل أول قطعة ثرية وصلتنا عن الثورة الفاطمية هي ما كتبه القائد جوهر الصقل فاتح مصر ، وتلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه واهل إمامه للبصريين ، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي ديجتها براعة هذا القائد ، فقد كان جوهر كاتباً للمعز قبل أن يوليها قيادة جيوشه بالمغرب (١) ، ويحدثنا المقرئ أن القائد جوهر أكلن كاتباً بليغاً ، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة رفعت إليه بمصر :

« سوء الاجترار ، أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الإلغام ، أخرجكم من حفظ النمام ، ظلوا جب فيكم ترك الإيجاب ، واللازم لكم ملازمة الاحتساب ، لأنكم بدأتهم فأسأتم ، وعضتم فتعديتم ، فابتدأكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة إلا تقتضى النهم لكم ؛ والإجراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه وأيه فيكم ، (٢) .

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهر أكلن على مقدرة وكفاية في فن الكتابة ، كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب . فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه المعاني المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي ، بل كاد يسود العالم الإسلامي ، فالزينة اللفظية في هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعاً .

أما الأمان الذي هو أول نص حفظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه : —

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : إنه قد ورد من سائر توره الترميل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسي أيره الله ، وأبو الطيب الهاشمي

(١) حبرة الأستاذ جودر (مخطوط) .

(٢) خط المقرئ ج ٢ ص ٢٠٧ .

أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضي أعزه الله وذكروا
عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع
أحوالكم ، فمرفق ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ،
وحسن نظره لكم : فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حاكم ،
وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتباعدوا إلى طاعته العائنة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ،
وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجا للمساكر المنصورة ،
والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم . . . الخ . . . (١)
ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه ، وما على الحكومة
الجديدة من تمهيدات نحو الشعب المصري ، ويخيل إلى أن كاتب هذا النص
لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يظهر صناعته الفنية في المزوجة بين الجمل
والترام السجع في كل فقراته ، وإن كان الكاتب حاول أن يرتفع بأسلوبه
وأن يجعله أسلوبا أدبيا .

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر ، رأينا رسالة أخرى للمعز
أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي ، ونحن لا ندرى من الذي كتب هذه
الرسالة عن المعز ، فالرسالة التي وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة . ومع ذلك
فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي ، حتى
نستطيع أن نميز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله ، فقد جاء في هذه الرسالة :

« من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي نعيم المعز لدين الله أمير
المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل علي أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .
بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأولياء ،
ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآف منا . صلوات الله علينا وعلى
آبائنا ، أولى الأيدي والأبصار ، في مقدم النور والأكوار ، وسالف
الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، واتتصاهم لأمر الله ، الابتداء
بالإعذار ، والالتفاء بالإندار ، قبل إنفاذ الأقدار ، في أهل الشقاق والآصار ،

(١) انماظ الحفاص ١٤٨ (طبعة دار الفكر العربي) .

تكون الحجة على من خالف وعصى ، والمعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال
الله جل وعز : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . و « وإن من أمة
إلا خلا فيها نذير ، وقوله سبحانه : « قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة
أنا ومن اتبني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ، و « فإن آمنوا بمثل
ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق ، أما بعد — أيها الناس ،
فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مما جده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجداً
طالياً سرمداً ، على سبوح نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتهى إليه الوسيلة بالتوفيق
والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه بما يلة الهوى ، والنزيع
عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضات البركات ، وطيب
التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آباؤنا الراشدين
المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس : « قد جاءكم
بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، ليذكر من يذكر ، وينذر
من أبصر واعتبر : أيها الناس : إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا
قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحاً ، وأبرزنا
أرواحاً ، بالقدرة مالكين ، وبالقدرة قادرين ، حين لأسماء مبنية ، ولا أرض
مدحجة ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولا ليل
يمس ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ،
ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار ، فنحن أول للفكرة وآخر للعمل بقدر
مقدور ، وأمر في القدم مبرور ، فعند تكامل الأمر وصحة العزم وإنشاء الله
جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات من الهيولات ، طبعتنا أنواراً وظلماً ،
وحركة وسكوناً . وكان من حكمه السابق في خلقه : ما ترون من فلك دوار
وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار
بامرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور
والأنواع ، من كفيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس
وملموس ، ودان وشاسع ، وما يبط ويطالع ، كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة
طينا ، وإشارة إلينا ، يهدي به الله من كان له لب سليم ، ورأى صحيح ،

قد سبقت له الحسنى ، فدان بالمعنى . . . الخ (١)

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية بحيث نستطيع أن نقول : إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتاب الفاطميين ، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين ، فالاصطلاحات الفاطمية (الناطق) و (الوصى) ، ثم حديثه عن خلق الأشباح أى المشولات قبل خلق العالم ، وأن الأئمة أول الفسكرة ، أى أنهم مثل للعقل الأول (المبدع الأول) وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل . كل هذه مع المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون ، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد ، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب ، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثانى من القرن الرابع للهجرة ، بل ، هى من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية ، وترينا تطور المذهب الفاطمى إذا قارناها بما جاء في كتب منصور بن الحسين بن حوشب الذي وجد قبل عصر المعز ؛ أو كتب القاضي النعمان ، وجعفر بن منصور والمروزي ، الذين كانوا في عهد المعز ، ثم كتب اللطاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز . فمؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالاً للبحث في هذه الرسالة الهامة :

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمى ، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة . انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة :

فأما أنت أيها الغادر الحائن ، الناكث البائن ، عن هدى آباءه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه أنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة فلم أخفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دونى أرك ، وإنك منى ليمتظر ومسمع ، كما قال الله عز وجل : إني معكما أسمع وأرى ، وه وما كان

(١) أتناظ الحنفاس ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي) .

أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بنتيا ، فرقنا على أي رأى أصلت ، وأى طريق سلكت ، أما كان لك بحدك أبي سعيد أسوة ، وبعتل أبي طاهر قنوة ، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ، أكنت خاتبا عن ديارهم وما كان من آثارهم ، . فأتت قرأ هذه القطعة فحسرت أنك قرأت رسالة ابن عبد كان التي كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عندما ثار على أبيه ، فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، والاقبياسات من القرآن الكريم ، وضم الجمل إلى ما يشاكلها . كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان ، وقلها تلاميذه عنه ، واستمرت طوال العصر الفاطمي .

ووصلت إلينا رسالة كتبت في عهد العزيز بالله ، كتبها إلى عامله بمصر يشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٤٢٧ هـ ، ونحن لا نعرف أيضا كاتب هذه الرسالة ، ولكن لاشك في أنها كتبت في العصر الفاطمي ، لما فيها من الخصائص الفاطمية التي تحدثنا عنها من قبل ، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفني ، فقد جاء في هذه الرسالة (١) .

« من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين ابن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وينأله أن يصل على جده محمد نبيه ورسوله ، صلى الله عليه وعلى الآئمة من هترة الأبرار ، الطاهرين المطهرين وعلم تسليما .

لما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الخليم ، ذي الطول الكريم ، والمن الجسم ، والعز المديد ، والجمال الشديد ، ولى الحق ونصيره . وما حق الباطل ومبيره ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين . لأولياءه المتقين ، وخلفائه المصطفين ، الذابين عن دينه ، والقائمين بحمته ، والدالين على توهيته ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حجبهم ، وظهورهم على أمدان المشاكين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدون في آياته ، الجاحدين لتمامه ، المنزل وجزوه

(١) الرسالة بأكملها في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٤ وما بعدها .

وقوارع بأسمه على من عصاه لخاده ، وصدا عنه فناده ، القاضى بالمواقب
الحسنى ، والفوز والنعمى ، لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه فى أمره ، وفوض
إليه حكمه ، كل ذلك فضلاً منه وعدلاً ، وقضاء فضلاً ، وهو الحكم العدل الذى
« لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » .

فأنت ترى فى هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن عمداً جده الإمام العزيز ،
وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذين عن دين الله ، فهذه كلها من المعانى
الفاطمية التى لا يقول بها غيرهم ، فإذا مضينا فى قراءة الرسالة رأينا الجزء
الأول منها يجرى هذا الجرى الذى رأيناه فى القطعة السابقة ، حتى إذا وصلنا
إلى الغرض من الرسالة ، وهو الحرب مع القره على رأينا الكاتب يفصل
حركات العزيز وانتقالاته إثر عدوه ، حتى قال الكاتب :

فبعد ما طمع ، قاده الحين الغالب ، والقدر الجباب ، وما أراد الله عز وجل
من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من يسان ورحيل من
استعجلته البلية ، واستدعته الرزية . فخل بموضع يعرف بكفر سلام ، كافر
بحدود الإسلام ، متجرئاً على الله محارباً لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها
متلداً فى حيرته . متردداً فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه واؤمه ،
إلى أن رحل فزل بكفر ما با البريد ، فأبأه اسمها بما حل به من السبي المبيد ،
والخزي الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة . ونصب أعلامه
المخزرة وأقام صفوفه المغلولة ، وأظهر آلة الحرب إقداماً ، وأخفى عن اللقاء
إحجاماً . . . الخ .

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب فى هذه الرسالة ، التى لا تكاد
تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الرسالة السابقة .

وفى عهد الحاكم الذى عرف بزعماته وتلجياته فى حكمه . كثرت السجلات
والأمانات فى عهده ، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير ، وقيل المقربرى
عن المسيحي صديق الحاكم وجليسه : « فى سنة خمس وتسعين وثلثمائة أمر
(الحاكم) بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنت والبرص والحلأ . نظام

قلوب الناس من ذلك جرع شديد ، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشوكة عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات ، وتحدث العوام في الطرقات ، أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم ، فاجتمع سائر الكتاب بأجمعهم في خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويضعون ويسألون العفو عنهم^(١) . ويروى المقرئ أيضاً أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق^(٢) وما أورده المقرئ صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله . إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين . وأبيننا علي خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال ، والدم والمال ، لاخوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، ليعول عليه إن شاء الله تعالى وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم وتسلماً كثيراً^(٣) . »

كما ورد في صبح الأعي^(٤) سجل بتوايئة الحسين بن علي بن ثنعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله ، وفي هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التي تراها في كتاب الأمان السابق . وما جاء في هذا السجل :

« أمره أن يثنى الله عز وجل جنى التقوى ، في السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهي ، ويتنصم من الشبهات والشكوى والهوى . »

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٧ . (٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٣ .
(٣) المصدر نفسه . (٤) صبح الأعي ج ١٠ ص ٢٨٥ .

فإن قهرى الله تبارك وتعالى ، موئل لمن وتل إليها حسين ، وممقل لمن اقتفاهما
أمين ، ومعول لمن حول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفضلها ، وزاد
في سناها ، بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : يا أيها الذين آمنوا
اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .

ولا نستطيع أن نعرف للكاتب الذى سطر هذه السجلات وكتب الأمان
التي صدرت في عصر الحاكم ، لأن ديوان الإنشاء في عهده تداوله عدد كبير منهم
بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم في
الديوان ، واستمر الأمر في غموض ، ولعل أول كاتب في هذا العصر المضطرب
نستطيع الحديث عنه هو ولي الدولة ابن خيران .

أبيه فخرانه :

أما هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن علي بن خيران ولقب بولي الدولة .
ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولي ديوان الإنشاء بعد أبيه في عهد الظاهر (١) ،
ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : « كان أبوه أيضاً فاضلاً
بليغاً . أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً » (٢) كذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان
الإنشاء ، ومتى ولي الابن بعده ، ولكن المقرئى يحدثنا في خطه أن أبا الحسن
عمار بن محمد — وكان يلى ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم ، وهو الذى تولى
البيعة للظاهر — قتل في ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، فاستوزر بعده
بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولي ديوان
الإنشاء بعد ابن خيران (٣) ، ويحيل إلى أن ابن خيران المذكور في نص المقرئى
هو الأب ، لأن ولي الدولة ظل في منصبه حتى شاعده عصر المستنصر ، ومع ذلك
فنص المقرئى يختلف عن نص ياقوت . إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن
الابن حل محل أبيه في ديوان الإنشاء ، على حين يذهب المقرئى إلى أن أبا

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ (طبعة فريد رفاعى) .

(٢) المصدر نفسه

(٣) خطب المقرئى ج ٢ ص ١٦٧ .

الفتوح موسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران ، ولا نستطيع أن نرجع إحدى الكفتين ، لأن المصادر التي بين أيدينا قليلة ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر .

ومهما يكن من شيء فإن ولي الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء للظاهر ثم للمستنصر ، ويحدثنا المقرئ : أنه في سنة أربع عشرة وأربعمائة قرر الشريف الكبير المعجمي والشيخ نجيب الدولة الجرجرائي والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول ببلذاته ، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة ، وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي الدعاة وتقيب تقياء الطالبين وقاضي القضاة ، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يوماً مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبتة (١) وإذن فقد كان ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة ١٤١٤ هـ ، ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة وهو على حالة من الضرورة وشدة الفاقة ، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر ، وهذا ابن خيران كان متولى كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم (٢) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة ١٤١٦ هـ .

ويروى المقرئ أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم يادرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم في الإطلاق ، ما عنكم ينفد وما عند الله باق ، (٣) فإن ابن خيران إذن كان صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضاً ، ويروى ياقوت : أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار بوله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهود ، وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شيء بحسبه ، وكان شاباً حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد المعارضة وسلم

(١) خطط للمقرئ ج ٢ ص ١٦٨ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨

(٣) خطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٣٨

إلى أبي منصور بن العيرازي رسول أبي كاليبجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله ، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم وغيره عن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير في تخليدهما دار العلم ليعفد جبة الديوان والرسائل إن علم أن ما أقره منها ارتضى واستجيد ، (١) وعلى الرغم من أن شعره فقد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة فإتنا نستطيع أن نقول : إن ابن خيران كان معجباً بنفسه ، يكثر الإشادة بشعره وبتأثيره . انظر إليه وهو يقول :

ولقد سموت على الأنام بخاطر الله أجرى منه بحر زاخرا
فإذا نظمت فظمت روضا حاليا وإذا شرت شرت ذرا خاخرا (٢)

ويقول مرة أخرى :

خلقت يدي للكرامات ، ومنطقي للمجرات ومفرق التاج
وسموت للعلياء أطلب غاية يشق بها الغاوى ويحظى الراجي (٣)

وهو القائل أيضا :

قد علم السيف وحسد القنا أن لداني منها أقطع
والدم الأشرف لي شاهد بأني فارسه المصقع (٤)

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فتن بشعره وبتأثيره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقي يأتي بالمعجزات ، ويخيل إلى أن إعجابه بنفسه لم يكن في الشعر أو في الشعر ، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والإعجاب بنفسه ، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بحياته ، ولعل القصة التي أوردتها ياقوت عنه تدل على ذلك كله ، قال ياقوت : كان ابن خيران قد خرج إلى الجزيرة متبرها ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة ، وقد احتفوا به يمينا وشمالا ، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة ، فلما رأى إجماع الجماعة من الفرسان عنها ، وظهر جزعهم منها ، قنع بغلته ، فولجها حتى قطعها ، واثني قاتلا مرتجلا :

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠

ومحاضرة يلقى الردي من خاضها . كنت الغداة إلى العدا خواضها
وبذلت قسى في مهاول خوضها حتى قتال من العدا أغراضها^(١)

وعلى الرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة في ديوان الإنشاء ، وأن له رسائل
كثيرة جمعها في حياته ، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التي كتبها
توقيعاً عن المستنصر . ويروي ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن ، أن الرسائل
حالة سليمة ، قد اقتضت من المنظوم على خطوة إلا من الوزن والقافية .

وتوفي ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ؛
وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدى ديوان الإنشاء المستنصر
في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، وكان نحوياً لغويًا ، وصنف
عدة كتب منها كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات ، وكتاب الإرشاد إلى
حل المنظوم ، وكتاب الهداية إلى نظم المشور ، وكتاب انزاعات القرآن ،
وكتاب العروض ، وكتاب القوافي^(٢) فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى
كان متأثرًا بهذه الثقافة اللغوية النحوية ، وأرجح أن كتابته في رسائله كانت
متأثرة أيضًا بهذه الألوان من العلوم التي حذقها فصنف فيها هذه الكتب ،
مضافًا إليها خصائص الكتابة في مصر التي تحدثنا عنها ، وقد أورد ياقوت له
بيتين من الشعر هما :

إذا ما ضاق صدرى لم أجدر لي مقر عبادة إلا القراقة
لئن لم يرحم المولى اجتهادى وثقة قاصرى لم ألق رافة

ولعلك تلاحظ هذه الجناس بين « القراقة » و « ألق رافة » ، ولا تدري
مقدار استخدامه لهذه المحسنات البديعية في كتابته لأننا لم نعر على شيء منها ،
ولم يصر العميدى طويلًا في الديوان ، إذ توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

ثم توالت الكتب بعده على ديوان الإنشاء ، نذكر منهم أبا الفرج النحل
وأبا الطاهر النهركي وولي العولة موسى بن الحسن وغيرهم ، إلى أن ولي المؤيد

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٦ (٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٧ .

في الدين هبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٤٤٣ هـ ، وقد تحدثنا طويلا عن المؤيد في الدين ، ونكتفي الآن بأن نعرض صورة من رسائله التي حفظها في كتابه « السيرة المؤيدية » ، من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لمؤازرة البساسيري في حركته المعروفة .

رسالة صه كتاب المؤيد :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بمطلعه ، والسكون إلى علم مودعه ، من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلها الله متصلتي الأسباب ، منتهى السحاب ، ونهته . فأما ما ذكر جوابا عن قولي حين نهيت أن أرى تاج الأمراء سمي ، لقيني بوجه التفتير في العزم ، أنتي ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون منه في ذلك ، فإن خاطبني على شيء منه خاطبني بلسان ، كل الناس به فاطقون ، وعليه متفقون ، لو كان كلامهم في ناجعا ، ومنى موقع القبول واقعا . إن الحضرة العالية — حرس الله عزها — عارفة بمن يلقى ذلك إلى علي جهة الإشفاق وهو غل ، والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شامت أن تسميهم لي أو تصدر كتبهم إلى لفعلت وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة في هذا الوجه ، ولكنها — حرس الله عزها — تتجنب ما يوزع سرى ، فمن أجل ذلك تكف ، فقد عرفته ، ومسلم للحضرة العالية — حرس الله عزها — قهوب الرأي والبصيرة والألمعية والخامس التي توحيدها الله به . فأما علم الغيب فقد اتقى منه النبي صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » ، ولعله نما إليها — حرس الله عزها — ذكر رجل أو رجلين تكلم بذلك ، مما قليل من كثير ، فاظنوني على ذلك ، وقبحوا على فعلي كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم في طامة الطريق . . . الخ ، (١) .

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها

(١) السيرة المؤيدية ص ١٠٥ (طبعة دار الكتاب العربي) .

خصائص الكتابة في مصر، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصرياً، إنما وقد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر، فلم يتأثر بمدونة الكتاب المصريين، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازوري وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء: «معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه الواسع والرزق السني الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردى، والضعيف في الصناعة والقوى. وأريد أن تعتبر من اتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايضة إلى، فإن كنت ممن يجرى في حلبيهم فرسه، ويطول نحو أمرهم باعه، فأزلي منزلتهم من الجاه والمال، وإلا فقل لي ما أنت مثلهم، ولا في آفاتهم، فقد رضيتك حكماً، وجئت لحكك مستسلاً» (١) ولكن لا تنسى أن الذي يقول ذلك هو المؤيد في الدين الذي عرف بغيره وطموحه (٢).

وكان الذي ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفروه إلى العراق في حركة البساسيري، هو القاضي القضاعي الذي تحدثنا عنه في فصل المؤرخين، ولكن لم تصل إلينا كتاباته (٣)، وناب عنه أيضاً أبو الحسن علي ابن الأباري الذي ولي الوزارة بعد ذلك سنة ٥٧٠هـ (٤). ثم اختلف على ديوان الإنشاء عند من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تحفظ آثارهم، إلى أن نلتقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر، أما الأول فهو أبو الفرج الموفق الذي وصفه العماد بقوله: «أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى» (٥)، ولكن العماد لم يتحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر في وصف فاعورة. أما الكاتب الثاني فكان معاصراً للموفق والمؤيد، وكان بينه وبين الموفق بعض الرسائل وهو ابن الشغباء.

(١) السيرة المؤيدية ص ٩٤ (٢) راجع مقامة ديوان المؤيد في الدين.

(٣) السيرة المؤيدية ص ١٠٣.

(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٢، وأخبار مصر لابن ميسر ص ٢٣.

(٥) الخريدة ورقة ٥٥.

ابن الشيخية :

أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشيخية ، ولقب بالمجيد ذي الفضيلتين ، وصفه العماد بقوله : « مجيد كنيته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيفة (١) ، وقال ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة (٢) ، ووصفه ابن خلكان بقوله : « صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى (٣) ، ويقول ابن بسام في ذخيرته : « كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعاً من ثنايا الأدب ، واجتناء لحيايا لسان العرب ، فقد كشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبوقتها وسابقها (٤) ، . إذن تكاد تجمع هذه المصادر على علو كعبه في صناعة الكتابة ، وكفايته فيها . حتى قيل : إن القاضي الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه ، وأنه كان يستحضر أكثره (٥) ، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي الفاضل : إنه تلميذ ابن الشيخية ، لأنه كان يحدو حدوه في الصناعة . لم يكن ابن الشيخية مصرياً بل كان من عسقلان ، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلداً في فلسطين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولوني ، واستمرت تابعة لمصر ، خاضعة لتأثيرها السياسي والعسكري إلى عهد قريب ، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى . فلا غرو أن رأينا ابن الشيخية العسقلاني النشأة ، يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشأوا وترعرعوا في مصر ، بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية . إلا أن ابن الشيخية استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن ، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفضه ، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله ، ويحيل إلى أن ابن الشيخية كان على

(٢) مجمع الأدباء ج ٩ ص ١٥٣

(١) الحريرة ورقة ١٤

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

(٤) النخبة القسم الرابع ورقة ١٨٣ (نسخة توغرافية بمكتبة الجامعة) .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

علم تام . بكل ما كان يحيط بالعرب في الجاهلية والإسلام ، حافظاً لأشعارهم
وحكمهم ، متمكناً من لغتهم ، ويظهر ذلك في رسالته التي أرسلها إلى أبي الفرج
الموفق ، فيها يقول :

« وصلت رقة مولاي والصبح قد سل على الأفق مقضب ، وأزال بأنوار
الفزاة غيبه ، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها ، ونهار البلاغة
وأزهارها ، قد توشحت بضروب من الفضل تضر قاصية المدى ، ويمرر به
في مضمار الأدب مفردا .

فكان روض الحسن تثره الصبا فأطأت من قرطاسها أتصفح
قأما ما تضمنته من وحي ، فقد صارت حضرة السامية تفسح في الشهادة
بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة ، وأنها لا توقع ألفاظها إلا مواقع الحقيقة ،
فإن كنت قد بهرجت عليها فتراجع قدما تجدني لا أستحق من ذلك الإسباب
فضلا . ولا أعد لكلمة واحدة منه أهلا ، وبالجملة فاقه ينهضني بشكر هذا
الإتمام الذي ، يقف عنده التناء ويضلع ، ويحصر دونه الخطيب المصقع .

هيمات تعمي الشمس كل مرامق ويعوق دون منالها العيوق
وأما الفضل الذي أودعه الرقة الكريمة من قوله : « فأما فلان فيحل في
قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الواليد . قدوره عمارية ، وعطيات
جواريه أسدية ، ويموين لو خلق الرجال خالق الضباب ، يتضوعن النشر
اللبقى ، ويرضعن مراضع نعاله الجاشعي ، وما أمرت حضرة السامية من ذكر
ما عندي فيه ، فقد تأملته شويلا ، وعثر الخادم فيه بما أذاكره ، راغباً في
الرضا بما بلغت إليه المقدرة ، وتجليل ذلك بسجوف الصفح . أما قوله : « يفرح
بالضيوف فرح حنيفة بابن الواليد ، فيقول أنه أراد بخالد بن الواليد الخزومي ،
وذلك أن مسيلة الحنفي كان قد تنبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه
مشهور — منبث إليه أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الواليد المقدم ذكره
في جيش كفيف من المسلمين ، ففتح اليمامة وقتل مسيلة وأباد جماعة كثيرة
من بني حنيفة . وأما قوله : قدوره عمارية ، فإن هذا الفصل لما كان مبنياً
على الهم ، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه ، ولم نجد ما ينسب
إليه إلا قول الفرزدق :

نو أن قدراً بكت من طول ما حبست عن الحقوق بكت قدر ابن عمار
ما مسها رسم مذ فض معدنها ولا رأت بعد نار القين من نار
وأما قوله : عطسات جواريه أسدية ، فيقوى في وهمي أنه أراد قول الأول
في هجائه :

إذا أسدية عطست فكما فإن عطاسها طرق الوداق
وأما قوله ديهوين لو خلق الرجل خلق الضباب، فإن الجاحظ ذكر في كتاب
الحيوان : أن للضب أيرين ، وللضب حزين . وحكى أن أير الضب أصله واحد
ولنما يتفرق فيصير أعلاه إثنين ، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

رعين الدبا والبقل حتى كأنما كسامن سلطان ثياب مراجل
سيحل له نركان كأنها فضيلة على كل حاف في البلاد وتاعل
والنرك : اسم أير الضب . وأشد الأصمعي لابن دزماه فيما رواه أبو
خالد النمري :

تفرقتم لازلتن قرن واحد تفرق أير الضب والأصل واحد
ومن هنا قالت حبي المدنية لما عذبا أبوها في تزوجها ابن أم كلاب :
وددت بأنه ضب وأناى ضبية كندية وجدت خلاء
وأما قوله : يتضو عن النشر العبسي ، فن أمثال العرب : هو آخر صفة
من شيخ مهو ، وهو بطن من عبد القيس بن أقصى بن دعوى بن جديلة بن أسد
ابن نزار بن معد بن عدنان ، وكان من خبره أن إبادا كانت أنس العرب ، فوفد
وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة ، فقال : يا معشر العرب
من يشتري مني مثلية قوم لا تضروهم بحتي هذه ؟ فقال الشيخ المهوي : أنا
أشترها . فقال الإيادي : أشهدكم يا معشر العرب أنني قد بعث فباء إباد لوافد
عبد القيس بحتي هذه ، وتصالحا وافترقا متراضين ، وقد شهد عليهما أهل
الموسم فصارت

فصارت عبد القيس أفسى العرب ، وقيل لابن منذر : كيف الطريق إلى عبد القيس ؟
فقال : شم ومر . . .

فإن عبد القيس من لومها فموا فباء ريحة تعبق
من كان لا يدري لها منزلا فقل له يمى ويستشق

وأما قوله : « أعطش من نعاله الجاشعي » ، فن أمثال العرب فيما ذكره
الكلبي قال : هما رجلان من بني جاشع عطشا ، فالتقم كل واحد منهما أمير
صاحبه يشرب بوله ، فلم يبق عنهما شيئاً ، وماتا عطشا ووجدوا على تلك
الحال ، قال جرير يهجو بني دارم :

رضعتم ثم بال على الحاكم نعاله حين لم يجدوا الشرابا
هذا ما وقع لي في هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى
ما قصدته نائلة ، (١) .

ففي هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخياء أن يشرح بعض النصوص
التي غمضت على أبي الفرج الموفقي ، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد في
في كتب الفسما ، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر ، وبالأمثال مرة .
وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى ، فهذا كله يدل على أن ابن الشخياء
كأن ملأ بهذه الألوان من الثقافة والعلوم ، وأنه كان يستخدمها في كتاباته ، بل في
شعره أيضاً .

نرى ظاهرة أخرى في هذه الرسالة ، وذلك أن ابن الشخياء كان يحل
كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء في نثره ، وهذه الظاهرة ليست جديدة
على الكتابة المصرية ، ولكن ابن الشخياء أكثر منها بحيث لا نكاد نرى
رسالة من رسائله التي حفظت تخلو من هذه الظاهرة ، ولا سيما رسائله إلى
إخوانه وأصدقائه ، فن ذلك ما كتبه إلى صديق له :

دعا حديث زكاب مولاي أخذ صبرى معه ؛ وعجبه قلبي ونبيه .
فعببت من جسم مقيم سائر كسير بيت الشعر وهو مفيد
وبقيت بعده أقاسي أمور تخف الحليم ، وترعى المشيم ، إن رجوت منها
غفلة اقتحمت ، وإن رمت منها فرجة تضايقت والتحمت ، وأما الوحشة فقد
اصطبعت منها كأساً مترعة ، وتجرعت من صاحبها أمر جرعة ، ورأيت
فؤادي إذا مر ذكر مولاي يكاد يخرج من خده ، ويرغب في مفارقة صدره ،

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٥٧ .

حينما يجده السباع ، وصدوداً تنفض منه الأضلاع ، وذفرة يدي في غرابها ،
ويطلع في الترائيب شرارها ،
أداري شجها ما كي تخلف مكانها ،
وأما ما أعاني بعد مسيره فاشياء : منها عيب الألم مرة ، وزوال الاستمتاع
بما يعرفه من تلك المرة ، ومنها اضطرابي إلى كثرة مكابرة من أعلم دخل
مرايزه ، واختلاف باطنه وظاهره ، وتكلف القاء له بصفحة مستبشرة ،
وأخلاق غدا وتومر قديمان الخ (١) كسب بديا ليدون في
وهلك تلاحظ عما أوردناه من ابن الشيخاء في الكتابة أنه استخدم
جميع الخصائص المترية في الكتابة ، فنجد للكلمة المسجوعة ، واستخدام
التشخيص والتصوير ومراعاة النظر ، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التي أكثر
منها المصريون ، وقد أصيب هذا الكاتب بالدمع بئسكة لاندري سيبا ، إذ حبس
في خزانة السود ثم قتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢) . ويذهب ابن ميسر
أنه قتل سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وأنه أشد وهو في سجنه :
أصبحت مخرجي بغير جريمة من دار إكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع أبدا ويخرج من أعز مكان
ثقلت موازين العباد بفضلم وفضيلتي قد خفت ميزاني (٣)

وفي عهد المستنصر أيضاً ولي أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان
الإشياء ، بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٤٥٣ هـ ، ولا أدري كيف يقول
المقريزي عنهم : وكان الوزراء إذا صرخوا لم يتصرفوا ، فاقترح أبو الفرج ابن
المغربي لما صرف أن يتولى بعض الدواوين ، فولى ديوان الإنشاء الذي
يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر ، وهو الذي أستبط هذه الوظيفة بديار
مصر (٤) وواضح هذا التخطيط الذي وقع فيه المقريزي ، فإن ديوان الإنشاء
في القطار المصرية أقدم عهداً من أبي الفرج بن المغربي ، بل أقدم عهداً من

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٩ ص ١٥٤ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ .
(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٢٩ . (٤) خطط المقريزي ج ٣ ص ٢٥٧ .

الدولة الفاطمية ، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وجد بمصر منذ عهد
أحمد بن طولون . ومهما يكن من شيء فإن أبا الفرج أحد أفراد بني
المغرب الذين كان لهم شأن كبير في الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز ،
ولكن نشاطهم كان سياسيا أكثر منه أدبيا ، إحصا تحدث عنهم ابن القارح
في رسالته ، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المغربي وبين أبي
العلاء المعري ، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فرار بني المغربي من مصر
واستقرارهم في العراق حيناً وفي ديار بكر حيناً آخر ، ولذلك آثرنا ألا نتحدث
عنهم طويلاً في هذا البحث ، وكذلك لم نصل إلى رسائل أبي الفرج بن المغربي
التي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ .

وتمر السنون على ديوان الإنشاء ، ويتعاقب عليه الكتاب ، حتى نتق
بكتاب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية ، ومن أحسنهم حفظاً ، فقد انتهت
إلينا بقية صالحة من رسائله وسجلاته ، بل بقي لنا كتابان من كتبه الكثيرة
التي صنفها ، ذلك الكتاب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث
وستين وأربعمائة هـ .

ابن الصيرفي :

قال ياقوت : الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي : أحد فضلاء
المصريين وبلغاتهم ، مسلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفياً واشتهر
هو الكتابة فبر فيها (١) ، ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ
صناعة النزل على قبة الملك أبي العلاء مساعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ،
ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء ، وبه سناء الملك أبو محمد الحسيني الرندي (٢) ،
ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الخجلي هو الذي استخدم ابن منجب في ديوان
المسكيات ورفع من قدره وشهره ، ثم إنه أراد أن يتول الشيخ ابن أبي أسامة
من ديوان الإنشاء ويضرب ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧

(١) حجب الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

ومن يأنس به ، فقال له : إن قدرت أن تقضى ابن أبي أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ولا تخلى الدولة منه فإنه جليلها^(١) وقد وصف القرظي ابن أبي أسامة بقوله : الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن ابن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة ، وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم يكن أحد يشاركه في هذا التمتع بديار مصر في زمانه^(٢) فحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتابة في مصر في العصر الفاطمي ، فقد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتباً في أواخر أيام المستنصر ، وهو الذي كتب سجل ولاية المستعلي^(٣) وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الأمر ، ثم ولى الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢ هـ فأصبح الديوان لابنه أبي المسكارم إلى أن توفى أيام الخافظ ، فولى ابن منجب الصيرفي الديوان بعده ، فهذه المدة الطويلة التي قضاها ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في الكتابة وذيوع عدد من رسائله وحفظها ، وبالرغم من أنه أصبح رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الخافظ فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة ٤٩٥ هـ^(٤) ثم تراءى يكتب سجلات كثيرة وهو لم يزل كاتباً في الديوان ، منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم ٥٠١ هـ الخاص بالخراج وتحويل السنة الخراجية . وقد جاء في هذا السجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته ، وألممه أن يعم بحسن التدبير عبيده وخليفته ، وأورثه مقام آباءه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة في المحشر ، وعناهم بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأعلى منار سلطانه بعبد أفلاك دولته ، ومبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للجند

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٩

(٢) خطط القرظي ج ٣ ص ١٤٠

(٣) ابن ميسر ص ٣٥

(٤) المصدر نفسه ص ٤

علما ورواية ، ووقف على مصلحة البرية فظروا ورأيه ، السيد الأجل الأفاضل .
الذي نبه في السياسة على ما أمهله من سببه ، وأغفله من تقدمه ، وتبع أحوال
المملكة فلم يدع مشكلا إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خلا إلا أصلحه
وبادر بتلافيه ، إثارة لهارة الأعمال ، وقصدا لما يقتضى بتوفير الأموال ،
واعتنا. رجال الدولة العلوية وأجنادها ، واهتماما بمصالحهم التي ضمنت قوامهم
عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا ، وحملهم على تعديل
السنن وأفضل القضايا : بحمد أمير المؤمنين على ما أمانه عليه من حسن النظر
للأمة ، وادخره لأيامه من الفضائل التي ضمنت بها ملابس النعمة ، وبرغب
إليه بالصلاة على محمد النبي مبهزه بالحسنة وفصل الخطاب ، وبين به ما استبهم
من سبل الصواب ، وأزل عليه في عمم الكتاب : هو الذي جعل الشمس
ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، صلى الله عليه
وعلى أخيه وابن عمه أئمة أمير المؤمنين على بن أبي طالب كافيهم فيما أعضل لما
جمع المساعد ، وواقفه بنفسه لما تخائل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من
خريتهما العاملين برضا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، وللذين يهدون بالحق
وبه يعدلون . . . الخ (١) .

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر
الفاطمية ، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبل ، وهي التي تجدناها عند كل
الكتاب قريبا ، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت
إليها عن ابن الصيرفي . من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين
وخمسة مائة هـ ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتدعت في القرن السادس الهجرية
تذكرا لخصائص الخليفة الحافظ من سجنه ، فقد استبد وزيره أبو علي بن الأفاضل
الملقب بكتفيات ، بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، فلما قتل الوزير في سجنه
شهر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله ، واتخذ هذا اليوم عيداً
أسماء عيد النصر ، فنرى ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء
للاستعداد لهذا العيد :

(١) خط المرقزي ج ٢ ص ٤٩

« عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسمها وأعلامها ، وأدناها على تقصير
الرواصف إذا بلغ وتناهى ، ونحن نأمرك أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر
من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في
الأعياد ، وتقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا
اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفصيله ، وتعتمد في ذلك
ما جرى الرسم فيه في كل عيد ، وتنتهى فيه إلى الغاية التي ليس عليها مزيد .
فاعلم هذا ، واعمل به إن شاء الله تعالى . »

ولم يكن ابن الصيرفي كاتباً من كتاب الرسائل لحسب ، بل كان مؤرخاً
ومصنفًا ، ومن تصانيفه كتاب عمدة المحادثة وكتاب عقائل الفضائل وكتاب
استئزال الرجة وكتاب منافع القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب في السكر ، وله
اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري
وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن ، وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان :
الأول قانون ديوان الرسائل . والثاني كتاب الإشارة إلى من قال الوزارة .

أما الكتاب الأول ، قانون ديوان الرسائل ، فقد صنفه ابن منجب لكي
يكون قانوناً يعرف به من يجب أن يولى رياسة ديوان الرسائل ، ومن يجب
أن يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من
الخدام الذين لاغنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ،
التي إذا سلكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أموره ، وأمن معها من اختلال
شيء منها وفساد يدخل عليها ، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقدم ههنا
وبعدت أزميتها (١) فكأنه أراد أن يجعل من كتابه هذا دستوراً لاختيار
كتاب الرسائل ، وهو يصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا
الكتاب أنه لما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيمة قد سبقوا إلى النظر
في سائر العلوم ، ووجدوا فيها للصفات ، ونظموها ذكرها في الكتب والمؤلفات ،
ثم انظروا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فرددوا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٩١ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥) .

ونہوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته، واقتضاه ما أوجبه وقته، والبلد الذي يحمله، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال، وتوسع في تصنيفه وأطال، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرأ، النبهة ذكراً، الرفيعة شأنًا، العلية مكانًا، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى من قل من الأمم وجل، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وأن يجتنبه من القبائح والذائل . الخ (١) هذا السبب الذي من أجله ألف كتابه هذا، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم توضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل؟ من الحق علينا أن نقول: إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هيئة، فإن أكثر كتب القدماء فقدت وإن بقي أسماء بعضها، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تهتم بسرد كتب المؤلفين، مثل الفهرست ومعجم الأدباء وكشف الظنون وغيرها، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتباً في الكتابة والكتاب، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يهودوا صناعتهم (٢)، ووضع الصولي أدب الكتاب، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب.

ونذكر أحمد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة (٣) وأحمد بن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء، وكتاب أدب الكتاب (٤)، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٨٨

(٢) نجد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهياري .

(٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ٦٦ . (٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٣٥ .

الكتاب (١) وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧هـ صاحب أدب
الكتاب وصناعة الكتاب (٢) وغيرهم ، وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا ،
فلم نعرف ما اشتملت عليه ، ولكن من أسماؤها نستطيع أن نرجح أنها تختلف
بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه ، وقانون ديوان الرسائل ،
فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان
الإقضاء ، وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلا عليها ، وعن اختصاصه
في عمله ، ثم تحدث بعد ذلك عن مساوئيه من الكتاب في الديوان ، فجعل لكل
عمل كاتباً خاصاً له ميزات خاصة ، فنستخدم لتخريج الكتب الواردة
له صفات خاصة ، ومن يستخدم برسم الإنشاء له خصائص ، ومن يكون قاسماً
في الديوان له ميزات ، وهكذا . فكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف
عن الكتب التي وضعت في الكتاب والكتابة ، لأنه يتحدث قبل كل شيء
عن نظام ديوان الرسائل ثم عن موظفيه ، فهو صورة مختصرة جداً للكتاب
الذي ألف بعد ذلك وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندي .

أما الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب فهو كتاب الإشارة
إلى من نال الوزارة . . . فهو كتاب تاريخ من ولى الوزارة في عهد الفاطمية
الفاطمية ، سجل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته وما لقب به ،
وما تم على يديه من أعمال ، فهو من أهم الكتب التي تحدثت عن
تاريخ الفاطميين .

ولا بن منجب عدة مقطوعات من الشعر ، ولكنه لم يعرف بالشعر
كأحرف بالكتابة ، وروى له يا قوت قوله :

لما غدوت عليك الأرض أفضل من جاءت مفاخره عن كل إطرأ
تقاربت أدوات التعلق فيك على ما يصنع الناس من نظم وإنشاء
وقوله :

لا يبلغ النفاية بالتصوى بهمة إلا أخو الحرب والجرد للسلامة

(١) صبح الأدباء ج ٤ ص ٢٤٤ (٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٨

سجلوى حشاهه إذا ما الليل فاته . . . عمل وشيخ من الخطى محضوب .
لنوالكن لجن لجنتم بطنين الثمراء . . . بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة
كانوا أكثرها من كتابك والبقية لا يوجد في ذلك المراجع لك أنه كان جلا في الشعر
حكوا الذي للرضائل ، من قول قيل ، ما شاء من انب بطنه . . . على أربعة مجلدات .
وتوفى ابن عجب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٤٤٢ هـ (١) ،
وكان يلقب بذي القرنى لأنه توفى في أيام الملك الصالح بن رزيق بعد سنة
عشرين وخمسة (٢) . واليه بين أيدينا شيء من النصوص التي جمعنا نرجح
إحدى الزواجر .

سلف مشهور للفصح بن الفلاح وصحبه

من كل مع ابن الفصح في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدم كتاب
مصر الفاطمية وشعرائها ، أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي التكفاء
أبو الفتح محمود بن الفاضل الموفق بن أحمد بن محمد بن حميد الدمياطي المعروف بابن
خالد (٣) . حضر الأضواء بن بدي الخاني ، وامتدت به الحياة إلى أن توفى
في عهد الملك الصالح الملائع بن رزيق لأنه عاصر شعراء مصر وكتابها في
المنصف الأول من القرن السادس ، وعرف اتجاهاتهم الفنية في الشعر والكتابة ،
فلا غرو أن ترى أمية بن أبي الفتح يتحدث عنه في رسالته المصرية ، ويزى العباد
يقول عنه : « أشعاره بحكمة النسيج ، كالدر في النرج » (٤) ، ووصفه ابن ميسر
بقوله : « وكان من أمثال المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم » (٥) . لم يصلنا
شيء عن حياة هذا الكاتب الشاعر ، فقد فقدت ترجمة حياته ، كما فقدت تراجم
رجال مصر الفاطمية ، ومع ذلك فقد حفظت في بعض المراجع قصته مع زميله
وصنوه أبي علي حسن بن زيد الأنصاري ، وكيف كان ابن قلدوس سنيا في
أن يلقى زميله حقه على نحو ما ذكرنا من قبل (٥) ، فإن هذه القصة تدل على أن

د. محمد كمال ، الجاهل بيا .

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧

(٢) مجمع الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

(٣) الخريدة ورقة ٤٩ .

(٤) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٩٧ .

(٥) راجع ص ١٨٧ من هذا الكتاب .

ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته في صناعى الشعر والنثر ، فإنه كان ضعيف الخلق ، يحسد زملاءه ويوقع بهم في المهالك . وهناك قصة أخرى برويها القدماء عنه ، وهى اتصاره للجليس بن الحباب ، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعاً بهجاء الجليس ، كثير الدعاية بأنفه ، حتى قيل : إن مقطعات ابن الصياد فى ذلك بلغت ألف مقطوعة ، فانبرى له ابن قادوس يتنصر للجليس قائلاً .

يامن يعيب أنوفنا الشم م التى ليست تعاب
الألف خلقه ربنا وقرونك الشم اكتساب (١)

فما الذى جعل ابن قادوس يتنصر للجليس ؟ لاشك فى أن ضعف خلق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده فى الوصول إلى ماأرهبه الشخصية فى الديوان أو فى غير الديوان من مناصب الدولة بحكم تلك الصلة القرية التى كانت بين الجليس والخليفة الفاطمى من ناحية ، وبين الجليس والملك الصاح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى ، فلذلك اتنصر للجليس ، ولولا أطعاه ما كان ينشد هذين البيتين .

مهما يكن من شئ ، فإن ابن قادوس كان من أمائل الكتاب فى القرن السادس الهجرى ، فالرسائل التى بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدته وعلوكبه فى الإنشاء ، فن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة فى عهد النجر ، ومنها : « أما بعد ، فالحمد لله ما حى دنس الآثام بالحج إلى بيت الحرام ، وموجب الفوز فى المعاد لمن عمل بمراشد أئمة الهدى الكرام ، وضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ونجول الفقرا لمن كان بفرانص الحج ونوافله شديد الولوع والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذى لى وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرم ، وعلى أخيه أيننا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتعبر ، وعلى الأئمة من

خديتهما أعلام الدين ، وحتوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ، وبن
من الأيام التي كلت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عن
صفاتها ، وتعين تسيطر تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة (كذا) : وكان
من قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة
في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين التصور
الزاهرة متبركين بأفئيتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألفوا صفوفا تبهير النواظر ،
ويجبل تألفها تالف زهر الروض الناضر مستصحبين فنوناً من الأزياء تروق ،
ومستبمين أصنافاً من الأسلحة يفض منها من لمع الذهب والبروق ، والأعلام
خاققة ، والرياح بالسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا
على تشوف لظهوره ، والتطلع لتبرك بلامع نوره ، ولما بزغت شمس سعادته ،
وجرت الأمور على إثارة وإرادته ، وهدت أنوار الإمامة الجليلة ، وظهرت
طلعتها المعظمة البهية ، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتجيد ، والاعتراف بأنهم
المبيد بنو المبيد ، واستقل ركابه أمير المؤمنين ، ووزيره السيد الأجل الذي
قام بنصر الله في إجماد أولياته ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوانه ،
وناضل عن حوزة الدين وجاهد ، وناضل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم
بأحكام الوزارة ، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والظلمة ، ويقبع
آراء أمير المؤمنين فيما تنفذه أوامره ، ويمثل بأحكام الصواب فيما تقتضيه
موارده ومصادره ، ويحسن السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة في كل صغير
أمور الدولة العلوية وكبير ، ويخلص لله جل وعز وإمامه ، ويكفكف من
الأعداء يذل الجهد في أعمال خدمه وحسامه ، وسار أمير المؤمنين والعساكر
متابعة في إثره ، متوافقة على امتثال أمره ، قد رفعت السنايك من المعراج
سحاباً ، وخيلت جن الجند لناظرين في البر عباباً ، والجياد المسومة تموج
في أعنتها ، وتمثال في مراكبها وأجلتها ، وتصرع قسكب الرياح نشاطاً ،
وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً ، وتهدي لمن يحاول مما قلتها غلواً واشتطاطاً ،
وأصوات مرفعة بالتهليل ، وأصوات الحديد تسمع بشار النصر بترجمة
الصليل ، ويكاد يرعب الأرض زلزل الصهيل ، وترض سنابكها المضاب

وتعدو صلاحها كالكثيب المهيل . . . (١)

وكتب ابن قادوس بالبخارة بوقاء النيل :

« نعم ، وإن كانت شاملة للأسم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولها
بشكر قشر الآفاق أعلامه ، واعتداد تحم يدراك الفات أحكامه ، فعمه يشترك
في النفع بها الفباد ، وتبدو بركنها على الناطق والحاصم الجماد ، وتلك النعمة
النيل المصري الذي تبرز به الأرض المجرز في أحسن الملابس ، وتظهر حل
الرياح على القيعان والبسابس ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة
بالجواهر واللجين والقيان ، فسبحان من جمعه سيبا لإنشار الموات ، وتعالى
من ضاعف به ضروب البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والأقوات الخ (٢)

هذان مثلان عما كتبه ابن قادوس من سجلات هي من خصائص مصر .
فلا ينازع مصر بلد آخر في هذا اللون من السجلات ، ولا سيبا في البشارة بوقاء
النيل ، ولكن اللون الآخر ، وهو ركوب الإمام الفاطمي لصلاة عيد النحر .
فهو من ترتيب الدولة الفاطمية ، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية في السجل
الفاطمي ، بما لا يدع شكاً في أن العقائد أثرت في الكتابة كما أثرت في الشعر ،
أضف إلى ذلك كله هذه الصنعة الفنية في الكتابة التي رأيناها عند جل كتاب
الفاطميين ! وقد حفظ العهد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف ،
وتظهر في هذه الرسالة صنعة الفنية التي ظهرت في السجلين السابقين .

« أطال الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يبتدعها ، وفرائض جود يشرعها ،
وقوادم يذلل صعابها ، ومسايغ سعود يطرق جناحها ، وأدام أيامها التي هي
للحرم تمام ، وفي المحل غمام :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| غرد من الأيام توضح غرها | والحر من ظلم النوائب عاتم |
| ملك تملكه الندى وتجمعت | في راحتيه غمام وسمام |
| قالروض يجذب وهو روض بمرع | والفيث يطلع وهو غيث داتم |

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٨

(١) صبح الأعمى ص ٨٠ ص ٢٢٦

وشتان ما بينهما ، تلك سحب قد رعدت بوارقها ، وعدت عواصفها
ودروس يحف نباته ، وتضوع زهراته ، ومكارم الحضرة يزيد حدة على
التكرار ، وتماثل فعل الفلك المدار ، فهي تبارى الشمس نهاراً ، وتزور مزار
الطيب سراراً :

من بغير أهلة مستورة فطلعن في فلك الصلا أقاراً
ومسواهب ومناقب ومناسب رفعت له فوق السماك مناراً^(١)

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ هـ في سابح المحرم ، وقيل : إن الملك الصالح حضر
من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام^(٢)
ورافق العباد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو ، غير أن المقرئى روى
قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأزنى وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة
٥٢٦ هـ وقتل على الخليفة أخذ كل منهما في التدبير على الآخر ، فأجمل يانس
وقبض على حاشية الخليفة ، ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح
ابن قادوس وقتلها . فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره^(٣) أى أنه
ذهب إلى أن ابن قادوس قتل سنة ٥٢٦ هـ ، وقد وهم المقرئى فى هذه الرواية
فإن الأدلة تكاد تجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع
ابن رزبك ، من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبى على حسن بن زيد الأنصارى
كانت فى الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه ، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة
٥٢٦ هـ ، ونحن نعلم أن ابنى الزبير لم يتقدما فى الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة
٥٤٩ هـ بل لم يكن لهما ذكر فى الدولة قبل هذا التاريخ ، وقد روينا هجاء ابن قادوس
لابن الزبير ، فمعنى هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر أى بعد سنة ٥٢٦ هـ
أيضاً ، ومن ذلك أن العباد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزبك كان يفرى
ابن الصياد بأنتف المجلس بن الحباب ، فأنشدا بن الصياد هذه المقطعات التى
أشركا إليها مراراً ولم يسكته إلا ابن قادوس ، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس

(٢) ابن ميسر ص ٩٧

(١) الخريدة ورقة ٥١

(٣) خطط المقرئى ج ٣ ص ٢٧

حضر عهد الملك الصالح ، أضف إلى ذلك ما رواه ابن خلكان : أن الخليفة العاضد الفاطمي أشرك ابن قادوس مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإنشاء . وإن فتحن تؤيد رواية العماد وابن ميسر ، أنه توفي سنة ٥٥١ هـ .

أما الشاعر الكاتب الثاني فهو أبو علي حسن بن زيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله ، وقد تحدثنا عنه شاعراً (١) أما صفة الكتابة فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين في ديوان المكتوبات (٢) وقال مرة أخرى : « ومن ثمره مليلد حسنه على رونق فرنده (٣) ، وحقا ، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له ، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب ، ومن هنا ظهرت مواهب أبي علي الأنصاري في انثر كما ظهرت من قبل في الشعر ، اقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له يهته بالشفاء من مرض :

« إذا قدم الوداد ، وصح الاعتقاد ، ووصفت الضيائر ، وخلصت السرائر ، حل الإخاء المكتسب ، محل أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاكين فيما قنع وضر ، وتلك حال وحال حضرة مولاي ، فإني وإياها كنفس قسمت على جسمين ، وروح فرقت بين شخصين ، فألمها قدمضي وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرتني وأبهجني ، وعرفت خبر إبلاها من ألم كان بها ، فشكرت الله على خلتين معا ، ونفمين اجتماعا ، أحدهما أتى أعلم تألمها فكنت الآن ما يكدر الشراب ، ويمنع تلاقى الأهداب ، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض ، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البقيض ، والآخر على يبرتها عند حلولة ومعرفتي به عند تخييمه بساحتها وزولة ، (٤) .

واقرا له يهني . صديقه بمولود :

(٢) المربنة ورقة ١١٠

(٤) المصدر نفسه ص ١١٥

(١) راجع ص ١٨٧

(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٤

« وردت البشارة السارة بالقيام الأجد ، المستقبل بالطالع الأسعد . وأحمد
الملك من المسرة بأرفر حظ الأولياء المخلصين في الولاء . المغمورين بمزيل
الآلاء ، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد ، وافرة العدد ،
نامية الأهل والولد ، حتى يرى هذا المبشر بقنومه تمتطيا صهوات الجياد ، مخوف
الشداء يوم الجلال ، يخفق وراءه اللواء ، ونخاف سطوته الأعداء ، وتخص البلاد
بقواضيه ، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه . وترى من أولاده أجدادا عن الإسلام
ذادة ، وأملاكا لا متلاك البلاد سادة . لا زالت تبلغ أقصى الأمانى ؛ وتسمع نعم
التهانى ؛ وتمد ظلها على القاصي والداني (١) . »

ثم اقرأ له هذه القطعة من رسالة في العزاء بفريق :

« لعدوى لقد نزهه الله عن سهك الجرباء ، وملافة الحصباء ، والمقام تحت
أديم الأرض ، وانطباق بعضها على البعض ، ورفعه عن أن يذل في الحدث
جبينه ، ويعفر في العير عرينه ، فجعل ضريحه في شبهه جودا وكرما ، وضريحه
محاسن وشيا ، فتضمنه الماء ، وتفظط فوقه الدأما ، فإذا استسقى السحاب ،
واستسمع التراب ، فهو في البحر الوافر ، والهج الزاخر ، بحيث تتفرع المناهل ،
ويرد كل أهل (٢) . »

فهل رأيت كيف كان أبو علي الأنصاري فنانا بجيد صناعته ، فينتقى من
اللفظ أجوده ، ومن المعاني أسماها وأجملها ؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده
على مهارته ، ويمتحن منافسته . فدير المكينة التي أدت به إلى حتفه .

الموقوف به الخمر

واعلم آخر من ولي ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد
المعروف بابن الخلال ، الملقب بالموفق ، وقد وصفه العماد بقوله : « هو فاطر مصر
وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكلن إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل

(١) الخريدة ورقة ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٨ .

يكتب كما يشاء^(١)، ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في أيام الحافظ وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية^(٢)، وبعد الموفق بن الخلال الأستاذ المباشر للقاضي الفاضل، وقد روينا كيف وفد القاضي الفاضل إلى ديوان الإنشاء، ومثل بين يدي الموفق ولازمه؛ وتدرج بين يديه، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى إلى أن أجاد القاضي الفاضل فن الترسيل. وبلغ هذه الدرجة الرفيعة في هذا الفن. لذلك يقول ابن خلكان: «ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن وعجز عن الحركة فانقطع في بيته». ويقال: إن القاضي الفاضل كان يرضى له حق الصحبة والتعليم، فكان يجرى عليه كل ما يحتاج إليه^(٣)، وابن الخلال أحد الذين ذكروهم عمارة النبي فقال: «ووجدت بحضرة (أى بحضرة الصالح ابن رزيق) من أعيان أهل الأدب الشيخ المجلس أبا المعالي بن الحباب والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء. وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في المضائل، النفسانية، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرى شاكلة الإشكال فيصيب^(٤)، إذن تكاد تجمع المصادر التي بين أيدينا والتي حدثتنا عن الموفق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترسيل. وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثاني مرة؛ أي بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه:

«سلام عليك. فإن أمير المؤمنين محمد إليك آفة تقي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين، وإمام المسلمين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليماً (أما بعد): فالحمد لله مانع الرغائب ومزيلها، وكاشف المصاعب ومزيلها، ومذل كل عصابة كلفت بالظنر والشقاق ومزيلها. ناصر من بنى عليه، وعاكس كيد الكائد إذا فرق سهمه

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٧.

(٢) المصدر نفسه، وهذا ما يفهم أيضاً من أقوال الفقهيني في كتاب صبح الأعشى ج ١ ص ٩٩.

(٣) الذبكت المصرية ٢٤.

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٩.

إليه . وراة الحقوق إلى أربابها ، ومرجع المراتب إلى من هو أجدر برقيها
وأوابها ، ومسئ الخير بتيسير أسبابه ، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه واقترح
أبرابه ، ومدني تأتي الحظ بعد نفوره واغـ ابه ، ومطلع الشمس بعد المغيب ،
ومتدارك الخطب إذا أعزل بالفرج القريب . مبدع ما كان ويكون ، ومسبب
الحركة والسكون . محسن التدبير ، مسهل التصير . قل اللهم مالك الملك
توتى الملك من تشاء وتمزع الملك من تشاء وتمز من تشاء وتذل من تشاء .
بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . والحمد لله الذي اختص أولياء أمير
المؤمنين بالاستعلاء والظهور ، وذلل لهم جواع الخطوب ومصاعب الأمور .
وأقام من التأييد كل بديع مستغرب ، وأنا لهم من كل غريب إذا أورد قصصه
أطرب . ومكنهم من فواصي الأعداء ، وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء ،
وحن لهم أحد العواقب ، وأرشدهم إلى الأفعال التي نبتت لهم في صحائف الأيام
أفضل المناقب . وهداهم بأمر المؤمنين إلى ما راق ذلاله وتم غاية التمام ، كما أنه
كان لرضا الله سبحانه ، وحسن ثوابه ومآله . ويعدهم في المجاهدة عن دولته
بالتأييد والتحكين ، ويمظيهم من أنوار اليقين ، بما يجلو عن أفتدتهم دجوى
الشك البهيم ، ويظهر لأفهامهم خصائص الإمامة في حلل التفخيم والتعظيم ،
ويريهم أن خلوص الطاعة منجاة في المعاد بتقدير العزيز العليم .

والحمد لله الذي استقر من دوحه النبوة الأئمة الهادين ، وأقامهم أعلاما
مرشدة في محبة الدين ، وبين بتبصيرهم الحقائق . وورث أمير المؤمنين شرف
مقاماتهم ، وجعله محرز غاياتهم ، وجمع معجزاتهم وآياتهم ؛ وقضى لمن التحف
بظل فائه واشتمل بسايع نعمه وآلائه . وتمسك بطاعته ، واعتصم بولائه ؛
بالخلود في النعم المقيم ، والخلول في مقام رضوان كريم ذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم يقول : « وراقب الله فيما ألقاه إليك ، فقد فوض إليك مقاليد البسط
والقبض ، والرفع والحفض ، والولاية والعزل ، والقطع والوصل ، والتولية
والتصرف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والنصر والتنبيه ، والإجمال
والتنويه والإهزاز والإذلال ، والإساءة والإجمال ، والإبداء والإعادة ،

والنقص والزيادة ، والإنعام والإرغام ، وكل ما تحدثه وتصادف الأيام ، وتقضيته
مطالب الأنام ، فهو إليك مردود ، وفيما علق بنظرك معدود . وأما العدل
ومدرواقه ، وإقامة مواضعه وأسواقه ، والإنصاف واتباع محبته ، والاعتماد
على أحكامه وأفضيته . وكف هوائى الجور والمظالم ، وحمل الأمر على قصد
التصاحب والتسالم ، وإظهار شعار الدين ، والإنصاف المتداعين إلى الشرع
المتحاكين ، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين . وإعزاز من يتمسك
بها من كافة المؤمنين ، والأموال والنظر فيها ، والأعمال أقاصمها وأدانيها ،
فكل ذلك محرر في تقليد وزادتك الأول . وأنت أولى من حافظ على العمل
به وأكمل . . . الخ (١) .

فإن هذه القطعة نستطيع أن نقبين كيف تبع الموفق بن الخلال ما تبعه غيره
من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التي ذكرناها من قبل . ثم نقبين كيف
استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته
ليضيف إليها قوة في الصناعة .

لم يكن الموفق كاتباً غريب ، بل كان شاعراً أيضاً ، شأنه في ذلك شأن عدد
كثير من الكتاب الفاطميين ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعة التي تظهر في
شعره أيضاً ، فهو يقول من قصيدة :

عذبت ليال بالمعذيب خوالى وحلت مواقف بالوهال حوالى
ومضت لذاذات قضى ذكرها تصبى الحليم وتستيم السالى
وجلت موردة الخنود فأوثقت فى الصبوة الخى بحسن الخال
قالوا براءة بنى هلال أصلها صدقوا كذاك بهد فرج هلال (٢)

كما روى أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر . ذلك
أن الشاعر أبا القاسم بن هانيء - وكان من سلالة الشاعر ابن هانيء الأندلسي
المعروف - كان يهجو ابن الخلال ، فأخبر هذا له حقداً ، فاتفق في بعض
المواسم أن تقدم للشعراء للنشيد بين يدي الخليفة ، وانتهى التوبة إلى ابن هانيء ،

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨ .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٠ .

فأنشد وأجاد ، فسأل الخليفة الموفق بن الخلال رأيه في قصيدة ابن هاني ، فلم يسهه إلا أن يثنى عليه ويبالغ في وصفه ، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هاني الأندلسي شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد ، فقال له الخليفة : ما هو ؟ فتخرج الموفق من إنشاده ، وأبى الخليفة إلا أن ينشده ، وفي أثناء ذلك صنع ابن الخلال بيتا مجازيا في الأئمة الفاطميين .

فظم ذلك على الخليفة ، وقطع صلة الشاعر . وكاد يفرط في عقوبته (١) . وتوفي ابن الخلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين وخمسة من الهجرة (٢)

عمارة البيئي التائر :

وعلى الرغم من أن عمارة البيئي لم يكن من عمال ديوان الرسائل ، ولم يعرف عنه إنه كان كاتباً لأحد الأمراء ، فإتنا نستطيع أن نلصق في رسائله الإخوانية التي حفظت لنا ، خصائص الكتابة التي عرفت عند كتاب الدواوين ، وكما تأثر عمارة في شعره بمصر وبشعرائها ، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها في شعره ؛ ونظم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولي على أسوان ، وقد رأينا أن نقلها بأكلها لما فيها من صنعة فنية وطرائف لا نجدها في السجلات الرسمية التي أوردنا صوراً منها من قبل ، كتب عمارة :

إن جرى بيتنا وبينك حتب أو تامت منا ومنك الديار

فالوداد الذي عهدت بقم والدموع التي شهدت بجزار

كان عزمي ، أطال الله بقاء حضرة مولاي ، أن أستمتع هذا الكتاب ، بألم العتاب ، وأشحنه من الخطاب بما لا يستطاب ، وأقيم أعضة القوارص ، وأسدد أسنة الخوارص ، وأجلب بخيل التوييح ورجاله ، وأجمع بين رويته

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٩ . (٢) المصدر نفسه .

وارتجانه ، وأجهز نصيفا يضيق له البحر بمراكبه ، وإبر بمواكبه ، ثم قلت
السلام قبل الكلام ، والملاطفة أولى من الملام ، ثم عطف على لسانك ،
وحفاظ على ودك . وشافع أولى ، ووقاه سموى ، فلا طغاني حتى لو ما كنى ،
وخزما أننى ، فست من شب نار الوجد عليك ، إلى التشيب بذكر الشوق إليك .
وكتابتى هذا صادر عن صدر ملوء بودك ، وقلب مصدوح بيمدك ، وأسف
لفقدك ، لا يظن قاطنه ، ولا يخفى باطنه ، وهرام لو تصور لك ليات على وجه
جناية الفراق ، ومراسم الاحتراق ، ولعلت أن صورتك في القلب مفروسة ،
ومكاتبتك منه هروسة ، وأنتك شغل خاطرى ومسرحه ، ومرى
ناظرى ومطرحه :

يا حبذا سفوان لى من مرتع ولربما جمع الهوى سفوان

بل حبذا ليلالى محاضرتك ومذاكرتك . ومرأوحتك ومباكرتك :

وأياما لنا ولكم نعمنا زمانا فى حواشيا الرقاق

ليالى نحن فى غفلات هيش كان البحر عنا فى وثاق

هذا يا مولاي فصل مقصور على صحيح التشوق ، لا سقيم التسوق ،
وخاطرك ، والكاف أذن من الضمير فى مخاطبتك ، وأعذب من الماء النير
فى مكاتبتك ، تعلم صدق دخيلتى وودق مخيلتى . وأعود إلى ما فى نفسى من
عتابك ، بل سبابك ، والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وقائك . يا أعصى
من العود ، وأقى من الجلود بل يا قصر العزيمة وطويل الهزيمة ، مضت
لك شهورى عنى دهور ، لم تهزك فيها ريح الأريحية ، ولا شيمة النفس
المفترجة ، ولا استفرك المنصب الأبقى ولا الحسب العزى . قطعت من مكاتبتك
رسمى ، فلا تلفظ فى كتبك إلى الناس باسمى ، قد كنت أرضى منك أن أكون
تحت الحسبة لا فوق البسمة ، ولقد رأيت لك كتباً سلطانية وأخرى إخوانية ،
قبلت اسمك من عنوانها ، قبل الوقوف على بيانها . هذا وأنا كناية سرى ،
وخزاة حلوك ومرك . والمتهم فىك بما سمع من فىك وأظن اسمى لو مر بسحكك
لخفت خيبة لىكون عى الأبخار ، ولست أطم لك عن ذرا أحمل فمك عليه
وأنسب تحاملك إليه ، إلا أن تكون طينة اليد والمنشا ، عنى قرادك عنها

ما غشي ، فإنها العينة التي تبت العقارب ، وتعادى بين الأقارب . وأنت تعلم أن ،
آل الزبير والكنز إليهم منتهى ريادة أعلامها وسياسة أعلامها ، وتعلمت : سيفها
وضيفها ودرجتي شتاها وصيفها من منهم إلا من عداوته أسباطية لآخيه ،
أنباطية في توحيه ، يبتون المودة ويحفظون العداوة ، أهل حاضرة وفيهم جفاء
البداءة ، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة ، ولا في منعه وسيلة ، لأنه طبع جرى
في ماثم ، ونسيم سياتهم ، وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ، وإلا أخذ إليك ،
واحسب على يدريك ، كهناك من واسخ أنساب ، وشاخ أصحاب ، وصحة
أديم ، ومجد قديم ، ونفر عميم ، وكرم صميم . أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد
ومقر الشريد ، وأمان الخائف ، والذمة من الدهر الخائف ، ثم هم سداد الثغر
إذا افتتح ، وسداد الأمر إذا فتح وشملة الزناد إذا قدح وعنوان الصدق
لمن مدح . العاملون إلا على الوفرة ، والفاصلون بين الإسلام والكفر .

وأرجع يامولاي إلى مخاصمتك ومواصمتك ، ومشاتمتك وملاكتك ،
والعرض من عندك ، والكف من عيبك ، هذه مكاتبة غير مواتية ، ومخاطبة
الحالين والنواتية ، ومقاسرة ، وسوء معاشرة ، وكأني بمولاي إذا انتهى إلى هذا
الحد ، تمثل وأنشد :

لئن ساءني أن تلتني بإساءة فقد سرني أني خطرت بياك
أمنت أن أغضب فأقول : لاسقاني الله بنوئك ، ولا هداني بضوئك ،
ولا بلاني بسوئك ، فإنك من أسوان والهمزة إذا حذف عنها ، فهمت ثنية
السوء منها ، وأنت الذي جلبت إليها التعنيف ، وقتحت عليها الكنيف ، فإن
كلن هوى البلد أعداك ، فقد هوى بك وأرداك ، وإن كانت الرياسة المهددة -
ولا أكر دالها - أهلك عن أصفياك ، وحسن وفاتك ، فإخالك ، وفلان
خالك ، تحفو من ينصفك ، وتنكر من يعرفك . أجدني يا مولاي قد اشتق
عنك قري ، وانظناً عنك ضرمي ، وأخذت الفتنة نارها ، ووضعك الحرب
أوزارها ، ومضرت المسألة عن جيبها ، وأخذت صفقة ثمنها .

ولهذا أولان نسرهي إلى حسن ذكرك ، ونبرعي إلى حمدك وشكرك ، وإتمام

ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقاءك ، والنطاء بطول بقائك ، وأما هذا الكلام فهو هند ساقط ، وهند ما له لا قط ، وجملة قدرك ، وطهارة صدك . وجميل اعتقادك . وخالص ودادك وسؤددك : وشرف قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك . يجعلني على عليك بأن مكاتبك من قلبي ثابتة المكان ، قوية الأركان . ولو لا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلاً . وسلبت عليا وللبست جهلاً ، ووجدت حزناً ، وعدمت سهلاً ما هذه الجراءة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المكرمة ! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمعين ؟ وعييت عينك إلى من تعلمين ؟ إن لم يترك الوجع ، فليتهك الخجل . وإن لم يترك الزيت فلا يستفرك العجل ، أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية . بل رتبة النظر والإشراف ، وتفاذ الكلمة في الأوساط والأطراف .

واتصل بي أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها في الأموال والإمضاء ، وإن كان الكيسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط أنسك . وأنا أعيدك أن تفلط في وهمك ، أو يمرض الشك على فهمك لا تقل ذهبت أجمل الخدمتين ، وأكمل النعمتين ؛ فإن من زاد في الكراء ملك الدار ، وهذه الشفراء والمضار ، وأما الخدمتان : فما أنا أجلوها على مرآة عقلك وهي صافية ، وأعرضها على بصيرة فضلك وهي شافية ؛ أما الشريعة فهي ملسوعة عدمت الرلقي ، ومريضة روحها في التراقي ، حردتها متروكة ، وحرمانها مهتركة ، ومعالها مظلومة ، وأعلامها منكوسة ، وقد نفل أديها ، ونسي قديها . وعنى وردجها ، وبلى بردها . حتى وقف الزهادة ، في لفظ الشهادة ، وتقل الأذان على الأذان ، وكان القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودرى ، وشبع من المعارف وتجمع ، وتشوق إلى الكمال وتطلع ، وبسط يده بالعطايا ، وقبض رجليه عن الخطايا ، وقد مارا القضاء في وقتنا لما قضى الله به من مقتنا ، حينولا لمن ينل فرحاً ؛ معروضاً على من لا يصون فرحاً ، شعارهم طول السبال والقامة . ومرض الالية والعمامة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينكرون الفرق بين الفشار والنشوة . هذه حال التبرج في الأمصار

لواحدة ، والأقطار الفاسحة . فأما أسوان فهي كما قال أبو الفتح البستي :
أ كتاب بست كم يحاسنكم على كتابة بست وهي نسخة حين
وحنى حنين فوق ما تطلبونه فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل في أحكام أسوان غريبة لا تعرف ، ونازلة تستطرف ؟ ما من أحد
إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصنع المربدين على التزر
والخر ، حاكها مستريح من إقامة الناموس ، وإحضار المصحف لليمين
الشموس ، لأن بين التجار ، وإلا يفرق في شهر من الماء ، ويمين الخال ، وإلا
عذبت في صحراء عذاب بالظلم والمشار يقول : وإلا فالكلب على عياله ،
والخار على أخيه عاله ، والسفاسف يقول : وإلا لصنع الوالى قضاء ،
ورضى قاه . . .

هذه الخدمة بامولاي قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ، وهي
زبدة كلها زبد ، ومورد صفوه زبد ، وهيبة محفوة بالصوب ، وذنوب مملوءة
بالذنوب ، وأما التصرف في الأموال ، والبسطة في الأفعال ، فأنت تعلم أن المال
بفضك من المجلس العالي إلى أن أخلاك في ركابه ، واختصك بخطابه ، وكنت متكسلا
قنشطت ، ومتقبضاً قنسطت ، ونظر إليك وخلع عليك ووعدك من الصيت
والتنويه ، فوق ما تأمله وتويه ، ثم افرض أنك وساحم ثغرك وقاضي ممرتك
قمتا على الوالى فأدلى القاضي بالدية ، وأدليت أنت بالهدية ، وامت على الوالى
بوقاره ؛ وامت بما قمت إلى داره . هنالك والله تعرف أن الجمال بخدمة
للالم ؛ وإلى اليمين فضل الشمال ؛ وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب
الطيلسان . ثم لو جمعك مسجد الجامع ؛ وبرزتما الناظر والسامع ؛ لا امتلا
بجسك بالجمال والخران ، والمؤدين إلى الوزان ؛ وأطافت بك الأجران السلطانية
والنواب الديوانية ، وحضت بك أبواب الرواتب والجوازي ، ولم تهد من
فوك من يراجع أريجازى ، وقلت قدموا هذا وارفعوه ، وأخروا ذلك
واضعوه . وأما القاضي فلم يكن مجلسه يختص ، ومتصورته تختص ، إلا باليتامى
والأرامل ، والمرضعات والحوامل ، ويفتح ظله همه ، وأخرج رجله مخلوطة

ويده مفلوجة ، ومشايخ عظامهم نخره ، وكوادهمم نخره ، ثم القاضي - أيده
الله - نائب حكم الصعيد ، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد .
وماض أرباب الدواوين أنهم نصارى وإن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم دفننا عن الأكام فضلا عن اليد
وهذه صورة الحال ، من غير استحال . وكأني بك إذا فهمت أطربت ،
وشددت يدك على ما فيها وربطت ، وعلت مقدار حظك فاغتبطت ، وأريد
بامولاي أن اصطادك بهذا الجنب ، أربط مرزأتى في هذا الذنب ، وأشوى
في نارك سمكتى ، وأجلب إلى شوقك رمكتى . فلأمر ما نصبت هذه الراية ،
وأجريت إلى هذه الغاية ، وجازفت وحقت ، وعن صبوح رققت ، عليك
يحيط بكثرة ما أنتف ، وقلة ما أخلف ، وغنى نفسى عن سوال الغمام ، فضلا عن
الأنام ، وليس للتوسع لأنى مبتدرا ، بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يمدرا ،
قد ركب اللجة الخضراء ، والقفرة الغبراء ، وقصد بابى ، ونزل جنابى ، أفاصون
صون قرضى ، وأذل عرضى

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل
وأما حاشيتى الضافية ، وعدتى الوافية ، فأنت فى كثرتها أصدق من
وأفصح معبر ، وما طالت محنة الغز وعرضت ، ورجوقاها أن تصح فرضت ،
رجعت إلى كنانة ذكرى ، وخزاة فكرى ، فكنت أكرم خاطر فى خاطرى
وأحسن وجه يمثل لناظرى ، وسيرت إليك بعض خروجاتى للجارى الذى
جهدت أتهاره ، وخمدت ناره ، ومبلفه يسير فى جنب كرمك ، عتير إذا قرن بهمك .
فكم فى الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختيارى
ولا تقل كم بين الفساطط وآخر الصعيد ، إن هذا هو المرى البعيد . فلو
كنت أعلم أنى عندك من ينده سره ، ويكدر بالأعداء شربه ، تقصرت ما
أطقت ، وبخلت بما بذلته ، ولكنى قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه ، إذ أنت
عالمك ، وغيرى يقبل من جودك بعض مجهودك ، وقد أقسمت عليك وإبرار
النفس إليك ، النفس الأمانة : سامعنى فى عمارة ، واتركى عنك تصور باعك ،
وجفاء طباعك ، فإن هذا سواد الناظر ، بل ضمير الخاطر ، وسقف السماء ، وعذب

الماء ، وكأني بالوصول وقد آل إلى الحصول ، وبالسؤال في يد الرسول :
ألا إن قسا بين جنبي محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم
وياطلمها قالت له عند فرصة من الجودخذها لا تفتك فتقدم

يامولاي قد أجلت الرسول شهرا ، وأنا أعده دهرًا ، وأقف حيث أنهيت
وأسأل الجواب عما أنهيت ، فإن الحاجة سائق حثيث ، والوقت غريم خبيث ،
ورأيك الفضل المعروف بالفضل ، والطول المشفوع بالتطول . ولولا أن
هذه الرسالة صادرة عن قاتل لا يتقول ، واردة على قابل لا يتأول ، سألت
كرمك عن بسط العذر عما فيها من التقصير . وحسبنا الله ونعم النصير (١) .

فهذه الرسالة على الرغم من إصرافها في الطول تجمع بين عدة فنون وأغراض
كانت من أغراض الشعر ، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل
الأقطار الإسلامية ، وجعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل ،
ففيها ذكر الفراق والعتاب ، والتهكم الذي هو أقرب إلى الهجاء ، إلى غير ذلك
من الموضوعات .

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب
مصر الفاطمية ، فالرسالة تقوم على السجع ، ثم على هذه الألوان المختلفة من
البديع ، من تورية واقتباس ، وتضمن واستشهاد ومراعاة النظر وتشخيص وغير
ذلك من هذه الألوان التي تفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية . ولم يشذ عن
اتباعها كاتب واحد من كتابهم : فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي
تورخه ، والعصر الذي يليه وأسرف في استخدام هذه الألوان البدعية ، فهو لم يأت
بشيء جديد إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة
وسار على منهجهم وسنتهم ، ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي
والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية ، لأن القاضي الفاضل
قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي . فكان وزير صلاح الدين ومقشاه ،
والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين ، فن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل ،

(١) النكت المصرية ج ٢ ص ٤٢١ .

ويثنوا عليه الثناء كله ، حتى بالغ بعض الكتاب فقال : إن القاضي الفاضل
ابتدع طريقة جديدة في الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية ، وكما كنت أود
ألا يتسرع بعض المحدثين في أحكامهم وكتاباتهم التي ساروا فيها على نمط من
سبقهم ، فنسبوا إلى القاضي الفاضل هذا المذهب الجديد — في نظرهم — عن
الكتابة في مصر ، فالقاضي الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية .

وهذه الطريقة التي نسبت إليه ، عرفها كتاب مصر الفاطمية ، بل عرفها
كتاب مصر منذ عهد الطولونيين .

خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئاً عن الحياة في مصر الفاطمية ، وكيف تطورت هذا التطور الحظير بعد عصر الإخشيديين ، فقد كانت عقائد الفاطميين سبباً قوياً في تطور الحياة ، ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي ، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية ، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقراً لحكهم . واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين أو لأموي الأندلس ، وأن يسطروا بسطان مصر على ما جاورها من البلدان ، فانتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية : كما عمل الدعوة ، على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، فانبجست القلوب والأفكار بمن شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر ، وأصبحت القاهرة كمبتهم التي إليها يحجون ، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكاتها في عصر الولاة الذي سبق العصر الفاطمي .

ورأينا شيئاً عن الحياة الاجتماعية ، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء ، فالأموال والهدايا كانت تدرى على الأئمة بمصر ، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله ، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها ، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين ، فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل ، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي ، ولكنها ازدادت بهجة في العصر الفاطمي ، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها ، فورثها الأحفاد عن الأجداد ، أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين ، فكل هذه الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتأنق في كل شيء .

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معا ، لذلك اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بألوان العلوم المختلفة ، ولا سيما ما كان منها يمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى عقائدهم مثل علوم الفلسفة ، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية

ازدهارا لم نسمع عنه من قبل ، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم ، فكانت نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمنها خزائن الدعوة باسم كتب الحقيقة ، ولما دالت دولة الفواطم ضعفت هذه الدراسات وقل أن نجد لها أثرا في مصر ، وإني زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية ، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى ، فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية ، حقيقة أهم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة ، وأسوا دار العلم ، وجمعوا فيها الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة ، ولكن هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي وتتطور تطورها الطبيعي ، حتى إنهما لم تتوقف بعد عصر الفاطميين ، كما توقفت الدراسات الفلسفية ، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل على ، فشجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى ، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهارا عظيما

وكذلك تقول عن الحياة الأدبية فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة وهم شعراء العصر أو شعراء الحضرة يجهدون أنفسهم في أن يلبوا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم ، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلقت عليها ، نظرية المثل والمثول ، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية ، ^{سبحان} ندرك ما أرادته الشاعر من مدحه ، وإلا كل فهمنا لهذا الشعر قاصرا غير ^{شحيح} ، فالعقائد أثرت تأثيرا قويا في الحياة الأدبية تأثيرها في جميع نواحي الحياة .

وهنا نقف لتسائل : هل بعيت الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين ؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لصدوة الفاطميين ، ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع ، إلى أن هددهم المرزبيغ وأغرام ببعثه ، فاعتنقوا عندئذ التشيع ، وعلى الرغم بما في هذا القول من مبالغة ، فإننا لا نكر أن من المصريين

من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبة أو رهبة ، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه
السني ، وذكرنا أن من أسباب اقراض الدولة الفاطمية تهاون القاطنين بالأمر
فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة ، فانهارت الدعوة بسبب ذلك ، وسهل على صلاح
الدين أن يدبيل الدولة ، وعلى الرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات
كانت تدين بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك ، وفضرة إلى كتاب
الطالع السعيد للإدقوي ، أو كتاب الضوء اللامع للسغاوي ، ترينا عددا من
أمثال المصريين كانوا يقشيمون ، من ذلك ما ذكره الإدقوي عن إبراهيم بن محمد
بن علي بن مطهر بن نوفل الإدقوي : « ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز ،
فاستحق به التمييز ، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازما للصلاة
والتلاوة والعبادة ، وهو كل يوم من الخير في زيادة ، مع صدق طيبة وصيانة ،
إلا أنه كان من أتباع الشيعة ، أصحاب تلك البدع الشنيعة ، شاهدها لما حضر داود
الذي يدعى أنه ابن سليمان بن العاصد إلى إدقو في سنة سبع وتسعين وستمائة ،
وهو بين يديه ، وقد أخذ العهد عليه ، وهو ينشده قصيدة . نظمها منها :

ظهر النور عند رفع الحجاب فاستنار الوجود من كل باب
وأنا في البشير بخبر عنهم ناطقا عنهم بفصل الخطاب (١)

ويروي الإدقوي أيضاً قصة قطيبة الأسفوني الشاعر عند حاشكاه بعض
أهل إلى الوالي بقوص ، فجاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الأمرى وكان شيعياً ،
فلما رآه قطيبة قال : يا آل أبي بكر ! فاغتاظ الناظر ، فأنشد قطيبة :

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر بأسفون ماوى كل من ضل أو كفر
لم منهم داع ككتيس معمم وحسبك من تيس نولى على بقر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهمو يسبوا أبا بكر ولم يشنوا عمر
نقد ما لهم لا تخشى من ما لهم فإن مال الكافرين إلى مقر (٢)

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه
من قبل - في سنة ٦٩٧ هـ ادعى هذا الذي لمن استجاب له أنه يتحمل عنهم

(١) الطالع السعيد ص ٥١ (٢) المصدر نفسه ص ١١٨

الصلاة ، قبل كلامه ، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض
أهل بلده من قصيدة أشدها :

ادرج ستلقى بعدها الأموالا لاعتقت تبلغ هندا آمالا
يا من تجمع فيه كل قبضة فلاضربن بسيرك الأمثالا
وذممت أنك للتكف حامل وكذا الحمار يحمل الأثقالا (١)

ويقول الإدريسي أيضاً عن الشيخ بهاء الدين القفطي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ
« رقت إسنا فإنه كان بها التشيع تاهياً ، فما زال يجتهد في إخراجه . وإقامة الدلائل
على بطلانه ، وصنف في ذلك كتاباً سماه « النصائح المفترضة في فضائح الرقعة ،
وهموا بقتله لحماة الله منهم » (٢) ويذكر عن عبد القادر بن مهذب الإدريسي المتوفى
سنة ٧٢٥ هـ أنه كان إسماعيل المذهب مشتغلاً بكتاب دعائم الإسلام (٣) . معنى
ذلك أن التشيع لم ينتج من مصر بزوال دولة الفاطميين ووجود حكومات سنية
متعصبة لذهبها ، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول : إن المصريين الآن
لا يزالون متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ ألف عام تقريباً .
فأهل السنة من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا : يا عمر III ، وهذا بقية
من بقايا سب السلف الصالح في العصر الفاطمي ، وأهل مصر إلى الآن إذا ذاروا
ضريح « السيدة زينب ، وضعوا تماذج لسفن على الضريح ، وهذا أثر آخر من
تأثير العقائد الفاطمية الآن في المصريين ، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبي
صلى الله عليه وسلم : « أهل بيتي فيكم كسيف نوح من ركبها نجى ، ومن تركها غرق »
ولا يزال المصريون إلى اليوم يتسمون بالبركة والشفاعة من أهل البيت ،
ويطوفون بأضرحتهم لتضاء الحاجات الأعلى نحو ما كان يفعل في أيام الفاطميين ،
والمصريون إلى اليوم يذكرون علياً والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون
أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار . ومن ناحية أخرى ترى
المصريين اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون ، وإن

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

(١) الطالع الجديد ص ١٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥

كنا نخالقهم في أننا الآن نأخذ برؤية البصر ، وكان الفاطميون يأخذون برؤية
الاستمرار ، ولا تزال إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين مثل أيام عاشوراء
التي اتخذناها فرحا ، وكانت في أيام الفاطميين أيام حزن ، ونحتفل ليلة نصف
شعبان وليلة السابع والعشرين من رجب ، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها
المصريون قبل العصر الفاطمي ، ونرى الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع
التشيع الذي كان في العصر الفاطمي .

وإن فصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع
الذي نشره الفاطميون .

وبعد ، فهذا الكتاب الذي قدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية
والعلمية في مصر الفاطمية ، ولا أدعي أنها صورة كاملة صحيحة ، لأن آثار
الفاطميين الأدبية والعلمية فقدت ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وهو الذي
عتمدت عليه في هذا البحث ، ولعل وقت ؟

فهرست الموضوعات

| صفحة | |
|------|---|
| ٥ | مقدمة الطبعة الأولى |
| | الكتاب الأول : في الحياة العقلية |
| ٢١ | <u>الباب الأول : في الدعوة الفاطمية</u> |
| ٢١ | الفصل الأول : عقائد الفاطميين |
| ٢٨ | الفصل الثاني : مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها |
| ٤٢ | المساجد |
| ٤٥ | القصر |
| ٥٠ | دار العلم |
| ٥٤ | الفصل الثالث : مجالس الحكمة التأويلية |
| ٥٨ | المجلس التاسع من المائة الثانية |
| ٦٣ | الفصل الرابع : أشهر علماء الدعوة الفاطمية |
| ٦٣ | بنو النعمان |
| ٧٥ | يعقوب بن كلس |
| ٨١ | المزيد في الدين داعي الدعوة |
| ٨٩ | <u>الباب الثاني : في الحياة العلمية</u> |
| ٩٦ | الفصل الأول : العلوم الفلسفية |
| ١٠٣ | ابن الهيثم |
| ١١٥ | الفصل الثاني : علوم اللغة العربية والفقه |
| ١١٥ | علوم اللغة والنحو |
| ١٢١ | القراءات وعلوم القرآن |
| ١٢٣ | رواية الحديث |
| ١٢٦ | دراسة مذاهب أهل السنة |
| ١٢٧ | قها الشافعية |

| الصفحة | |
|--------|--|
| ١٢٨ | قهاء المالكية |
| ١٣٠ | تعصب الفاطميين لذهبهم ! ! |
| ١٣٦ | الفصل الثالث : التاريخ والسير |
| ١٣٦ | ابن زولاق |
| ١٣٨ | السيحي |
| ١٤٠ | القضاعي |
| ١٤٢ | فن السير |
| ١٤٣ | سيرة الأستاذ جوذر |
| ١٤٥ | السيرة المؤيدية |
| ١٤٦ | خاتمة القول في الحياة العقلية |
| | الكتاب الثاني : في الحياة الأدبية |
| ١٥٣ | <u>الباب الأول : في الشعر</u> |
| ١٥٣ | الفصل الأول : ازدهار الشعر |
| ١٦٠ | شعر الأئمة |
| ١٦٨ | ضياح الشعر الفاطمي |
| ١٧٢ | الفصل الثاني : الشعر والأئمة |
| ٢٠٢ | الأمير تميم بن المعز |
| ٢٠٧ | الفصل الثالث : الشعر والوزراء |
| ٢١٢ | الأفضل وشعراؤه |
| ٢١٢ | أمية بن أبي الصلت ورسائله المصرية |
| ٢٢١ | أبو علي الأنصاري |
| ٢٢٤ | ظافر الحداد |
| ٢٢٨ | شعراء بني رزيق حتى آخر الدولة الفاطمية |
| ٢٢٨ | المهذب بن الزبير |
| ٢٤٥ | القاضي الرشيد بن الزبير |

| الصفحة | |
|--------|-------------------------------------|
| ٢٥١ | القاضي الجليس |
| ٢٥٤ | عمارة اليمى |
| ٢٥٨ | ابن قلاقس |
| ٢٦٤ | الفصل الرابع: الشعر والحرب الصليبية |
| ٢٧٦ | الفصل الخامس: فى الغزل |
| ٢٨٥ | الفصل السادس: أغراض أخرى فى الشعر |
| ٢٨٥ | التصوف والزهد |
| ٢٩٠ | الوصف |
| ٢٠١ | خاتمة القول فى الشعر |
| ٣٠٩ | <u>الباب الثانى : فى النثر</u> |
| ٣٠٩ | الفصل الأول : ازدهار النثر |
| ٣١٢ | النثر والآئمة |
| ٣١٨ | الفصل الثانى : كتاب ديوان الإنشاء |
| ٣٣١ | ابن خيران |
| ٣٣٥ | رسالة من كتاب المؤيد |
| ٣٣٧ | ابن الشخباء |
| ٣٤٢ | ابن الصيرفى |
| ٣٤٨ | أبو الفتح بن قادوس |
| ٣٥٣ | أبو على حسن بن زبير |
| ٣٥٤ | الموفق بن الخلال |
| ٣٥٨ | عمارة اليمى النائر |
| ٣٦٦ | خاتمة |
| ٣٧١ | فهرست عام |
| ٣٧٤ | المراجع |

المصادر والمراجع

- اتعاظ الخفا بأخبار اللائمة الخلفاء للقريزي : طبع دار الفكر العربي
أخبار الدول المنقطعة للخزرجي : نسخة فوتوغرافية بدار الكتب
إخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي : طبع القاهرة ١٣٠٦
أسرار النطقاء لمعفر بن منصور : مخطوط بمكتبي
الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م
إفانة الأمة بكشف الغمة للقريزي : د د د سنة ١٩٤٠ م
افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد المغربي : نسخة خطية بمكتبي
أبناء الزمن في أخبار النبي يحيى بن الحسين : طبع برلين سنة ١٩٣٦ م
الاتصار لابن الحياط : طبع القاهرة
الاتصار بواسطة عقد الامصار لابن دقاق : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ
بحار الأنوار للجلبي : طبع حجر بتبريز
بدائع الزهور لابن عباس : طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ
بنية الوعاة للسيوطي : طبع القاهرة
تلج العروس
تاريخ ابن الأثير
تاريخ ابن خلدون
تاريخ مصر لابن ميسر
تاريخ ابن صالح الأرمي
تاريخ الإسلام للنهي
تاريخ أصفورد سنة ١٨٩٤ م : طبع
نسخة خطية بدار الكتب
للمصرية رقم ٤٢ تاريخ
تاريخ الحركات العسكرية في الإسلام لبندلي جوزي
تجارب الأمم لمسكويه
تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد : نسخة خطية بمكتبي
التوحيد في الرد على الملاحدة والشيعة للباقلاني : طبع دار الفكر العربي
تفسير الألوسي

- الرد على الباطنية للفزالي
رسائل إخوان الصفا
: طبع لندن سنة ١٩٢٦
: طبع القاهرة
الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت
رسالة الرشد والهداية لمنصور المين
: نسخة خطية بدارالكتب المصرية
: من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
رسائل الكرمانى (ثلاث عشرة رسالة)
الرسائل المستنصرة
: نسخة فتوغرافية بمكتبتى
: نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات
الشرقية بلندن
رقع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر
: نسخة خطية بدارالكتب المصرية
رقم ١٠٥
روضه الأدب في طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازى : طبع حجر بيومباى
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسى : طبع القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ
سراير لقطقاء الجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتى
سفر قامه لناصرى شعرو وتوجهه الدكتور يحيى الخشاب : طبع القاهرة
سيرة الأستاذ جورد
: نسخة خطية بمكتبتى
سيرة المؤيد بن الدين داعى الدعوة
: من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
صبح الأعشى للقاتشندى
الطالع السعيد للأدغوى
عقد الجمان للمينى
: طبع القاهرة سنة ١٩١٤
: نسخة خطية بدارالكتب
المصرية رقم ١٥٨٤
عيون الأنبا لابن أبى أصيبعة
: طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ
عيون المعارف ورياض كل متبصر طرف : طبع بومباى سنة ١٢٩٧ هـ
عيون المعارف وفتون أخبار الخلائف القضاى : نسخة خطية بدارالكتب
المصرية رقم ١٧٧٩
الفيت المسجى للمفدى
: طبع القاهرة
الفاطميون في مصر للأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن

- الفترات والقراءات لجعفر بن منصور البين : نسخة خطية بمكتبي
فتوح البلدان للبلاذري : طبع القاهرة
الفخرى في الآداب السلطانية لابن طباطبا : طبع القاهرة
فرق الشيعة للنوبختي : طبع استامبول سنة ١٩٣١
الفرق بين الفرق البغدادى : طبع القاهرة
الفصل لابن حزم : طبع القاهرة
فضائل مصر لابن زولاق : نسخة خطية بمكتبة الازهر
فضائل مصر الكندي : نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٧٥٢
الفهرست لابن النديم : طبع القاهرة
فهرست كتب الشيعة للطوسي : طبع كلكتا سنة ١٨٥٥
فوات الوفيات لابن شاكر : طبع القاهرة
القاموس المحيط
الكشاف للزمخشري
كشف أسرار الباطنية لابن مالك الخاوي : طبع القاهرة سنة ١٩٣٩
الكشف لجعفر بن منصور بتحقيق ستروتمان : طبع القاهرة
كنوز الفاطميين للأستاذ الدكتور زكي محمد حسن
لسان العرب
المجالس المؤيدية للؤيد في الدين داعي السطة : نسخة خطية بمكتبي
(ثمانمائة مجلس)
المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن محمد المغربي : نسخة خطية بمكتبي
المجالس المستنصرية تحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين -
طبع دار الفكر العربي
مجموع اشعار الإسماعيلية : نسخة خطية بمكتبي
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي : نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٥٥١ تاريخ
الخصيص لابن سيده

- مسالك الأبيصار لابن فضل الله العمري : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
المسالك والممالك لابن حوقل
معرفة أخبار الرجال للكني
المغرب في حل المغرب لابن سعيد
مقالات الإسلاميين للأشعري
المقنن الكبير للقريري
- نسخة خطية بالمكتبة الأهلية :
بيارس رقم ٢١٤٤
: طبع القاهرة
: طبع فريد رفاص
- الملل والنحل للشهرستاني
معجم الأدباء لياقوت
معجم البلدان لياقوت
مقولات الهند للبيروني
المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للقريري : طبع القاهرة
- التجوم الزاهرة لابن تغري بردي : طبع دار الكتب المصرية
نظرة المثل والمشول للدكتور محمد كامل حسين : طبع القاهرة سنة ١٩٤٨
قد العلم والملاء لابن الجوزي : طبع القاهرة
لنسكت المصرية لمهارة النبي : طبع سالون سنة ١٨
نهاية الأرب للنوري : نسخة خطية بالمكتبة الأهلية
بيارس
- الهداية الأمرية بتحقيق الأستاذ آصف فيضي : تخرجه جمعية الدراسات الإسلامية
بالمهند
- الهمة في آداب اتباع الأئمة بتحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
طبع دار الفكر العربي
- وفيات الأعيان لابن خلكان
الولاية والقضاء للكني
بينية الشعر للثعالبي
- : طبع القاهرة
: طبع بيروت سنة ١٩٠٨
: طبع بيروت

المصادر والمراجع الإفرنجية

Asaf A. A. Fyzeo :

- A Chronological List of the Imams and Da'is. (J. B. B. R. A. S. 1934).
- Isma'ilia Law and Its Founder.
- Materials For an Ismaili. bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. 11, 1935).
- Qadi un. Nu'mans. (J. B. A. S. 1934.)

Guyard (M.S.) :

- Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, (Paris).

De Goeje.

- Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimide. (1886.)

Hamadany (H. F.) :

- The History of the Isma'ili da'wat and its literature during the last Phase of the Fatimid, (J. R. A. S. 1932)

Ivanow, (W.)

- A. Guide to Ismaili Literature. (London 1933.)
- The Organisation of the Fatimid Propaganda. (J. B. B. R. A. 3. 1939.)
- The Greed of the Fatimids (Bombay 1936.)
- Ismailis and Qarmatians (J. B. B. R. A. S. 1940)
- The Rise of the Fatimids (Bombay 1942)

Lewis, (R.)

- The Origins of Isma'ilism (1940)

Massignon (L.)

- Salman Pak (S. E. I.) Paris 1934.
- Esquisse d'une bibliographie Qarmate, 1922.

O'Leary,

- A short History of the Fatimide Khalifate 1923.

Quatremere, (N)

- Mémoire Historiques sur la Dynastic des Khalifs Fatimid J. A. 1836.

تطلب جميع منشوراتنا من فروغنا

الفرع الرئيسي:

٦-١ شارع جوارحسني - الفالقة

ت : ٧٥-١٦٧

فرع الرقة:

٢٧ شارع عبدالعظيم لشد - متفيع مونة

شارع الركنوتناقصين - بالعجوزة

ت : ٧١٧٤٩٨

فرع مدينة نصر:

٩٤ شارع عباس العقاد - المنطقة العارسة

ومن مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع

كروم شارع عيد السلام عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرض

ت : ٢٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٤٤